رواية

بائع الهوى

جميل نهرا

دار العين للنشر

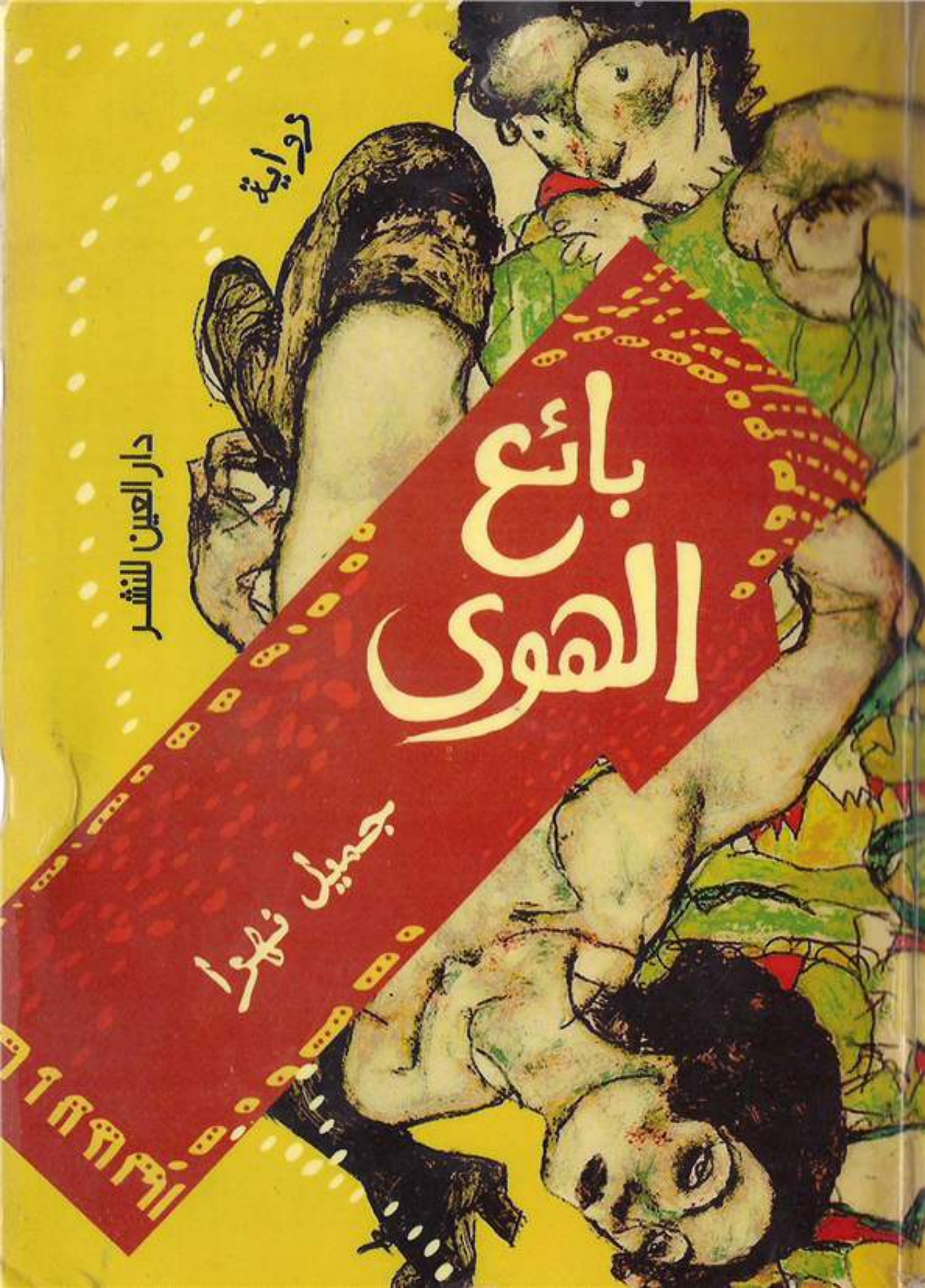

بائع الهوى

رواية

جميل ظافر نهرا

دار العين للنشر

إلى

جيمي نهرا

ياسين الحاج صالح

"وهكذا ما زلت يا أولمبياس إيميسا إلى اليوم، أشرف مهبل أدارته الدنيا نحو الشمس".

أبوخالد

"يجب أن نقف ضدّ كل برجوازية أو يسار يقهر الشعب ويصادر حريته".

مريم ميمون

الفصل الأول

كل الشهوات جميلة

شعرت فاتن بشفتيّ الفتى تعبث بقدمها، قبّل أصابعها ومصّها بتمهل وبنفسٍ مقطوع، ثم قبّل باطن قدمها وكاحلها وساقيها، وصعد يقبلها رويدًا.

باعدت بين رجليها قليلًا ورفعت شيئها إلى شفتي يوسف.

دفع الشعور اللذيذ دماءها حارة إلى تلك القطعة الحساسة بين فخذيها، وحجب عنها الخوف من الفضيحة، وخطر العبث مع فتى بالكاد يبلغ نصف سنيّ عمرها.

برفقٍ، رفعت جذعها إلى أعلى، وضعت راحة يدها اليسرى فوق رأسه وضغطت، ما هي إلا ثوان أخرى حتى فاضت شهوته وشعرت بقدمها مبتلة.

فتحت عينيها فلمحت كتفيه يبتعدان خارج غرفتها، أحست بضيق، فهي لم تحصل على شهوتها كاملة، أصغت لتتأكد من أن المنزل خالٍ، وفكرت بأن تناديه وتدعوه إلى سريرها.

حبست أنفاسها وأصغت مرة أخرى، في النهاية قررت أن تنتظر الوقت المناسب، نهضت إلى المطبخ وشربت قليلاً من الماء، لم تكن عطشى، أرادت التأكد من أن أحدًا لم يلحظ الفتى يعبث بجسدها.

رنت بنظرها إلى الخارج، فشاهدت يوسف يركض خلف كرة عاريًا إلا من سرواله، كان جسده الفتي يلمع تحت شمس الصيف المحرقة في شارع خالٍ حتى من النسمة، عادت إلى سريرها تتساءل: من أين له هذه الطاقة؟ وهل كانت لديها تلك الهمة عندما كانت يافعة مثله؟

حضنت وسادتها ونظرت إلى جسدها وقدميها وتساءلت عما يعجب يوسف بهما. سرحت تتخيله فوقها يعصر ثدييها ويضاجعها بجسمه البض، ثم عادت فاستسلمت للنوم.

***

في الأسبوع التالي، رافقها يوسف إلى مدينتها مترامية الأطراف، نظرت إليه يغفو بجوارها في الحافلة خلال طريق العودة، تذكرت والدته ووجها الجامد يتفوه بكلمات حفظتها غيبًا تقتضي إكرام الضيف وثنيه عن المغادرة.

– ما زلنا في شوق إليك، لا تذهبي يا فاتن.

– تعلمين أن إخوتي مشغولون بتدبير أمورهم عن والدتي، وهي تشعر بالوحدة خاصة بعد وفاة والدي.

أرسلت سيدة المنزل آهةً فيها كثير من التفهّم، كانت تقول في سرّها: "استقبلتها أسبوعين كاملين، أهملت معظم واجباتي وأصدقائي من أجلها، وحان وقت رحيلها".

كانت سعيدة باسترجاع حياتها الرتيبة الهادئة بعيدًا عن الشابة فاتن صديقة طفولتها ذات العينين الفارغتين، التي لن تتوانى عن إغواء زوجها ذي العين الفارغة أيضًا. لم يخطر ببالها أن فاتن أطالت البقاء من أجل يوسف ابن الأربعة عشر عامًا، لا من أجل والده، ولم تستغرب إصرار فاتن على اصطحابه معها إلى منزل أهلها، ظنت أن ذلك بادرةٌ لرد الجميل وإراحتها من طيش يوسف كثير الحركة، سرحت تتخيل أنها قد تتمتع بيومين هادئين مع زوجها الذي بدأ يملّها، في وقت بدأت تشتاق إليه أكثر من المعتاد.

لم تكن فاتن تهتم بزوج صديقتها، كانت تتخيله فظًا في الفراش كما هو في معاملته لأسرته ومع عماله وزبائنه في المطعم الذي يملكه في طرف القرية. تذكرت أنه أعجبها بشخصيته العنيفة تلك وشجاعته يافعًا، لكن كل ذلك انتهى الآن.

لقد هرم بسرعة، وفقدَ حسّ دعابته اللاذع الذي كان يتمتع به، وغدت فترة وجوده القصيرة في المنزل تزعجها كما يوسف.

كل هذا أصبح من الماضي الآن، لقد حصلت على يوسف، ذلك الصبي الذي أثارها بصدره العاري الصلب ووقاحته.

ذعرت في البداية لمجرد التفكير الشبق به، إلا أن ثقته بنفسه ومداعبته المثيرة لها سرعان ما محتا ذلك الخوف.

تساءلت لوهلة عما إذا كان ما تفعله ينطوي على أي قدر من المسئولية أو الصواب، كيف يمكنها أن تداعب فتى يافعًا؟ أين العدل في ذلك؟

قالت لنفسها إنها حالما تغادر منزل العائلة، سيغادرها شعور الذنب، وتذكرت جملة صديقتها الشقيّة زينة "عدالة البشر؟ سوء تفاهم مع العدالة".

شعرت بضجرٍ من تلك الكلمات المقيتة، نظرت إلى الفتى ينام بعمق إلى جانبها ثم إلى وجهه وشفتيه، لمست خدّه، ونظرت إلى سرواله. حدّثت نفسها "نعم، سأعطيه ما يريد وسآخذ منه ما أريد".

***

– أهلًا يا حبيبي، كيف حالك؟ كيف والدتك وأبوك؟ عساهما

بخير؟ متى ستزورنا الوالدة مرة أخرى، لقد عادت بسرعة إلى القرية، لكن من يستطيع أن يلومها؟

سألته حليمة "الجدة الكبيرة" كل الأسئلة مرة واحدة، وقبّلت جبينه ووجهه، ودعته إلى الجلوس بقربها، فهي عجوز والوقوف يتعبها.

أمسكت بيديه وقالت إن وفاة زوج فاتن ترك فراغًا في حياتها كما في حياة ابنتها، خاصة بعد وفاة زوجها هي أيضا، فقد أصبحتا امرأتين وحيدتين لا حول لهما ولا قوة.

تحسّرت على شباب فاتن الجميلة، ودعت أن يوفقها الله بابن حلال يستر عليها، فالمرأة كسيحة من دون رجل يظلل عليها، ثم أشادت بلفتة والدته ووقوفها إلى جانب فاتن خلال تلك الأزمة، وإصرارها على اصطحابها معها للإقامة في قريتهم حيث الهواء النقي والهدوء الذي لا تشتريه كل نقود المدينة.

جلس يهز رأسه إيجابًا طيلة حديث الجدة، كان فكره مشغولًا باكتشاف حي المدينة الواسع، وشراء حلوى لا يجد مثيلها في قريته الصغيرة، إلى أن نادته فاتن تسأله أن يساعدها في ترتيب ثيابه.

ركض إليها فرحًا، سقطت من رأسه فكرة اكتشاف الحي عند سماع صوتها، وتذكّر رائحة شيئها الشهية، وفخذيها ممددين بلا خوف في منزله.

قرع الباب بلطف قبل أن يدخل. لم تنتظر إليه، كانت تعد له سرير أختها التي تزوجت قبل عامين.

أراد هو ذريعة ليلمس جسد فاتن الطري، وبشرتها البيضاء الناعمة والعطرة، فكّر أنها قد تطلب منه أن يرفع قدميها إلى صدره كي تلبس جوربيها كما فعلت من قبل، لكنها لم تفعل، كانت تخطط بهدوء، فالصغير داخل غرفتها، وهو باق ولن يهرب.

اكتشف يوسف أنها نادته ليساعدها في ترتيب أغراضه، أخرجت ثيابه من الحقيبة الصغيرة البنية ووضعتها على السرير، وأشارت إليه كي يضعها في خزانة خشبية سوداء تفصل بين السريرين، طلبت منه ألا يقرب المرآة وصندوق الزينة الرمادي أمامها، فتلك أغراض للفتيات وحسب، ثم غادرت الغرفة.

كانت الغرفة صغيرة ومرتبة، تتسع بالكاد لشخصين فقط، تطلّ من الدور السابع على حديقة صغيرة تبدو جميلة من أعلى.

اقترب يوسف من النافذة. شاهد العمارات السكنية تمتد مبعثرة أمامه، بعضها من 7 أدوار وبعضها أكثر، أو هكذا تراءت له.

فاجأه نمط المنازل الجديد، حيث يعيش الناس في منازل مكشوفة أبوابها ونوافذها أمام بعضهم بعضًا. انتبه إلى الأولاد والازدحام أسفل العمارة، نظر خلفه، لم تكن فاتن موجودة، طلب من الجدة أن تسمح له بالتنزه خارج المنزل فوافقت شرط ألا يبتعد عن الحي.

عاد يوسف في السادسة مساءً يحمل حلوى، وبعض قصص مصورة اشتراها من أحد باعة الرصيف.

كما طلبت منه فاتن، أخذ حمامًا ساخنًا، نظّف أسنانه ودخل في فراشه، كان منهكًا من الجري طوال النهار أسفل العمارة، ما هي إلا لحظات حتى غط في نومه.

دخلت فاتن الغرفة فوجدته نائما، استلقت فوق سريرها تتأمل الصبي، ثم خرجت إلى صالة المنزل، جلست على الأريكة ومددت جسدها، نظرت إلى صور أهلها وأختها مع زوجها وأولادها.

رنت إلى صورة تجمعها بصديقتها زينة فوق منضدة التلفاز، تذكرت ضحكتها المجلجلة التي كانت تنتقل سريعًا إلى من حولها. كانت زينة خلال دراستها الجامعية تقول إنها ستخرج للغزو، أي أنها ستذهب إلى الملهى لاصطياد الشباب الظرفاء أو الأغنياء القبيحين، تذكرت إحدى جمل زينة الرنانة: "عليك بارتداء ثياب جميلة، ثم الذهاب إلى أقرب مرقص، وهناك ستضاجعين بجمالك وتدبيك الشهيين أجمل شاب تريدين. هذا ما أفعله على الدوام، كيف تظنين أنني أحافظ على هذا القوام الرشيق والطلة الحلوة؟ المرأة كالشجر، والجنس كالماء بالنسبة لها، من دونه تذوب وحيدة، يجب أن تكوني سعيدة من الداخل".

وأتبعت ذلك بضحكة كالصراخ بعد أن أشارت إلى مهبلها.

ابتسمت فاتن، وتخيلت الصراخ والضجيج اللذين يمكن أن تصدرهما زينة عندما تخبرها عن يوسف وما تفعله به.

نهضت عن الأريكة، تحاشت النظر إلى صورة أبيها، لم تكن مستعدة لإخباره، خرجت إلى الشرفة، أشعلت سيجارة، دخّنتها على عجل، ثم دخلت غرفتها.

اقتربت من يوسف، قبّلت شفتيه الرقيقتين، وأوت إلى فراشها. قبل أن تنام كانت مقتنعة أنه هية من الله الذي شعر بعذاباتها فأرسل لها الصغير حتى يشعل نار المرأة بداخلها من جديد.

***

استيقظ يوسف في السابعة صباحًا، كانت فاتن لا تزال ممدّدة في سريرها. أيقظها لسانه يمسح برفق فوق جسدها، وشفتاه تقضمان فخذيها وتدنوان من شيئها. لم تحرّك ساكنًا إلى أن شعرت به يداعب شيئه ويقربه من فخذها، فمالت واستلقت على ظهرها، وباعدت بين رجليها فظهر فخذاها ناصعي البياض وما بينهما، لم تكن ترتدي سروالًا داخليًا فبان مهبلها.

تذكر يوسف سوسن أولى تجاربه الجنسية التي أخبرته أن نصف المرأة الأسفل أجمل ما فيها.

لم يكن ليدع فرصة كتلك تفوته، نهض عن فخذها واقترب من

وسطها وأنفاسه تتلاحق، ثم لعق شيئها كما كانت علّمته سوسن، فندّت من فاتن آهة مكتومة لم تُجفِل الصغير. تابع اللعق والتقبيل حتى أولج فيها.

شعر بتشعريرة تمسك رأسه كقبضة حديدية، فترفعه عن الأرض من فرط اللذة. تململت فاتن في سريرها حتى تدعه يدخل فيها أكثر، وكان لها ما أرادت، خرجت منها تنهيدة أقوى حاولت كتمها كي لا تشوّش الصبي، ما هي إلا دقيقة أخرى حتى ضغط على فخذيها بقوة، وفاضت شهوته، فتوقف، بدأ يرخي قبضته شيئًا فشيئًا، جلس إلى الخلف وانسحب من سريرها بهدوء وغادر الغرفة إلى الحمام.

تبعته فاتن، دخلت خلفه، غسلت شيئها بالماء، ثم بالت وهو يقف يراقبها.

أخبرته أن التبول بعد الجماع، وفقًا لإحدى المجلات الطبية، مفيد للمهبل، وقالت إنها تستطيع إخباره كيف يمكنه إطالة انتصاب عضوه قبل القذف.

بدا يوسف متوترًا لوهلة.

تشجّع فسألها كيف يمكنه ذلك. فقالت:

عليك أن تمارس العادة السرية قبل الجماع بساعة. أنت ما زلت

صغيرًا، وشبكه الذهبي هذا يستطيع الانتصاب والقذف كما يحلو له، ولن تزعج صلابته مجّة سريعة. وأشارت بإصبعها إلى شيئه ثم حضنته براحة يدها.

ابتسم لها بشيء من الحياء وأخبرها أنه سيفعل ذلك.

نهضت عن كرسي الحمام، قبّلت شفتيه، ولعقت لسانه، ثم أذنيه.

أخبرته أنها ستنتظره مساء اليوم في غرفتها، إن أراد مضاجعتها من جديد، على أن يكون في المنزل قبل الساعة السابعة مساء، ثم خرجت.

***

لم يشعر الفتى بأي حنين إلى قريته، فالمدينة بدت له كفاكهة شهية، وبوابة لعالم مليء بالأحلام. هذا العدد الهائل من البشر هنا يلغي أي وجود لدنيا القرية الصغيرة التي نشأ فيها يوسف.

عندما لا يكون منهمكًا في قراءة القصص والكتب التي ابتاعها، يجلس أسفل بناية فاتن، يراقب الوجوه، كان يظن أن لكل وجه حكاية مختلفة.

بسرعة ميّز المقيمين في حيّه، أصبح يفصّل قصصه عن الوجوه

الجديدة التي تثيره كما يريد، لم يعره السكان أي اهتمام ولم يفطنوا إلى شبقه، حتى بوّاب البناية كثير الريبة، فهو طفل فليراقب كما يشاء.

2

دائما نعود ذاكرتنا الأولى، فيها تولد الأسئلة

كبر يوسف أسرع من أقرانه في كل شيء، كان يحلق لحيته في عمر الرابعة عشر، كوالده امتلك عينين عسليتين تميلان في مزيج غريب ساحر إلى اللون الذهبي، كانت عيناه سببا آخر لجعل الفتيات لا يشبعن النظر إلى وجهه ورمشيه الطويلين الكثّين.

كان أضخم بمرة ونصف المرة من أطول فتى في فصله الدراسي، متناسق البنية، يستطيع صرْع من هم أكبر منه بسنتين أو أكثر، لم يكن يتوقع في صباه أن يصبح عاهرًا يضاجع النساء الثريات من أجل النقود، حدث ذلك بسلاسة وتنظيم دون جهد كبير منه، وكأن قوةً ما أوجدته ليقوم بهذا.

بدأت أولى مغامراته في الثالثة عشر من عمره، كانت والدته تفاخر أمام جاراتها بأن شيئه أضخم من والده بمرتين، أتبعت ذلك بضحكة عادية.

أيقظت تلك الجملة جارتها سوسن من سهْوها، أظهرت ابتسامة مقتضبة وعمدت تراقبه بانتباه أكبر. كان يوسف في تلك الأثناء يركض عاريًا إلا من سروال صغير، يبحث عن قطط صغيرة يسمع صوتها في حديقة منزله الواسعة. لم يكن من اليسير تميز يوسف بين أشجار الليمون والمشمش واللوز التي تملؤ الحديقة الممتدة على شكل مخمّس غير متساوي الأضلاع.

تسلق صخرة مهيبة في منتصف الحديقة قريبًا إلى حوض المياه ومنها إلى أعلى شجرة المشمش العتيق، ثم قفز ممسكا بحبل سميك، ما إن وصل الأرض حتى قفز مرة أخرى في الهواء وهبط فوق كومة الحطب محاولا إمساك القطة الصغيرة التي ذعرت وهرعت بين الأخشاب. لم يضع وقتًا، قفز مرة أخرى بشكل لولبي حاشرًا يده اليمنى خلف القطة علّه يمسكها.

بدأت سوسن تلاحقه من الشرفة الواسعة المطلة على الحديقة.

لم ينتبه إلى ما كانت النسوة يقلنه عنه، كان يجد حضورهن فرصة ذهبية ليفعل ما يحلو له، إذ تنهمك والدته مع صديقاتها في

أحاديث نهمة عن كل خبر جديد، فيضفن إليه ما يخمّن أنه معقول أو ما يردن حدوثه.

قالت منيرة إحدى الجارات وكانت أرملة: "هناك أناس يكبرون بسرعة. انظرن إلى يوسف، إنه يبدو في الثامنة عشر من عمره، لكنه لم يتجاوز الثالثة عشر، وهناك آخرون يهرمون مبكرًا، وآخرون لا يظهر عليهم التقدم في العمر".

وتابعت:

– من قال إني كبرت على الزواج؟ سأكذب وأطارد الشبان الأصغر سنًا، وأخفي عمري الحقيقي حتى لا يعود بإمكاني ذلك.

ضحكت النسوة وواصلن مضغ أحاديث ربّات المنزل المعتادة، بعد نحو ساعة وبعد أن فرغت القهوة، غادرن جميعهن إلا سوسن، التي انتبهت إلى تململ الوالدة.

نهضت والدة يوسف عن كرسيها ونهته عن مطاردة القطط معلنة انتهاء المرح، ثم عادت بوجه أقل صرامة، فامتدحت حياة سوسن الخالية من الأولاد ومشاكلهم. ابتسمت سوسن وتمنت من الله أن يحفظهُ لها، شكرتها على القهوة وهمّت بالرحيل.

كانت سوسن متوسطة الطول وممتلئة الجسم بشكل طفيف، تميزت بعنين زرقاوين واسعتين وأهداب طويلة ورثتهما عن والدها، تعيش

وحيدة مع والدتها في منزل مجاور ليوسف، طلّقها زوجها قبل سنة، فعادت إلى القرية الصغيرة وحيدة ومكسورة، لم يكن لديها أولاد أو مشاغل كثيرة. كانت تستطيع قضاء كل النهار تراقب ذلك الشقي وشيئه الضخم الشهيّ.

هذا الصغير لن يستطيع ضربها ولا إيذاءها جسديًا، وتستطيع أن تفوده كيفما شاءت، فهو طفل وهي ناضجة خبرت الحياة.

في صباح اليوم التالي، جاءت إلى منزله مع مكنسة كهربائية كانت والدته طلبت استعارتها قبل أسابيع عدة، وبعض أقراص السوركي الحمصيّة المميزة، لم تجلس لشرب القهوة وتذرعت بحاجتها لشراء أغراض كثيرة من سوق القرية، قالت إنها ستمر في طريق عودتها.

بعد ساعتين، كانت سوسن في منزل يوسف، أنهت قهوتها، وأخبرت والدته أنها تركت بعض الحاجيات في متجر ياسر القريب، وتساءلت إذا كان بإمكانها أن ترسل يوسف فيحضرها لها.

لم يكن موجودًا في المنزل، وقالت والدته إنها سترسله حالما يعود.

3

صفع يوسف شابًا أكبر منه بأربع سنوات، لأنه قال عن والده إنه سليط اللسان والطبع كالنساء، مع أن الشاب استطاع أن يوقع يوسف أرضًا، إلا أنه لم يفعل ذلك إلا بمساعدة صديقيه، وبعد ما نجح يوسف في إخافتهما وإقناعهما بضرورة التفكير قبل إثارة حنْقه في المرة المقبلة.

عاد يوسف متسخ الثياب والوجه إلى منزله، عنَّفته والدته وأجبرته على تغيير ثيابه وتوعدته بالويل إن عاد متسخًا مرة أخرى، ثم أرسلته إلى ياسر لجلب الحاجيات وإيصالها إلى منزل سوسن.

في طريقه إلى منزل سوسن، شرع يفكر في أن ما فعله صواب حتى لو حنقت والدته عليه، لقد قال له والده مرة "من الأفضل أن تُصفع وتُلكم آلاف المرات، على أن يقال إنك جبان".

ولأنه كان يعتبر والده أعظم رجل في العالم، صدّقه، وانهمك دون تردد في عراكات كانت خسارته مضمونة فيها، وسيقضي يوسف

وقتًا طويلًا، قبل أن يدرك أن قوته الأمضى موجودة في رأسه لا في ذراعيه، وسيكون عليه أن يخوض العديد من الصراعات الناجحة والخاسرة، قبل أن يكتشف بعيدًا عن قريته ووالده أن الأخير أبعد ما يكون عن الصلاح والمثل العليا.

لكنه في تلك الأثناء كان ضحية لقوة أكبر وطأة، فقد شعر مذ كان في العاشرة من عمره بتلك الغريزة التي تجعله يركض خلف الفتيات، في وقت كان أصدقاؤه فيه من الصبية يتحاشوْن اللعب معهن.

كان يهز رأسه بالإيجاب أمام إجماع رفاقه على ضرورة تحاشي الإناث الضعيفات، في حين كان يهتز داخله شوقًا كلما التصقت إحداهن بجسده.

4

عانت جارته سوسن في حياتها صنوفًا غريبة من قلة الحظ والتوفيق، وعلّمها والداها أن ترضى بقسمتها في الحياة، لأن مخالفة ذلك تعني تمردًا على الله، والكفر، ونار جهنم.

وقبل أن تُدرِكَ الدنيا، عُقِدَ قرانها على أحد أبناء الشيوخ الورعين، وكانت كل أسرتها سعيدة وفخورة بصلتها بهذا البيت الورِع، فالعريس الشاب لا يقل تدينًا عن أبيه، بل ويبزّه فقهًا.

وحتى يغيظ عريسها من بقي من صديقاتها، وليثبت للجميع تنوّره، سمح لها بمتابعة دراساتها في كلية العلوم.

سوسن كانت زينة بنات قرية إقطاعية غنيّة في أجمل بقاع الجبل الساحلي الأخضر، ذكية، تمتص كالإسفنج تصرفات زوجها، تأخذ عنه كل شيء، صدقه أو كذبه، استقامته أو نفاقه. وخلال سنوات تحصيلها العلمي، وعندما بدأ زوجها يملّها، صمّمت على أن تسعده بأية طريقة ممكنة.

قرأت عن الحياة القصيرة التي يعيشها البشر، وكيف يأتي قدرهم وهم بالكاد يتلمّسون ما حولهم، وساعدتها دراستها لعلوم الأحياء على امتلاك فهم أعمق ومختلف عن طبيعة الجنس البشري وغريزته، وحاولت بدافع من سذاجتها وإيمانها بالغريزة التي تسيّرها وزوجها كما كل الكائنات الحية، أن تطبّق ما تعلّمته في حياتها اليومية.

وهكذا شرعت في إحدى الليالي تمص قضيب زوجها، فعاد وانتصب من جديد.

في اليوم التالي، بدأ الشك يغزو عقل الزوج الورع، ولأنه لم يجرؤ على سؤالها كيف تعلمت ذلك، عمد إلى شيخ يستفتيه، فاستعاذ الأخير بالشيطان، ونصحه بأن يعاقبها، وأن يضربها إن شاء إلى أن يخرج الشيطان منها. وبحرج سأله الشيخ: "هل تعرف شيئًا عن صديقاتها في الجامعة؟ الصديقات الفاسدات أشد فتنة من طيش الذكر المفضوح".

عمدَ الزوج الورع بداية إلى معاقبة زوجته بشكل طفيف، فقاطعها في الفراش، لكنه وبمساعدة من شيخه بدأ يبحث عن زوجه وَرِعة.

بعد شهر من الخصام، عاد الزوج إلى المنزل يريد ممارسة حقه الشرعي، فاستقبلته سوسن مشتاقة، لم تكن تعلم ما يخبئه، وعندما

همَّت بتقبيل شينه، صفعها المُستَحرم، ونعتها بأقبح الأوصاف.

بعد أسبوع، عقد قرانه على فتاة أخرى، ونسي زوجته سوسن ستة أشهر، وعندما عاد، عنّفها وصَفعها، ثم جامعها عنوة. بعد انتهاء شهر عسله عادها في منزلهما فضربها ثانية لتبرّجها، ورمى عليها يمين الطلاق.

كان على سوسن بعد عودتها إلى منزل أهلها أن تحتمل تأنيبًا متواصلًا من أبيها وأخيها، واضطرت إلى انتظار وفاة الأول وسفر الثاني للعمل في السعودية، حتى تصبح قادرة على مغادرة المنزل وزيارة جيرانها في القرية الصغيرة حيث تقيم. ومع أن الكثيرين من الأهالي حاولوا تجنبها، إلا أن ذلك كان أخف وطأة من السجن المقيت الذي عانته.

شكل خروج سوسن من منزلها فرصة طيبة لجيرانها وقريتها كي يمضغوا شرفها، وصياغة قصص مختلفة عن هدوئها المشوب بالشبق، فهي ككل مطلقة في نظرهم، ذاقت طعم القضيب وتاليا لا يمكنها العيش من دونه. وعليه حاول بعض الرجال التقرّب منها، فبالنسبة لهم كانت فرجًا رائع الجمال وفريسة سهلة، إلا أنها كانت تهرب ممن يعتبرها سلعة رخيصة، وعاهدت نفسها ألا تمارس الجنس إلا عندما تكون سيدته.

حافظت على قدرتها الفذة في التعلم، وأخذت بعد طلاقها تقرأ

شتى الكتب، لم تعد تخشى قبل اختيارها ما تود قراءته.

اقتصرت قراءاتها بداية على روايات عبير التجارية، ثم شرعت تقرأ روايات لماركيز ودستوفسكي، وشعرت في بعض الأوقات بأنها حواء العارية لحظة التهامها لتلك التفاحة، لكن ما أثارها فعلًا وشكّل صدمة بالنسبة لها، كان الإيطالي ألبرتو مورافيا، وسيغدو لكتابته في الجنس، بالغ الأثر في تخلصها من حالة "الشيزوفرينيا" التي كانت تعانيها في مجتمع ضيّق ومغلق ليس فيه إطلاقًا ما يربطها به.

تعلمت من كتب مورافيا أن تتصالح مع جسدها، وأصبحت أكثر تفهُّمًا لاحتقار أهلها ووالدتها لها، وبدأت ترى أن مئات السنين من العيش في ظل عقيدة إله جبار لا يقهر، جعلتهم أكثر انصياعًا لقدرته، ومستكينين في انتظار أن يبعث لهم رسله لإنقاذهم وليساعدهم في حل مشاكلهم، فهم يعتمدون على الجبار الرحيم الذي يتفق معهم في كل شيء يضمرونه في قرارة أنفسهم، إله يمنحهم الثقة، ويبرر لهم ما لا يفهمونه مقابل ثمن بخس يتمثل في جلْدهم لذاتهم في بعض الأحيان، وتوبة قصيرة يقدمونها أضحية في أحيان أخرى.

أصبحت تغفر تناقضات والدتها الحادة، وتراها امرأة واحدة لا مائة، فهي السيدة ذاتها التي تصلي بتضرّع وبلا كلل، وهي تلك التي تلتهم جيرانها ومن تبغضهم بدعاء لا يكل.

صارت ترى أن أهلها ومن هم مثلهم كثر، يحتاجون إلى رب قدير، صنم عظيم يعلّقون عليه آمالهم وأمانيهم المنكوبة، يحتاجون إلى إيمان حقيقي، حتى لو كان بحجم حبة القمح يخلصهم من فراغ الأسئلة الشرسة التي تستطيع التهام الإنسان في منتصف ليلة كالحة دون سابق إنذار. وأدركت أن عليها أن تتأقلم مع ما تراه أمامها بطريقة أو بأخرى، فوالدتها تحتاج إلى الرب الجبار الحنون كي تشكو له آلام مفاصلها السافلة، وتحتاجه أيضا حتى تشكره عندما تستقبل نقودًا من ابنها المسافر خلف الصحراء.

أنقذتها رواياتها من مصير مبهم وحمّتها من الجنون، أو على الأقل أبعدت شبحه عنها لفترة.

لم تكن سوسن تخطط لمضاجعة فتى بالكاد نما الزغب على عانته، لكن ربما كان يوسف تلك الهدية الثمينة، التي ستتحدى بها خواءها الجنسي والعاطفي، كانت بلغت الحادية والثلاثين من عمرها، وكان سوط الغريزة يلسعها ويكويها.

بُعثَ يوسف إليها عندما أصبحت مستعدة من جديد للنظر في تفاصيل جسدها العاري في المرآة، جاء يوسف عندما تصالحت مع غرائزها ومحيطها، بعد أن أدركت أن لكل شيء ثمنًا، وأن رغبة الكائن الحي فقط تستطيع دفع مقابل لألم الحياة، رغبة ترتبط بجذورها الحقيقية في الطبيعة، تلك التي ولدت مع النوع البشري لا بعده، وحمته من الانقراض.

لم تكن تفهم صوت غريزتها الحقيقي، ولم تكن تبالي، أدركت أنها موجودة وأنها حقيقية، وكان ذلك يمنحها رضا كافيًا.

5

في ذلك اليوم حين دعته إلى الجلوس وشرب عصير مكافأة لجلبه حاجياتها من السوق، كان يوسف يفكّر في الطريقة التي سيرفع بها كومة الحطب في زاوية الحديقة كي يتمكن من الوصول إلى صغار القطة البرية.

لباس سوسن الخفيف الذي بان منه سروالها الداخلي وثدياها أثارا فيه شعورًا غريبًا، ما إن شرب العصير حتى أحس بخدرٍ في جسمه، وبأنه بحاجة إلى الاستلقاء. أصبحت الأريكة حيث يجلس مريحة جدًا، وكان يريد أن يمدد جسمه فوقها ولو لبضع دقائق. لاحظت سوسن أن تأثير الخمر قد بدأ ينفذ في رأسه، فاقتربت منه ومدّدته على السرير في غرفتها ثم نزعت قميصه، وسرواله وبدأت تداعب شينه، ما هي إلا ثوان حتى انتصب بقوة جعلت سوسن تخلع سروالها الداخلي بسرعة وتسقط فوقه، كانت تدور يمينا ويسارا وتمسك صدرها بيدها اليمنى، وتضع يدها الثانية فوق صدره العاري

الصغير، وشعر يوسف على الرغم من سكره برعشة لذيذة وفوران في شينه الذي قذف زهورًا وبهجة، ونام بسرعة.

أصبحت سوسن أكثر تودّدًا إلى والدة يوسف، تعودها وتساعدها معظم أيام الأسبوع. وكانت والدة يوسف عاجزة عن شكر سوسن التي تعطي يوسف دروسًا في المواد الدراسية الصعبة، أما سوسن فقد لمست تجاوبًا مذهلا من الصغير الذي فطن إلى أن ما يفعلانه غير صحيح، وأن والدته ستعاقبه إن علمت به.

غدت سوسن أكثر ثقة به، وكانت محقّة، فقد كتم يوسف الأمر عن الجميع، حتى أصدقائه المقربين، وأصبحت تناديه إلى غرفة نومها من دون أن تسقيه كحولًا، وتطلب منه أن يلعق شينها ويمتصه كما يفعل بالحلوى، حتى إنها كانت ترطّبه بشيء من السكر المذاب حتى يستطيب يوسف طعمه.

كان يوسف سعيدا بتلك الأيام متلهفًا لرؤية سوسن، أصبح يقضي وقتًا أطول من اللازم في منزلها، لكن أحدًا لم يخمن أن الطفل الصغير يضاجع سوسن، وأصبحت علاقتهما أكثر قوة، وتعلّق بها كما تعلّقت به.

كبر يوسف بسرعة كبيرة أذهلت أهله وأساتذته وأصدقاءه، فقد كانت سوسن خريجة كلية العلوم تحدثه أحاديث الكبار، وتبسّط له ما عصي عليه فهمه. فجأة، ومن دون مقدمات، أصبحت حياتها

الفصل الثاني

تحتقرُ الجميع إلا فرْجها

كحال سوسن، قضت فاتن مع يوسف أجمل لحظاتها الجنسية، وجربت معه كل خيالاتها الماجنة. كل ما حلمت به حققته في الفراش مع يوسف. كان انتصاب شيئه حادًا وشهوته لا ترتوي، عادت شعر بأنها أنثى ومرغوبة مرة أخرى، وأقسمت على الحفاظ على ما تملكه والتمتع به ما أمكنها ذلك.

كان يوسف قادرًا على مضاجعتها مرتينٌ وثلاثًا في الليلة الواحدة، طيلة أيام الأسبوع، لم تكن مستعدة لأن تستبدل تلك المتعة بأي شيء آخر، ولهذا لجأت إلى مراقبة تصرفاته وحركاته، وبدأت تغار من أية فتاة تقترب منه، أو تحاول التحدث إليه.

مرت الأسابيع الثلاثة التي قضاها في ضيافتها بسرعة عجيبة،

وغدت والدته تغالب دموعها وهي تحدثها في الهاتف عن اشتياقها لوحيدها.

شكرتها مرارًا على حسن استقبالها يوسف، وتكفّلها عناء استقباله في منزلها.

قالت فاتن إن خير الوالدة سابق، فهي لن تنسى كيف كانت تهبّ لنجدتها في أوقات الأزمات، سواء عندما كانت تقيم في القرية، أو بعد انتقالها إلى المدينة. أضافت:

– بين كل صديقاتي كنت وحدك من يعطي دون أن ينتظر مقابلًا، لن أستطيع مكافأتك على كرم ضيافتك مهما فعلت، حتى لو استضفت كل أفراد عائلتك في منزلي هنا في المدينة.

شكرتها الوالدة بخجل، قائلة إن الأصدقاء هم بمثابة الإخوة، وبأن منزلها مفتوح لها باستمرار.

عندما أدركت فاتن أن جنّتها الجنسية في طريقها إلى زوال، جعلت تخطط لنقل يوسف إلى مدرسة ثانوية في مدينتها، فلم تكن في قريته الصغيرة مدرسة لهذه المرحلة. وقبل سفره بيومين أخبرته بأنه قادر على العودة إليها إذا أحب ذلك، وعندما سألها مستغربًا، قالت إن أمامه بضعة شهور حتى يلتحق بالمدرسة الثانوية، وإنه إذا

كان كتومًا ووفيًا لها، فستحرص على أن تجعله يأتي من القرية إلى منزلها حتى يتم دراسته، شريطة أن يجتهد في دروسه، ويحصل على درجات ممتازة.

كان لها ما أرادت، فبعد أقل من سنة قضاها يوسف جزافا في قريته الصغيرة يطارد الفتيات، عاد إلى المدينة حتى يبدأ دراسته الثانوية، بعد أن ملّت والدته شكاوى النساء من تصرفاته، وتعلقه بالفتيات ومشاريعه الجريئة معهن.

انقسم رأي أساتذته فيه، فبعضهم وصفه بالأعجوبة في الذكاء وسعة الاطلاع، وتوقع له مستقبلًا باهرًا، وآخرون ملّوا طيشه وجرأته فوصفوه بالجنّي و"الهيبي" وشيطان المدرسة، وفي عبارات أقذع "شرموط المدرسة" لكن ذلك لن يمنع أهله عن إرساله إلى المدرسة الثانوية في المدينة، خاصة بعد أن تفوق على كل أقرانه في قريته الصغيرة.

ركض يوسف إلى المنزل يحمل النتيجة، احتضنته والدته، وبدأت تبكي، أما والده، فلم يهنّئه، وقال بلا مبالاة "ميسوط؟ طلعت الأول على الحمير".

كان يقصد أن كل زملائه في القرية كسالى وجهلاء، وأن تفوقه عليهم لا يعدو كونه تميزًا على مجموعة من الحمقى، لكنه كان

سعيدًا بتفوق ابنه على كل حال، وكانت تلك طريقته في إخفاء محبته التي يخجل من إظهارها، فذلك أحرى بالرجل الصلب.

تردد والده في إرساله لمتابعته الدراسة، فيوسف يستطيع أن يساعده في العمل. قال مخاطبا زوجته:

– ماذا سيفعل بشهادته؟ سيعلقها على الحائط ثم يعمل في أي شيء آخر.

كانت والدته تعد لتحضير طعام الغداء. وضعت يديها على خصْرها، ثم حملت السكين بيدها اليسرى بحركة لا إرادية. قالت إنها لن ترضى أن ينقطع يوسف عن دراسته لمجرد أنه لا توجد ثانوية قريبة من قريته. ثم عاودت عملها واضعة –على غير العادة– حدًّا لتردد زوجها، كانت مستعدة للاستشهاد حتى تدفع بيوسف نحو تحصيل تعليمه، وإرساله بعيدا عن قسوة والده وقريته.

في النهاية كان لا بد من إرسال يوسف إلى فاتن التي تعيش مع والدتها في المدينة بمفردهما، شرط أن تقبل مبلغًا شهريًا لمساعدتها على تحمل مصاريفه.

استقبلت فاتن النبأ بسعادة طاغية كادت تفشل في كبْتها، كانت مستعدة لأن تتكفل بدراسته كاملة، فهي موظفة في دائرة المالية

الحكومية، تقبض معاشًا محترمًا، وتعيش مع والدتها حليمة في منزل ورثته عن أبيها، وإذا سهّل قبولها للنقود قدومه، فأهلًا بها.

أصبحت فاتن متأكدة من حاجتها المجنونة إلى يوسف ساحر الجمال، فمعه تشعر بأنها لا تزال شابة، كانت تستمع بجسده الصلب قليل الزغب، وتراه نظيفًا جدًا وشهيًا، فالفتية مثله لا يتعرّقون برائحة كريهة، كانت تعاشره يوميًا، وتجرب معه كل الأوضاع الممكنة.

لم تصدق أن جسدها قادر على استيعاب تلك المتعة الجنسية التي يحققها يوسف لها، فما إن تراه خارجًا من الحمام حتى تشعر بخدر بين رجليها يدفعها إلى الجلوس، وما إن يقترب منها ويقبّل ثدييها حتى تشعر بالبلل، تتلو ذلك مضاجعة أسطورية تجعلها تتلفظ بكل العبارات المدرجة في قاموس اللغات المحكية، سواء البذيئة منها أم العاطفية، فهي تارة تنعته بالحبيب العذب، وتارة بابن العاهرة، أو تطلب منه أن يضاجعها بقسوة. وكان يضطر إلى أن يكمم فمها أحيانًا حتى لا يستيقظ الحي على صراخها، لكنه في نهاية المطاف، كان ينفذ كل ما تريد.

لم تتهاون في مسألة دراسته، وأصبحت تشرف بنفسها على كل مواده الدراسية وتسترجعها معه، وبعد أن كان في قريته ينجح في دراسته بمعدلات عادية لا تتناسب مع ذكائه الواضح، أصبح من

الطلاب الأكثر تفوقًا في مدرسته الثانوية كثيرة العدد، وحتى على مستوى الدولة.

ووسط ذهول والدتها وإخوتها، رفضت فاتن كثيرًا من الرجال المحترمين الذين تقدموا إليها، وفضّلت أن تهب حياتها ليوسف وتراقبه وشيئه يكبران.

***

كانت فاتن فارعة الطول، بشرتها بيضاء ناعمة، ميّزت وجهها عينان لوزيتان واسعتان وشفتان مبرومتان بلون الورد. كانت قرّة عين لوالدها السياسي والطبيب الذي انتقل إلى المدينة من القرية الصغيرة مصطحبًا أسرته معه، فتح مكتبته وعقله لها، فقرأت في سني مراهقتها عن الجنس الكثير، ورسمت لنفسها سيناريوهات خاصة عن الأوضاع الجنسية المختلفة التي قد تفضلها، وتزوجت بحبيبها الأول، الرجل الذي أحبته طفلة في قريتها، واختارته بإصرار، ضد رغبة أهلها.

لكنها لم تجد الشبق الجنسي الذي كانت تبحث عنه مع حبيبها، فعلى عكس ما وعدها به من ليالي حب بأكملها، وأيام يقضيانها في السرير، تكسرت تلك الوعود أمام مزيج غريب في شخصيته جمع بين الحماسة الجنسية المفرطة، والشعور بالقرف من نفسه وزوجته بعد الأساليب الجنسية الغريبة التي كانا يقومان بها. وتبع ذلك تبدّل

غريب في مزاجه، جعله يفضل ممارسة العادة السرية على الإيلاج بداخلها، كان يتبرز ويبول أمامها دون أن يغلق باب الحمام خلفه، وشاهدت فاتن بأسى كيف كان يبصق ويسيل أنفه، من دون أن يراعي نظافته الشخصية، أو حتى غسل يديه. وشيئًا فشيئًا، كفّت عن دعوته إلى السرير. انزوت في منزل زوجها المهندس، وقلّت زيارتها لأهلها، كانت خجلى منهم وخائفة من مصارحتهم بزيجتها التعسة التي اختارتها رغمًا عنهم.

بهت لونها، وغدت كوردة ذابلة مهملة حبيسة المنزل، واتفق الزوجان ضمنًا على أن يترك كل منهما الآخر في حاله، تحضر له طعامه، تنظف البيت وتكوي ثيابه، وعندما يعود من العمل يجدها نائمة.

تستيقظ بعد مغادرته المنزل بقليل فتذهب إلى عملها، تعود في الثانية بعد الظهر فتنظف المنزل وتعد الطعام، وهكذا مضت حياتهما المحطمة بيسر وسلاسة، فقد اتفقا على أن أي تراجع الآن سوف يضر بكليهما، وأن أيًا منهما لن يحقق أفضل مما كان.

استمرت الحال سنوات عدة، إلى أن أصيب زوجها خلال عمله في مصنع الجرارات الوطني، ودخل في غيبوبة لأربعة أيام ثم فارق الحياة.

استقبلت فاتن الخبر ببرود يشبه حياتها معه، وتلقّت التعازي بوجه لا حياة فيه، لم تدر إن كانت سعيدة أم حزينة.

توفي والدها بعد ذلك بوقت قصير، فانتقلت إلى بيت والدتها، وشيئًا فشيئًا أصبحت أكثر حماسة لمغادرته، والبحث عن حلم جديد تحوّل معه خيالاتها الكثيرة إلى صور ممتعة.

قبل أن تلتقي يوسف، جربت فاتن علاقات عابرة عدة أكثرها جدية علاقة دامت أقل من سنة مع شاب التقته عن طريق الإنترنت استمالها بقوله كل ما ترغب في سماعه، وأظهر اقتناعًا شبه تام بأفكارها التي تنتقد الرجل الشرقي المتخلّف الذي يعاني انفصام الشخصية بين ما يقوله وما يريده ويرضاه لنفسه. وعندما التقته بعيدًا عن شاشة الحاسوب، وجدته أقل جمالًا بكثير عن الصور التي كان يبعثها لها. وسرعان ما ملّت تهربه من الإيفاء بوعوده، وتذبذب مشاعره، فتارة يضاجعها بعنف ويظهر لها حبًا حتى العبادة، وتارة يصفها بالمريضة جنسيًا وينصحها بزيارة عيادة طبيب نفسي، وهو ما جعلها تتألم بصمت مسترجعة تلك الليالي الباردة مع زوجها السابق.

في إحدى لحظات سأمه منها، قرر للمرة الرابعة أن يقطع علاقته بها، وقبل أن يعود إليها ملتاعًا باكيًا في اليوم التالي، كانت عاهدت نفسها على ألا تتحدث معه مرة أخرى. ولحسن حظها، كانت أخفت عنه عنوانها، ورقم هاتف منزلها، ما جعل بحثه المجنون عنها لاحقًا غير ذي جدوى. أغلقت بريدها الإلكتروني الذي كان يحوي عدة رسائل منه حتى قبل أن تقرأها.

2

أحلامنا تصنعنا

دخل يوسف منزل الأستاذ مفيد لمراجعة بعض الدروس، فوجده نصف عار يجلس على الأريكة الوحيدة في غرفة الجلوس، ويحدّق في تلفاز مغلق. استقبله مفيد بحفاوة ورائحة الخمر تملأ أنفاسه.

– اجلس يا عزيزي، دخلت علينا البركة.

– كنتُ...

قاطعه مفيد بصوت مرح.

– اجلس، اشرب كأسًا ثم أخبرني بما قدمت من أجله.

قبل أن يجلس، خرجت سيدة تبدو في منتصف الأربعينيات، كانت سمينة بعض الشيء، ومتوسطة الجمال. هتف مفيد حين رآها تدخل.

– أهلا بالملكة، تعالي أعرّفك إلى يوسف، أكبر قضيب في المدينة، انظري إليه، بالكاد يبلغ الثامنة عشر من عمره، وقد ضاجع فتيات ونساء أكثر من عدد شعر رأسك، وهو فوق ذلك لا يدفع نقودًا. هزت رأسها وابتسمت، أما يوسف فبقي في مكانه ينظر إليها بجدية.

قالت:

– أهلًا حبيبي يوسف.

فاجأتها وسامة الشاب، وأضافت:

– أنت أكثر جمالًا مما يشاع عنك.

تساءل يوسف في سرّه "يشاع عني؟".

قال مفيد:

– هي، أنتِ، أعرفُ بماذا تفكر، حذار يا أبا قضيب، فالملكة ليست بائعة هوى من إياهن، للحقيقة هي لا تشبه بنات الليل في شيء، وليست لها رائحتهن، ولهذا أعيدها، فهي "ميكس" سماوي يجمع بين اللذة العربيدة في الفراش والأناقة الأرستقراطية الضحلة. إنها حلم يمشي على قدمين، حلم؟ بل قل فرقة مدرعة من الأحلام.

قالت الملكة إنها ستضطر آسفة للمغادرة، فعليها أن تبتاع بعض الحاجيات، وتعدّ طعامًا لوالدتها وأولادها.

اقتربت من يوسف وهمست في أذنه وهي ترنو إلى مفيد: أستاذك فاصل، لم يعد يحتمل الشرب، انتبه إليه.

قاطعها مفيد معاتبًا:

– ماذا؟ تذهبين؟ الآن؟ نحن لم ننه إلا الشوط الأول يا حبيبة.

قهقهت الملكة بضحكة نصف مصطنعة، وأخبرته أن استراحة الشوط الثاني قد تطول ووقتها لا يسمح، وطلبت منه أن يجهز نفسه لعطلة الأسبوع المقبل، سترسل أولادها إلى منزل جدتهم، وتأتي فتزوره الليل بطوله.

وضعت يدها على وجه يوسف وقالت إنها ستأتي مع صديقة لها في المرة المقبلة.

كان السُكر يمنع مفيد من نطق شيء ذي معنى، فشرع يسأل ذات الأسئلة في وقت واحد.

– من؟ ماذا؟ يوسف؟ لا، إنه يضاجع مرتين في الشقة يوميًا، و7 مرات خارج أوقات الدوام، ثم من أين له أن يدفع؟ إنه يأتي إلى هنا لأنني أعطيه دروسًا مقابل الطبيخ والفواكه الفقيرة التي يقدمها لي.

اجلسي يا سليلة الأباطرة. لا؟ من؟ كيف تذهبين الآن؟ الانسحاب هزيمة، نحن العرب لا ننسحب، لا، لا تذهبي. تذهبين؟

– لن يكون عليه أن يدفع شيئًا، عليه أن يحضر فقط، حتى نتبرك بقضيبه.

وأضافت:

– لا يمس أحدكما الطعام، سأطبخ لكما ما تأكلان أصابعكما وراءه.

قال مفيد:

يكفيني أن آكل مهبلك قبل الطعام وبعده، أو من دونه، أو من دونه، يا، يا حبيبة، فذاك أطيب طعام. أطيب طعام؟ ها؟

ونظر إلى يوسف.

ضحكت الملكة، وابتسم يوسف، ورافقها في طريقها إلى الباب. أمسكت بوجهه بإحدى يديها، ووضعت الثانية فوق بنطاله بمواجهة شيئه مباشرة، وهمست في أذنه "إذا كنت على قدر المسئولية كما يقال عنك، فلن تكون إلا هانئًا وراضيًا، الفتاة ستكون اختبارًا لبطولتك يا هرقل".

قبّلت خدّه، وذهبت.

عندما عاد يوسف، وجد الأستاذ في مكانه، يحدّق في التلفاز المغلق، مذهولًا عما حوله. اقترب منه محاولًا إنهاضه.

سأله مفيد:

– ماذا تفعل؟ هل تظن أني ثمل؟ هل أنت حمار؟ أ أنت حمار؟

– لا، لست كذلك، لكن هيا تمدد في سريرك، ستشعر براحة أكثر.

– آه، سأتمدد حتمًا، لكن من سيتمدد؟ هل رأيت كم هي جميلة هذه السعاد؟

– نعم!

– نعم؟ ذوقك مثلك، غرّ.

نظر مفيد إلى سقف الغرفة، قال إنه يتمنى لو يفهم يوسف أن النساء "عادة" وأن الذكور سيملون المرأة بعد حين مهما كانت، شحاذة أم ملكة، فهذه حال الثيران، لكن هناك صنف سعاد المميز الذي لا يمكن لمفيد أن يمله. قال كمن يحاول إقناع نفسه:

– نعم.. نعم أريد نسائي تماما كسعاد، شبقات، كبيرات في السن، وحنونات.

كان الخمر قد بدأ يطيح الأستاذ الذي من عادته أن يبدأ بالشراب على مهل، حتى إذا استساغ طعم الخمر الرخيص، شرب المزيد منه وبسرعة، فلا يفطن إلى نفسه إلا في اليوم الثاني مع صداع

يلازمه طوال اليوم. عندما لم يتمكن يوسف من جعل مفيد يقف، حمله وألقاه فوق سريره.

– هاااا، أنت قوي البنية يا يوسف. أنت قوي؟

– قليلًا فقط.

– هاها. وخفيف الظل؟ أنت خفيف الظل!

– بعض الشيء.

– متواضع. متواضع؟ متواضع أنت؟ لا؟ أنت! هل تعلم من أنت؟ أنا أعرفك جيدًا يا يوسف، أنت أذكى طالب أدرّسه حتى الآن، وقد تكون الشاب الأكثر وسامة في المدينة، لا أعرف من أين لك هذه الصفات، من أين لك هذه الصفات؟

نظر يوسف إلى مفيد فرأى عينيه حمراوين تنساب منهما قطرات شفافة، بدا يهمهم بأغنية "طير الحمام" لفيروز دونما لحن أو إيقاع منتظم، كان يقول إن الأغنية تذكّره بوالدته.

نهض مفيد عن السرير، حاول إبعاد يوسف عنه والوقوف بمفرده، لكن عبثًا، جلس على الأرض يحاول تجفيف عينيه، لم يكن يصدر عنه صوت، لكن دموعه الغزيرة ووجهه جعلته يبدو وكأنه يحمل كل أحزان الأرض فوق صدره ما دفع يوسف لأن يتوقف عن حمله ويجعله يجلس أرضًا كما طلب.

بعد برهة، عاد وحاول الوقوف وطلب من يوسف ألا يساعده، لكنه لم يستطع.

شعر يوسف بأن مفيد قد يعاني تسممًا بسبب كثرة الخمر الرخيص في أحشائه، حمله إلى الحمام، أمسك بيد مفيد فكوّرها وحشرها في فمه حتى بدأ يستفرغ، ثم أمسك برأسه وثبّته كي لا يسقط وغسل له وجهه وساعده على ارتداء قميص قطني نظيف، أضجعه فوق سريره وبدأ يغطيه قائلًا:

– انتظرني، سأعد لك بعض الشاي.

– بعض الشاي؟ لماذا لا تعد لي كثيرا منه؟ كثيرًا!

عاد يوسف، فجعل الأستاذ يجلس في سريره، وشرع يسقيه الشاي، بعد قليل نظر الأستاذ إليه، أبعد الشاي عن فمه، كان يريد شكره وأن يقول له إنه يحبه، لأنه فريد من نوعه، ولأنه بطل، ولأن أمثاله ينتظرهم مستقبل عظيم إن استطاعوا البقاء على قيد الحياة، وإنه يخشى عليه أن يموت غدرًا، لكنّه عوضًا عن ذلك. قال:

– هل تعلم يا يوسف أن البشر كانوا خنازير.

– لا، لا.

– أجل، أجل، أجل؟ إنها حقيقة علمية، ما بك؟ هل أكذب عليك؟ اسمع، في البدء كان يوجد خنزيران. هل قلت خنزيرين؟ بل مجموعة من الخنازير.

– ستخبرني غدًا.

تنهّد مفيد في السرير، بدا مرتاحًا جدًا وهو ممدد وأضاف:

– اسمع يا أبا قضيب، كان أحدهما يقضي الوقت كله في التهام الحشيش. مهلًا لا تطفئ النور. تعال.

عاد يوسف الذي كان يستعد للمغادرة ووقف بجوار السرير.

– اجلس.

انصاع يوسف لأستاذه فجلس على حافة السرير ينظر إليه بشيء من الأسى والمحبة. قال مفيد:

– أحد الخنازير كان كسولًا، لا يريد أن يقضي النهار كله في التهام الحشيش الذي لا يجد فيه فائدة غذائية، بعد أن جاع كثيرا اتجه إلى الغابة حيث الشجر وشرع يقضم الثمار المختلفة لشدة جوعه، وكان لبعضها طعم مستساغ، بعد فترة كان لكل من الخنازير أولاد، وهكذا عمت الأرض قبيلتان من الخنازير.

أصبح لسان الأستاذ الثقيل أخف وزنًا، كان يقول جمله متقطعة في البداية ثم يعيدها مرة واحدة ومتصلة. تابع:

– قبيلتان من الخنازير، مجموعة منها سمينة تقضي نهارها تأكل الحشيش، وأخرى كسول نحيفة تأكل الثمر. بعد حين حدث تغير مناخي فجائي ونتجت عنه مجاعة قاسية أبادت الكثير من

المخلوقات، ثم جاء فصل صيف حار جدًا وأصبح الثمر الغني بالفيتامينات نادرًا، أما الحشيش الرخيص فنما بسرعة، فلم يكن يحتاج إلا للتراب. لم يكن يحتاج إلا التراب والبراز.

جاعت خنازير الثمر حتى أصبحت سكرانة من شدة الجوع، وعندما كانت في طريقها إلى شرب الماء الذي أصبح نادرًا هو أيضًا وجدت خنازير الحشيش وقد بدت سمينة، وفجأة نشب صراع بين خنزير فاكهة وخنزير حشيش، ذلك أن خنازير الفاكهة كانت جائعة، فقد كانت ميالة إلى العنف، وشارك الطرفان في النزاع الذي انتهى بمقتل خنزير عشب، وعلى الفور سرقت خنازير الفاكهة الجثة والتهمتها. بعد زمن من التحول والاصطفاء الطبيعي، والتغيرات المناخية، تحولت خنازير الفاكهة إلى بشر وأسود وحيوانات لاحمة رشيقة الحركة والحيلة، في حين تحولت خنازير العشب إلى غزلان وبقر وخراف وحيوانات عاشبة.

نعم. نعم، هذا ما حدث تمامًا كما أقول لك.

عليك يا يوسف أن تحسم أمر طعامك لتقرر ماذا تريد أن تصبح مستقبلًا، وإياك أن تنسى أن اللحم مليء ببروتين يقوي العضلات... آه، غدًا عندما تأتي للدراسة، احرص على أن تجلب معك قليلًا منه، فأستاذك ليس خروفًا... هل أستاذك خروف؟

– كلا. ليس كذلك. أراك على خير.

– لماذا ستراني على خير؟ ألست على خير الآن؟ أنا أفضل حالًا منك. ألست أفضل حالًا منك؟

– بلى.

في وسط غرفة النوم تقريبًا إلى جانب النافذة الوحيدة في منزل مفيد تقف طاولة خشبية إلى جانب كرسي متواضع، إلى جانبها أريكة مهترئة وفراش أتعس حالًا ملقى على الأرض. نظر مفيد إلى الفراش وقال إنه كان ينام فوقه أحيانًا عندما يشعر بحنين إلى طفولته، نهض بثقل واضح، اضطجع على الفراش، وكوّر نفسه.

كانت حالة السُكر التي باغتته تهرب منه، لكن ليس قبل أن تخدره وتهيئه للنوم. نظر إلى يوسف بعينين حمراوين نصف مغلقتين وقال:

– اسمع، إياك أن تصغي لمن ينادون بالحرية أو المساواة، فهم أكثر الناس خسة ودناءة، سيتحولون في النهاية إلى "زوس" قميء أكثر قسوة وبطشًا من سابقيهم ومن ثاروا عليهم. أما الشرفاء منهم فلا يعمّرون طويلًا، كل من يواجه العالم بقدر وافر من الشجاعة يكسر أو يقتل.

ابتعدْ عن المشايخ. إن ما يشاع عن حكمة الكبار مغالطة عظمى، السن لا تجعلهم حكماء، بل أكثر حذرًا.

أريد منك أن تعيد لي تلك الكتب عن جيفارا ولينين، فليس أحمق من الأخيرين إلا من يقرأونهم.

عاد يهمهم أغنية "طير الحمام"، وتدريجيًا خفض صوته، وراح في نوم عميق.

3

كل شيء يبدأ مرات عدة

تعرف يوسف إلى مفيد عيسى، أستاذ الرياضيات العجوز بعد وصوله للإقامة مع فاتن ووالدتها بوقت قليل، كان مفيد يقيم في شقة متواضعة على سطح المبنى مكونة من غرفة وصالة، في حين أقام يوسف في شقة أحسن حالاً في الدور السابع.

كان مفيد يدرس كي يصبح جراحا مختصا، كان على الدوام بين الأوائل في دفعته بكلية الطب، يقرض الشعر وموهبته جيدة، داهمه العمر والحب وفقد ثقته في كل شيء، فأصبح يقضي معظم وقته في شرب الخمر، والبحث عن النساء والعاهرات. لم يكن على شيء من وسامة يوسف ولا إقدامه أو ذكائه، معتدل الطول، متين البنية، كثيف الشعر، براح وقته جعله أكثر ثقافة وتأملاً.

شرع مفيد بداية يعطي يوسف بعض الدروس في الرياضيات

والأدب العربي، ومن حين لآخر يحاول استدراجه للحديث عن مغامراته العاطفية، إلا أن الأخير وبسبب نشاطه ونمط حياته المثيرين، كان يفضّل الاقتصاد في الكلام، ما يدفع مفيد للتنظير والتأليف عن سير مغامراته العاطفية.

كانت السنة الثالثة في الثانوية مصيرية بالنسبة ليوسف، وكان عليه أن يضاعف جهده في الدراسة حتى يستطيع دخول كلية الطب كما يأمل والداه وأقاربه، ولهذا أكثر من تردده على مفيد، تلى ذلك أن توطّدت أواصر الصداقة بينهما.

***

غادر يوسف منزل مفيد عائدًا إلى منزل فاتن، كانت الجدة حليمة نائمة، فدخل غرفته، فتح جهاز الكمبيوتر، وأخذ يبحث عن بعض مواقع اللغة العربية التي قد تساعده في امتحانه غدًا، عوضًا عن الدرس الذي أزهقته الملكة والخمر الرخيص.

امتلأ صندوق بريده الإلكتروني برسائل نوران زميلته في المدرسة، وكذلك كان هاتفه الجوال، كانت نوران في آخر رسالة تخبره بأنها خجلت من موقفها الطفولي الأخير، وبأنها مستعدة لأن تفعل أي شيء يطلبه منها في المرة المقبلة وتريده أن يسامحها.

***

"يوسف أكبر من عمره". أكثرت الجدة حليمة ترديد هذه العبارة، ومع أن بصرها بالكاد كان يسعفها، إلا أن سنواتها السبعين منحتها مع الخبرة حدسًا قلَّما يخيب، كان نظرها شحيحًا، لكن عقلها لم يكن كذلك. أصبحت تطلب من يوسف أن ينام في غرفتها فهي مسنة، وقد تحتاجه في الليل كي يلبي بعض حاجتها.

كانت تتعاطف مع ابنتها التي ترمّلت شابة، وتبرر تصرفاتها الشاذة وفورات غضبها الفجائية، لم تكن لتعترض لو أقامت علاقة مع هذا أو ذاك، لكنه الفتى الصغير من شعرت أنه بحاجة لحمايتها!

يوسف الذي فاجأه هذا التغيير لم يتذمّر، فقد كانت فاتن تجد دوما أعذارًا للالتقاء به في غرفتها أو الحمام أو حتى المطبخ، وكان يوسف ذو السبعة عشر عامًا جاهزًا كلما أرادته، وجاهزًا أكثر من المفترض، فقد كان يواعد أجمل فتاة في المدرسة وفتاتين في الحي المجاور، ما حوّل ضيق فاتن الخجول منه إلى جدالات علنية.

بعد مضي أكثر من سنتين على أول لقاء جنسي بينهما أصبحت فاتن أكثر تعلقًا بيوسف، وبدأت تظهر حنقًا مبالغًا عندما لا تجده في المنزل، وغدت تغضب منه لأتفه الأسباب، فهي لم تكن عمياء كوالدتها، أما هو فقد بدأ يشعر بثقل الأوقات التي يقضيها معها.

في أوقات فراغه، كان يوسف يجلس أمام بهو العمارة، ينظر إلى النساء اللواتي يدخلنها بنظرات تختلف عن الفتيان في عمره،

كانت نظراته عميقة تنفذ إلى داخلهن، فهو يرى فيهن لحمًا طريًا وطريقًا إلى عالم جميل وشعورٍ لا توصف لذّته.

سمع يوسف أستاذه مفيد يقول "اللحم بيْخاوي" وفهم معناها الذي يشير إلى أن من يضاجع الفتاة نفسها مرات كثيرة يفقد شهوته فيها، قدّر أن هذا ما يحدث له الآن مع فاتن، التي أضافت غيرتها المفرطة سببًا جديدًا حتى يملّ لمسها.

صحيح أنها كانت جميلة ولذيذة جنسيًا، إلا أنه لم يعد يشعر معها بتلك الرعشة التي تقذفه في السماء. وشعرت فاتن بتغيّره، وبانسحاب العاطفة من لقاءاتهما الجنسية، وأحست بالغبن بادئ الأمر، إلا أنها صمّمت على استرجاعه والاحتفاظ به لنفسها، حتى لو كان ذلك على حساب كبريائها بعض الأحيان. ولهذا كانت تحاول إغواءه إما بالهدايا أو بطرق جنسية جديدة، أو بأن تستوعبه وتكبت غيرتها عليه فتغضّ الطرف أحيانًا عندما يتأخر في العودة إلى المنزل.

الفصل الثالث

يولد مع الإنسان أكبر أعدائه

قال مفيد:

– أنا اليوم في غاية السعادة، ولهذا استدعيتك، يجب أن نحتفل معًا.

كلُّ يوم له صباح جديد، تمامًا كسابقه، إلا اليوم السعيد. إنه ينتشي.

سأله يوسف:

– ما الأخبار الطيبة؟

– سعيدًا كنت أم حزينًا ستموت بعد حين.

صمت مفيد لبرهة ثم نظر إلى يوسف كمن حقق انتصارًا تاريخيا. وقف وقال:

– خيانة المرأة كالموت، كلاهما حتمي، لك أن تنسى ذلك لتعيش أو تلهب ظهرك بأشواك الحقيقة حتى تفتك برأسك. لا يمكنك أن تعرف متى تقول المرأة الصدق، وعليك إما أن لا تهتم أو أن تموت وحيدا.

رفع مفيد يده بشكل مسرحي يحيّي جمهورًا خياليًا، ثم جلس وعاد إلى شرود نظراته.

– نعم، ثم ماذا؟

– ماذا ماذا؟ هذا هو الاكتشاف يا بطل، إنه آخر اكتشافاتي الفكرية الممتازة، لقد أشعرني ذلك بسعادة عظيمة.

تصور يا بني، للألم نهاية، للحب نهاية، للحزن نهاية، وللخيانة أيضًا نهاية، آه، ما أجمل هذه الحياة.

كان الأستاذ مفيد ثملًا كعادته كل يوم بعد الثامنة مساء، نهض عن كرسيه وتوجه إلى يوسف، واقترب منه حتى أحس الأخير بأنفاس مفيد الكريهة تلسع وجهه.

– وددت لو أنجح في أي شيء فأهديه لوالدتي، نعم، لوالدتي.

لم تعرف الاستسلام في حياتها، حتى عندما سُجنت أنا وأخي وأقعد المرض والدي لم تستسلم، كانت فلاحة وفقيرة جدا لكنها رفضت أن تيأس، فقصدت مكاتب جميع المسئولين الذين وصلت

إليهم، وعملت في كل المهن الممكنة لتطعم أسرتها وتنفق على نفسها. تذللت، وربما ضاجعت هذا أو ذاك، ومع ذلك كانت دائما تؤمن في أعماقها بأنها كانت تفعل الصواب، هذا الإيمان يستحق أن يؤلّه. تبع ذلك صراخ وضحك محمومان.

لم تعرف والدته سوى رجل واحد أنجبت منه أولادها السبعة، لكن مفيد كان يقول إن خيانة المرأة كالموت لا مفر منها، وعلى الإنسان ألا ينتظرها وإلا دمر حياته بانتظارها.

خبر يوسف نوبات سُكر الأستاذ مفيد، التي يستجمع فيها الشجاعة الضرورية لقوْل ما يريده، كانت الخمر تجعله يتخيل أنه شخص خارق، وتغدو ذاكرته انتقائية، فيشير لما يريد أن يؤمن به إلى أنه حقيقة.

كانت أغنية "في يوم وليلة" تصدح في أرجاء المكان، وكانت مع الخمر التي يشربها الأستاذ تعطيه حالة من النشوة تدفعه إلى التحليق، وطبعا إطلاق ملايين الأسئلة.

قال:

– هل تعلم أن أهم إنسان في تاريخ الأمة العربية الحديث هو بليغ حمدي؟

– لكن أغنية "في يوم وليلة" من ألحان محمد عبد الوهاب على ما أظن. أنت من أخبرني ذلك!

– أحقًا ما تقول؟ هل تظن أني لا أعلم ذلك؟ هل تحفظ أسماء الأغاني التي لحّنها بليغ حمدي؟ هل لك أن لا تستنتج شيئًا لا أريد أن أقوله؟

أنا قصدت بليغ الفنان لا الملحن، بليغ كان فنانًا حقيقيًا، عيبه أنه لم يرحل قبل أوانه كبقية المتنوّرين.

لم يتكلم يوسف، فعاد أستاذه من جديد يسأل ويجيب.

– هل تعلم من أفضل مغنية في الكرة الأرضية؟ إنها الفرنسية إديث بياف، تلك العبقرية القزمة التي تعشقها أوربا. تعشقها أوربا؟ لا. لا أسمع.

سميرة توفيق. إنها سميرة توفيق بكلّ تأكيد، هل تعرفها؟ تعرفها! إنها أجمل وأشهر بدوية في العالم، آه ما أجملها! قوتها تكمن في تكنيكها المخيف في الأداء، فهي تسحب الموسيقى من باطن الأرض، تدفعها إلى قدميها، تخزّنها في صدرها، ثم تُطلِقُها، فتنشر أقواس قزح في الفضاء، آه ما أجملها!

هل شاهدتها تضع يدها على خصرها قبل أن تتلو مواويلها السحرية؟ إنها تستحضر كل الأمهات، والحروب، والأفراح التي عبرت في التاريخ، ثم تشدو وتشدو حتى ينزاح العالم خطوتين عن مساره.

توقف فجأة كمن تذكر شيئًا وسأل:

– كم الساعة الآن؟

– إنها الواحدة صباحًا.

– أوه، الواحدة صباحًا؟ في أية غرفة أنا؟

– في غرفة الجلوس.

– أوه، العاهرة سعاد، العاهرة المملوكية لعبتُ بفرْجها كثيرًا، وتراها متعبة من المضاجعة فعدلت عن المجيء. حسنًا، سأنام هنا، أيقظني غدا بعد الظهر ولا تأتيني خالي الوفاض؟

– حسنًا.

قام يوسف فدثّر أستاذه وأطفأ جهاز الموسيقى وأزال زجاج الشراب والطعام من على الطاولة، وقبل أن يهمّ بالمغادرة سمع طرقًا على الباب.

كانت "الملكة" سعاد بصحبة فتاة صغيرة بالكاد تبلغ العشرين من عمرها.

دفعت الباب وولجت تتمتم بكلام عن سبب إبقائها في الخارج كل هذه الفترة، وتساءلت عما إذا كان يريدها أن تقضي الليل على السلم، تذمّرت مرات عدة حتى شعر يوسف بأنها تأخرت بسببه.

رمقت الأستاذ بنصف عينها، وأتبعت ذلك بشهقة استنكار، اقتربت منه تكلمه، لكنه كان ثملًا جدًا، وغدا في نومه كالجثة الهامدة.

اقتربت من الفتاة وهمست في أذنها فغادرت.

كان مفيد أخبره بأن "الملكة" تعرف ما تريده معظم الأوقات، وغالبًا ما تحصل عليه، وهي على ذلك بلا هوية أو خانة تصنَّف بها، فهي ليست بائعة هوى صريحة، وليست أرستقراطية، لا فلاحة ولا حضرية، وهي في الغالب على ما يعتقد الأستاذ، سليلة ملك تعس الحظ، حكم غزاة برابرة على أبنائه بالتشرد.

"كل شيء فيها يشي بذلك، أنفها وتقاطيع وجهها لافتة الجمال، وذوقها الراقي".

وأكد الأستاذ ليوسف في ذروات سكره أنها تضاجعه، لأنها تحب عقله وتستفيد منه ثقافيًا، لا من أجل نقوده.

نظرت الملكة إلى يوسف نظرة فهم مغزاها، جلست بتثاقل وسألته إذا كان متحمسًا لدخوله كلية الطب.

– لم أتقدم للامتحانات بعد.

– أنا متأكدة أنك ستنجح وستدخل كلية الطب السنة المقبلة.

وأضافت أنها تراقبه منذ فترة، وتعرف كم هو شاب ذكي وصاحب إمكانات عالية، ثم اقتربت منه واستنشقت رقبته قائلة

إنها تحب أن تستنشق الرجل قبل أن تضاجعه، خاصة إذا كان بهيّ الجمال. أخبرته بأنه الشاب الثالث الذي تستنشق رقبته في حياتها، الأول كان صديقها في المدرسة قبل 20 سنة، وأول شاب تضاجعه، أما الثاني فكان نجمًا سينمائيا شابًا مشهورًا جدًا.

سألها إذا ما كنت متأكدة من أنها ستضاجعه.

ضحكت وقالت إنها ستضاجعه حتى لو اضطرت إلى تكبيله بالقيود، فهي أعجبت به منذ رأته، وبحاجة ماسة لتختبر إذا ما كان أداؤه يطابق جماله الخرافي، ثم اقتربت منه وشرعت تقرص مؤخرته وتستنشق رقبته، وتطلق آهات الواحدة تلو الأخرى.

جلست وأشعلت سيجارة وطلبت منه أن يحضر قليلًا من الثلج من المطبخ إلى غرفة النوم، عندما عاد وجد كأسين من العرق أمام الطاولة الصغيرة بجانب السرير.

وضع الثلج أمامها واستأذن بالخروج، وعندما هم يستدير مغادرًا قالت إنها تشعر بالإهانة من تصرّفه الوقح، وأنه لا يجوز لسيدة أن تشرب الخمر بمفردها في حين يوجد أمامها كأسان، فذاك يعتبر فألًا سيئًا، وعلى شخص بجماله الخرافي أن يتحلى ببعض الأدب، لأن من شأن ذلك أن يزيده جمالًا.

اعتذر يوسف عن تصرفه متعللًا بفترة الامتحانات قائلًا إن كأسًا واحدة فقط تسعده إن كانت ستسعدها.

شعر يوسف بلسانه ثقيلًا وبانتصاب غير منطقي في قضيبه، كانت الملكة قد توقعت قراره بالمغادرة، فوضعت له المفوّي الجنسي الذي أحضرته لمفيد في غفلة منه.

بدأ يوسف يلاطفها ويداعب وجهها بإصبعه. حاول تذكر الأحاديث التي قالها له الأستاذ عنها، وعبثًا حاول التفكير في قول أو تلميح يكفه عن مضاجعتها، إلا أنه لم يتذكر شيئًا.

كانت سعاد ترتدي فستان سهرة أسود يكشف عن جمال كتفيها وصدرها، يتسع عند الخصر ويخفي الشحم الزائد فوق ردفيها.

أمسكت سعاد بيد يوسف وقادته إلى غرفة النوم، كانت لدى الفتى قدرة غريبة على اكتشاف شهوة المرأة تجاهه، كان يستطيع أن يستجمع حواسه ويوجهها بدقة إلى أعماق المرأة أمامه، فيعرف إن كانت ترغب به أم لا، وكلما رغبت المرأة في مضاجعته، كلما زادت شهوته إليها.

ولسبب ما، كانت سعاد تشتهيه بكل جوارحها. لمح ذلك خفيفًا في المرة الماضية عندما قابلها، أما الآن فشهوتها واضحة.

كان يوسف يحتاج إلى رغبتها وقوتها، خاصة بعد فتور علاقته مع فاتن التي أصبح يضاجعها اتقاء لثورات غضبها. أما صديقاته من عمره أو أكبر قليلًا فكن يرين في القبلة أقصى أحلامهن.

اقتربت سعاد من الفتى، ووضعت يديها تحت قميصه وفوق

كتفيه، وشرعت تفرك يديها كالمروحة وتنزل بهما إلى مؤخرته، وضعت شفته السفلى بين شفتيها وأخذت تمصّها، ثم أحكمت قبضتيها على كتفي الشاب ورفعت جذعها ووضعته أمام شيئه.

خلعت قميصه عنه وسرواله، ثم انحنت على ركبتيها فغدا وجهها أمام قضيبه، بدت كتاجر مسحور أمام بضاعة رائعة يتفحّصها مفتونًا.

أمسكت قضيبه بيدها وبالأخرى مؤخرته، وطلبت منه أن يستدير، ثم شرعت تلثم مؤخرته وفتحة شرجه وتستنشقها وتمرّغ خديّها في مؤخرته، ازداد هياج الشاب الذي انحنى هو أيضًا ورفعها إلى السرير واستلقى بجانبها، كان مهبلها رطبًا، لكنه شعر بأنها لا تريد الإيلاج بعد، فقد كوّرت نفسها تمسح قضيبه بوجهها ثم وضعت بيضتيه في فمها كأنها تريد ابتلاعهما.

أوقفها يوسف متألمًا، استقام نصفها الأعلى واتجهت إليه ثم جلست فوق رأسه واضعة فرجها فوق شفتيه. رفعها بيديه، ثم جعلها تستلقي على ظهرها، ورفع ردفيها إلى الأعلى وكوّرهما إلى الأمام، وبدأ يمص مهبلها.

غدت تتألم من فرط اللذة، وتحاول الوصول بيدها إلى قضيبه.

عرف يوسف ما الذي تبحث عنه، فرفعها مرة أخرى وقلبها فغدا شيئه أمام فمها فحاولت ابتلاعه ما استطاعت.

بدأت سعاد تتأوه من اللذة، وابتلّ مهبلها حتى سال، وعندها شرعت تمص شفتيه وترجوه أن يولجه فيها، وضع يده اليمنى أسفل ظهرها ورفعها إلى أعلى، وضع وسادة تحت مؤخرتها، أمسك عقبي قدميها وثبّتهما إلى أعلى وأولج فيها قضيبه بأكمله، وشرع يهتز قليلًا حتى يحرك النقطة "جي" في مهبلها.

أغمضت سعاد عينيها وأمسكت الفراش بيديها، وصرخت وهي تحاول التقاط أنفاسها، شرع صراخها يعلو، وبدأت تتنفس بثقل وسرعة واضحتين، أمسكت بفخذي يوسف وعصرت بكل قوتها وشرعت تهز رأسها إلى اليمين واليسار حتى بدت وكأنها تقفز من مكانها قبل أن تفيض شهوتها.

***

اعتدلت سعاد في جلستها، طلبت منه أن يشعل لها سيجارة ويضعها في فمها، ففعل.

سألها منذ متى تعرف مفيد، وما الذي دفعها إلى بيع جسدها، وكيف توفّق بين أطفالها وعملها، ومن هي تلك "الليلى" التي لا تنفك تتحدث عنها. كان ما زال تحت تأثير المخدّر وميالًا، على غير عادته إلى الثرثرة والتساؤل.

تجاهلت أسئلته في البداية، حتى شربت كفايتها من الخمر، وأمام إصراره بدأت تحكي له عن والد جدتها الذي تطوع للمشاركة في

"سفر برلك" فداءً لوحيده بعد أن أغار العثمانيون على منزله في قريته النائية يسحبونه للمشاركة في الحرب العالمية الأولى، والذين عادوا بعد مدة فأخذوا خالها الوحيد وما تملكه الأسرة من طعام ومؤن، فاضطرت والدتها اليتيمة إلى العمل خادمة في بيت أحد الإقطاعيين، وفيه حَمِلت ثم طُرِدَت منه. لم تر والدها ولا تعرف حتى اسمه ولا تريد. ارتادت المدرسة حتى الصف العاشر ثم تزوجت من عامل بناء سكّير، تركته هي وأولادها وجاءت بهم صغارًا إلى المدينة.

شعرت بوطء ما قالته، وأرادت أن تهرب من ثقل الحكاية. فقالت:

– أحب قراءة القصص التاريخية والكتب القديمة التي تتناول أساليب الحياة فيما مضى، فالبشر ما زالوا يعيشون ذات الأفكار والتعثير.

أخبرته بأن النساء قبل 12 ألف سنة، في منطقة خضراء وخصبة مليئة بالبشر تدعى اليوم الصحراء الكبرى كن يشاركن الرجال الغزوات، قالت إن ذلك حدث ذلك مع نهاية العصر الجليدي الأخير، حيث كانت النسوة يحصلن على الأسرى من الرجال كما كن هن يسبَون بدورهن، فالمرأة عندما تعمل وتحصل على استقلالها المادي تصبح كالرجل متسلطة كاذبة ووقحة وعديمة الشرف.

وقالت:

– فيما مضى في تلك البقعة من الأرض عاشت قبيلة سمّيت قبيلة الفحشاء، كانت النسوة يشاركن الرجال غزواتهم، وكن يغتصبن رجال القبائل المهزومة.

– هل يعقل أن يُغتصَبَ الرجل المذعور؟ كيف ينتصب قضيبه؟

– نعم. قالت بكل ثقة، مستطردة أن النسوة كن يعطين الرجل مشروبًا خاصًا يحافظ على قضيبه منتصبًا كالفياجرا التي يستعملها الرجال الآن، وكان هذا الشراب يصيبه بحالة من الهستيريا المفرحة.

– كيف عرفت ذلك؟

– أخبرني الأستاذ مفيد.

ضحك يوسف بصدق، وسألها إن كانت من السذاجة إلى درجة تصديق أي شيء يقوله مفيد.

– في البداية، كانت لي شكوكي طبعًا، فأنت لا تعرف متى يكون مفيد واعيًا ومتى يكون غير ذلك، لكنه أعطاني كتاب "التاريخ البشري المصنوع" أو هكذا شيء لا أذكر الاسم الآن، وبعد قراءته عرفت أن كلامه صحيح.

– وماذا عرفت أيضًا؟

– أعرف أن أمامي قضيبًا جميلًا يجب أن يوزن بالذهب، لو كنت رأيتك قبل 12 ألف سنة لكنت سبيتك بكل تأكيد.

– وماذا يعطيك مفيد غير الكتب؟

– مع أن سؤالك خبيث إلا أنني سأجيبك. إنه يعطيني ماله، وأنا أقبله بكل رحابة صدر، وأحيانًا لا يكون معه نقود فلا أتذمّر كثيرًا. إن مفيد يعرف أنني كنت أبيع جسدي صغيرة، وأني مستعدة لبيعه هو إن استطعت، والسبب الوحيد الذي يمنعني عن ذلك أن أحدًا لن يدفع فلسًا في مفيد وممتلكاته معًا، وهو على ذلك يعاملني بلطف ويحاول تعليمي، ويعيرني كتبه بالكاد أفك طلاسم حروفها، ويكلمني كند له، لا يسألني عن شيء إلا عندما يكون ثملًا ويسامح إهمالي الإجابة، ولا يعلم أني أكثر المجيء اليه أخيرًا من أجلك، وحتى لو علم فلن يحزن، لكنه سيشعر بضيق بالغ لو أحس بأني أسعى لاستغلالك أو الفوز بخدماتك، فهو يعشقك، كما أنه من أولئك الحمقى الذين لا يطيقون استغلال البشر لبعضهم.

ضحكت وتابعت بعد أن سحبت نفسًا من السيجارة:

– لكنني للأسف لست سوى رسول، أرادتني السيدة بتول وصيفة الست الكبيرة، أن أختبر البضاعة قبل أن تدفع هي الثمن.

– ليلى؟ صاحبة ليلى للألماس؟

– وليلى للصلب والأزياء ووو. إنها أغنى من كل رجال الأعمال الذين تعرفهم في المدينة.

– أهكذا تريانى؟ بضاعة؟

– أنت بضاعة ثمينة يا سيد يوسف، والبائع الحاذق هو من يدفع الثمن الحق.

– من قال إنني بضاعة؟

– أنت تبخس نفسك، لقد انتشر صيتك في أرجاء المدينة كلها، لا توجد فتاة مدرسة أو جامعة أو سيدة إلا وترغب في مضاجعتك.

رسولة السيدة ستتصل بك في القريب العاجل، وهي ستخبرك عن ذلك، ولو كنت مكانك لنفذت كل رغباتها مجانًا، فهي سيدة ذات نفوذ، ويدها طويلة تستطيع إيصالك إلى بلاد أحلامك، وتستطيع القضاء على أية مشكلة تواجهك بهاتف صغير. وتستطيع أيضا أن تقتلع قضيبك وتزرعه في مؤخرتك، سيدتي قادرة على نكاح كل ما يعترض طريقها، سواء كان رجلًا أم حيوانًا أو أي شيء آخر.

– من أدراك ما هي أحلامي؟

– ألست بشرًا مثلنا؟ بالتأكيد لديك نقاط ضعف، ونقاط قوة، وأحلام، والبشر أحلامهم كلها مادية، إلا الأغبياء منهم أو الشواذ ممن يسعون وراء الوهم، وأنت تبدو أذكى من ذلك.

– لكن الحياة ليست مادة فقط، نحن مجموعة من الأحاسيس، كيف يمكن تفصيل الناس والدنيا بهذه السهولة؟ هذا تفصيل إقطاعي مقيت، وهو ما يجعل هذه الأرض مقرفة يقودها أسوء من فيها.

ضحكت سعاد بشدة حتى اغرورقت عيناها بالدموع، فمسحتها بقميصه وطلبت منه أن يسامحها، فأداؤه المثير أنساها أنه ما زال شابًا يفعل شيئًا وينادي بآخر. وقالت:

– هذا المفيد سيدمرك، حذار أن تصدق شيئا مما يقوله... اسمع يا حبيبي يوسف: كلّ البشر جميلون، لكن من بعيد، عندما تتعرف إليهم عن كثب ترى كم هم معقدون، وكم ينزعون إلى تفضيل مصلحتهم الشخصية حتى على حساب أقرب الناس لهم.

صمت كلاهما لبرهة إلى أن عادت سعاد وقالت كمن تذكر شيئًا:

– أعرف أنك لن تقول شيئًا، وأنك قليل الكلام كثير الأفعال.

ضحكت وضربت قضيبه براحة يدها، وأخبرته أن بقاء الحال من المحال، وأن هذا أجمل ما في الحياة.

قبّلت وجنتيه، ثم قضيبه واستنشقته، عادت فأخبرته أن قضيبه يستاهل وزنه الماسًا، لا ذهبا فقط، وأنه إذا أدرك ذلك، فسينتظره مستقبل واعد ثم غادرت المنزل.

خرجت سعاد مسرعة إلى منزل بتول وصيفة السيدة ليلى، كي تزف لها خبر اكتشاف الكنز الجديد، الشاب الطري العود الذي لن يكون تطويعه صعبًا.

ارتدى يوسف ثيابه ثم خرج من الغرفة، كان الأستاذ في مكانه لم يتحرك ولو قليلا، اقترب منه يوسف ووضع زجاجة ماء بقربه ثم عاد إلى منزله.

كان يوسف مولعًا بالشخصيات الثورية حول العالم. أسهمت نشأته وقراءاته لكتب مفيد، وعشرته في تكوين نظرة خاصة عن المجتمع تمقت الاستغلال وتحتقر الطبقة المستبدة، إلا أن مفيد أيضا كان يعطيه رسائل متضاربة، فتارة يكلمه عن أهمية العدالة، وتارة يقذف الجنس البشري بأقذع الشتائم واصفا كل قضية تحررية بأنها عبث العبث.

ما جعل يوسف يعيش في صراع مكبوت بين غريزته وحياته الجنسية الضاحة، وبين ما يجب أن يكون عليه مثاليا في التضحية والموقف، في النهاية اقتنع أن تحرره الجنسي لا ينفصل عن إيمانه بالعدالة والحرية، فكل أبطاله عاشو حياة جنسية ضاجّة رغم كفاحهم البطولي من أجل قضية الشعوب المقهورة.

2

خلف كل أخير بداية

كانت فاتن تحترق شوقًا بانتظاره، جعلت تنظر إلى الساعة كل دقيقة حتى بدا لها الزمن ميتا، دخل يوسف يحمل كتبه كحجّة غياب، وحتى يتجنّب سجالًا مسائيًا معها.

سألته بما يشبه الصراخ:

– أين كنت يوسف؟

لم يجبها، اكتفى بالنظر إليها، والنظر إلى كتبه، ثم رفع يده إلى أعلى ملوّحا بحزمة الكتب، لكن ذلك لم يكن ليجنبه المعركة المحتومة، على العكس، كان كمن أجّج النار بصب الزيت، ثم أدار ظهره متجهًا إلى غرفته.

– إلى أين تخال نفسك ذاهبًا؟ هذا ليس فندقًا تدخله متى شئت.

استيقظت الجدة حليمة مذعورة على صراع لم يخطر لها أنه ممكن، وزاد تقوّس حاجبيها عندما سمعت النبرة النارية لصوت فاتن.

تابعت فاتن التي زادها هدوء يوسف وعدم اكتراثه انفعالا.

– هذا البيت فيه سيدتان، وإذا كنت لا تحترمهما ولا تستطيع العودة إلى المنزل قبل العاشرة ليلًا، فالأفضل لك أن تبيت حيث أنت.

– حاضر.

أجاب يوسف، ثم دخل إلى غرفته وبدأ يجمع حاجياته وملابسه.

فاتن التي كانت تحترق بالغيرة والشوق إليه، استفاقت عندما رأته يهم مغادرًا، سألته ماذا يظن نفسه فاعلًا، ثم وبصوت خافت ذكّرته بأنها مسئولة عنه أمام أهله، وبأنها لن تسمح له بأن يأتي بأعمال جنونية على حسابها.

ابتسم يوسف بأخبث ما أمكنه.

بأعجوبة تمالكت فاتن أعصابها، أغلقت باب الغرفة فلم تعد والدتها الجالسة في الصالة تراها، وهو أمر لم تفعله من قبل استحياء منها، إلا أنها هذه المرة كانت تتصرف كالأنثى المحاصرة التي لم يتبقَ من كرامتها شيء تخسره.

– ماذا تفعل؟

– أذهب إلى مكان أبيت فيه.

اقتربت منه بشيء من التودد والخوف والغضب، أمسكت يده التي ترتب حاجياته ثم زادت قربًا حتى لامس شيئها وثديها جسده، وضعت خدّها على وجهه، أصبحت أنفاسها مسموعة في أذنه، ثم سحبت يده من الحقيبة، وأدخلتها في سروالها. كانت أزالت كل الشعيرات من على عانتها كما كان يطلب منها، وشرعت تدعك مهبلها بأصابع يده ثم تقبل شفتيه وتعصرهما، نزلت دمعة فبللت خدها وخده.

قالت إنها آسفة فالغيرة تقتلها، فالمرأة تستطيع أن تغفر ظلم الرجل لها، لكنها لا تنسى إهماله لها، ذاك أسوأ من السرطان على المرأة العاشقة.

نظر إلى أسفل وهز رأسه متفهّمًا وطلب منها ألا تقول المزيد، فهو يستطيع أن يتفهم.

تحولت فاتن إلى امرأتين في تلك اللحظة، امرأة تعصرها الشهوة والغريزة، وأخرى تخاف المصير المشئوم الذي يلوح في الأفق ويحثُها على الانفصال عنه.

انحنت تفك أزرار سرواله ثم مصّت شيئه، وعندما اشتد عوده أمسكته بقبضتها وأولجته فيها. كان الشبق لديها في أشده.

طرحته فوق السرير وهبطت تبرم جذعها فوقه، قالت إن قضيبه مفصّل كي يستثير "الجي سبوت" لديها، أمسكت بيده اليسرى ووضعت أصابعه فوق حلمتها، وطلبت منه أن يعصرها بقوة، ازدادت شهوتها حتى شعرت بأنها ستفقد الوعي، سحبت يده الأخرى ووضعتها فوق فمها كي لا يعلو صراخها. بعد دقائق كانت قضت حاجتها منه.

اعتدلت في السرير، أشعلت سيجارة وطلبت منه أن يسامحها.

– أعرف أنك ستتركني يومًا ما، لكن لم أتوقع أن يأتي هذا اليوم بهذه السرعة، لم أتوقع أن تملّني سريعًا.

سكت يوسف، كان يحاول أن يجد طريقا وسطًا لا يؤذي معه فاتن، ولا يضطره أيضا إلى تحمل ثورات غيرتها.

قالت:

– هل مللتني، أم أن الوقت مر بسرعة؟

– فاتن، لا يمكنني أن أساعدك إذا لم تساعدي نفسك. نحن في النهاية نعتاد كل شيء.

بدت فاتن كأنها تجمّدت في مكانها، هزت رأسها كمن يحاول أن يعلن هزيمته. قالت:

– بدأت تتكلم كمفيد الآن؟ سيقضي عليك هذا الأستاذ الفاشل.

– كلانا يعلم أن مفيد لا دخل له فيما أقول أو أفعل.

– كنت أعرف أن هذا الوقت سيأتي يومًا ما، لم أدرك أنه سيحل بهذه السرعة، ولن أقبل أن يمر سريعًا. أنا مفتونة بك ولا أستطيع أن أتحكم بما أقوله أو آتي به من تصرفات. أنت تدرك أن ذلك يفوق طاقتي.

جلست، وتابعت بعد أن مسحت عينيها بيدها:

رأيت اليوم عاشقين بالقرب من الحديقة، لحقتهما كمخبر دون أن أشعر إلى مكان مخفي عن الأعين، جلست الفتاة في حجر الشاب وأخذت تقبله وتمسح شعره. نهضتُ وبدأت أمشي بسرعة عائدة إلى المنزل. كدت أجن حتى أراك. أشتاق إليك كثيرًا.

همّت فاتن بالوقوف وهي تتمنى أن يجذبها يوسف من يدها ويقبّلها، أن يقول أي شيء يطيّب خاطرها، لكنه لم يفعل.

– سامحني، لكني أعدك بأن هذا سيتغير، امنحني بعض الوقت فقط.

– خذي كل الوقت الذي تريدين، فقط لا تتصرفي بطيش المراهقات.

– حسنًا، سأفعل.

ارتدت فاتن ثيابها وعادت إلى غرفتها.

تذكر يوسف بعد أن غادرت فاتن فيلمًا وثائقيا شاهده، وإحدى

عباراته التي تدعي أن البشر لا يتشاطرون همومهم ويجد بعضهم صعوبة في فهم الآخر وتقبله، وتاليًا يحدث شقاق دموي في آخر المطاف سواء على صعيد الفرد أو الجماعة.

دخلت فاتن إلى غرفتها، كانت الصالة خالية إلا من صور والدها، أو هكذا هيئ لها. قبل أن ترتدي ملابس النوم نظرت إلى جسدها عاريًا في المرآة.

سمعت صوت بصيرة الأنثى بداخلها تخبرها أن الفصل الأخير في علاقتها مع يوسف قارب على الانتهاء، لكنها لم تكن قادرة أو مستعدة للاعتراف بذلك.

كانت تقول لنفسها إن كل الرجال بحاجة إلى امرأة يضاجعونها، وكذلك النساء، وبأنها ويوسف يحتاج كل منهما إلى الآخر.

جربت لبعض الوقت أن تمنع نفسها عنه، لكنها تراجعت عندما وجدته غير مبالٍ بها ولم يزدها هذا إلا شوقًا إليه.

قالت لنفسها إنها لم تكن بريئة، وشعرت بأن المرء يصبح أقل تمسُّكا بمبادئه بعد أن يفقد براءته.

لم يكن يوسف يطلب شيئًا من أحد، وكانت تدرك تماما أنها إذا لم تطلب منه مضاجعتها فلن يفعل حتى لو قطعت له رأسه.

إضافة إلى نفوره منها، كانت امتحانات الثانوية قريبة، وكان على يوسف نيل مجموع ممتاز إن أراد دراسة الطب كما يأمل أصف أفراد قريته.

"كيف يمكن لهذا الكابوس أن ينتهي؟".

سألت نفسها مرارًا، كانت تعد سيناريو تلو الآخر للخطة التي تسترجع بها يوسف إلى حضنها، كانت في كل مرة تكتشف زيف هذه الأحلام أمام صرامته وصدّه لها، لكنها حافظت على محبتها له واشتياقها الجنوني لمضاجعته، واستمرت لوعتها وهي تحلم بقرب ساعة الفرج.

إلى أن جاءها بغتة مشهد الفراق المحتوم الذي جعل قلب العاشقة في صدرها يتقلص حتى يختنق.

امتنعت فاتن عن الكلام مع يوسف إلا في أضيق الحدود، وفعل هو الأمر نفسه، كان أحيانًا يتمنى لو يغادر منزلها بلا رجعة، وكان يستطيع ذلك، لكنه شعر بأنها مستعدة للقتال حتى يكمل دراسته، وكان هو أيضًا مقتنعًا بأن عليه أن يضع كل طاقته في هذا الامتحان.

وهكذا انزوى في غرفة صغيرة لا تتسع لسرير بالكامل، وتخلى عن الكمبيوتر والهاتف النقال نزولًا على رغبة فاتن التي قالت إنه سيتسلّمهما بعد انتهاء آخر امتحاناته في الثانوية.

مضى الامتحان بسرعة، ولدى عودة يوسف من آخر امتحاناته كان هاتفه النقال وكمبيوتره على طاولة بجانب كرسي الجدة حليمة التي وجدها منهمكة في تقطيع بعض الخضار.

كانت فاتن تجلس أيضًا في الصالة، أراد يوسف الدخول إلى غرفته من دون أن يظهر لها أنه مهتم بها أو بأغراضه، لكنها استوقفته وطلبت منه الجلوس.

قالت:

– عيسى بهنا طلب الاقتران بي، وأنا وافقت.

سقط طبق الخضار من يد الجدة، وفشل يوسف في إظهار أي جواب يوحي بالاهتمام، واكتفى بنقل نظراته بينها وبين والدتها إلى أن دخلت فاتن غرفتها.

فاجأ القرار الوالدة، وتذكرت كيف رفضت فاتن العديد من الشبان المتفوقين والمؤهلين ماديًا وفكريًا، ثم وافقت على الاقتران بـ"عريس الغفلة" عيسى بهنا سائق الشاحنة نصف الأمي! لكن حليمة لم تكن حزينة تمامًا، فالزواج سترة للبنت.

شعرت فاتن بأن هذه أسرع طريقة للابتعاد عن يوسف، كانت تواسي نفسها أحيانًا بسيناريوهات مستقبلية يعود فيها باكيًا ونادمًا على معاشرة غيرها من النساء. كانت تحبه كعشيق وتحبه أيضًا

كطفل، لم تستطع أن تستوعب ذلك الشعور الممزق، فهو يختلف عن كل ما آمنت به في حياتها، قالت لنفسها في البداية إن ذلك يحدث للمرأة بعد أن يتقدم بها العمر، فتندفع خلف الرجل الأخير كمجنونة متلعثمة. ربما شعرت بأنها لن تكون ندًا لفتاة أخرى أجمل بكثير منها، وكان يوسف كمغناطيس النساء الجميلات.

أصبَحتْ متأكدة من أن يوسف يضاجعها مجبرًا، فكرت أنه ربما قد يعود إليها يومًا ما، وعندها ستترك كل شيء من أجله، وقررت أن تقضي الوقت المتبقي في انتظاره مع أول شخص يتقدم ليتزوجها. كانت لا تزال جميلة، وتعمل في وظيفة مرموقة وتملك منزلها الخاص. أقنعت نفسها أنها لا تزال مرغوبة ومشتهاة، فعقدت عزمها.

قالت لنفسها غير مصدقة بأنها ستتزوج أول شخص يطلبها، لكنها غادرت معه فعلا أمام أعين حليمة، ويوسف، وساندرا.

أقنعت فاتن نفسها بأنها لا تستطيع احتمال فتور يوسف وطيشه أكثر، أرادت أن تنتقم منه ومن نفسها على خيارها الشاذ واللئيم، فقد ضاجعت فتى صغيرًا وغرّرت به.

"لا، أنا لا أستحقه، كذلك هو لا يستحقني"، كررت قول ذلك لنفسها مرات وأيامًا قبل زواجها بعيسى وبعده. وقالت لنفسها إنها سرعان ما ستتأقلم مع حياتها الجديدة بعيدًا عن منزلها ووالدتها وحلمها الذي عاشته مع يوسف 3 سنوات.

3

قبل أن تغادر المنزل قالت فاتن لوالدتها: إنّ الحياة مقسومة إلى حلم وواقع، الحلم مقاسه شاسع يمتد إلى كل الاتجاهات التي تستوعبها المخيلة البشرية، أما الواقع فله حدود معينة تتسع مع رأفة الدنيا وتضيق مع قسوتها.

هزت الوالدة رأسها، لم تفهم معاني كلمات فاتن، لكنها شعرت بذلك الألم الذي يعتصرها، احتضنتها طويلًا وقبّلتها مرارًا، لم تعرف أفضل من ذلك لتقدمه لكليهما.

تذكر يوسف فراق سوسن، التي اكتشفته وأفقدته عذريته ثم رحلت فجأة بلا مقدمات.

فكعادتها، وقبل أن يخرج من غرفتها، قبّلته سوسن وقالت له باسمة:

– ستكون بحاجة إلى دروس في الفيزياء مساء الخميس المقبل.

شاركته ضحكة من القلب، إلا أنها وفي الموعد المحدد لم تكن هي

من فتح له باب المنزل، بل والدتها التي أخبرته أن سوسن غادرت البلد، وحذّرته من أن يدخل منزلها مرة أخرى، ثم ودّعته ببصقة على الأرض متمتمة بعض شتائم لم يميّز معظمها. وسيمضي وقت طويل قبل أن يدرك أن سوسن أُجبرت على الزواج بثري خليجي في أواخر الخمسين من عمره، فبعد أن رأتها والدتها تقبّل الصغير في فمه ثم شيئه، وبعد زوال ذهولها وخفقان قلبها الشديد، اتصلت بأخيها المقيم في السعودية، وعلى الفور حضر مع ولي نعمته، عقد قران العجوز على شقيقته، وعاد بها كي تصبح جارية في بلاد بعيدة، ولم يسمع عنها أي خبر، فقد توفيت والدتها بعد ذلك بسنة، وباع الابن المنزل ثم عاد إلى السعودية ولم يرجع منها.

وفي حين لم يكن هناك من يملأ فراغ سوسن، كانت ساندرا المثيرة فوق العادة حاضرة بكل سحر الرهبة التي يولدها حضور من جاء قبل أوانه.

أصرّت الجدة حليمة على بقائه في منزلها حتى بعد رحيل ابنتها، وهو ما وافق عليه أهل الشاب على الفور، فقد كان يوسف يستعد لدخول الجامعة، وبقاؤه مع الجدة حليمة سيجعل أهله مطمئنين أكثر مما لو أقام بمفرده أو مع أناس غرباء، ولم يكن يوسف يأبه في حينه إلا بما سيمكّنه من البقاء إلى جانب ساندرا.

الفصل الرابع

إلا ساندرا، فكل النساء توائم

في الثامنة عشر من عمره كان يوسف متأكدًا من معرفته كل شيء عن الدنيا، قويا طائشًا، نزقًا، ومحبوبًا جدًا من كل من حوله، حتى الجدة حليمة التي تململت تقرّبه من ابنتها، بدأت تقنع نفسها بأن لا شيء غير طبيعي يجري بينهما.

كبر يوسف واثقًا بنفسه كجنرال حرب لا يقهر، ولهذا ظن أن عليه أن يكون حليمًا مع غيره من البشر، لم يعتد أن يثور بسهولة.

ظهرت ساندرا في فترة مبكرة جدًا من حياته، لم تكن الحياة قد صقلته بعد للتعامل مع تلك الجرعة الهائلة من الجمال والسحر، والذكاء فوق العادة، ولا تلك الجرعة من الألم التي سيبتلى بها لاحقًا.

عندما لمح يوسف ساندرا لأول مرة تمشي نصف عارية في

شقتها في المبنى المقابل، اعتقد أنها بائعة هوى مريضة، وكان يقول لنفسه إنها لا بد مليئة بالبثور، والتجاعيد، وإنها تبدو جميلة من بعيد فقط، وعندما أخبر مفيد عن قصتها، نصحه أستاذه بأن يحدد الشقة التي تقيم فيها حتى يذهب إليها عندما يراها عارية، وكي يتسنى له أن يفحصها عن كثب.

وأضاف مفيد، أن الشجاعة تعني تهورًا، وتاليًا غباء، وإنه طلب منه الذهاب للقائها من باب الدعابة لا التنفيذ، وعليه ألا يصدق معظم الأشياء التي يقولها له وإلا انتهى به الأمر مثله.

أصغى يوسف إلى الجزء الأول من حديث مفيد، فحدّد بنايتها ورقم الطابق الذي توجد فيه شقتها، وعندما ظهرت في صباح يوم إجازته لم يتردد في الذهاب إليها.

***

فتحت ساندرا الباب ببطء، كانت ترتدي ثوبًا شفافًا، أرخته بإهمال عندما لمحت يوسف وكأنها تعرفه منذ مدة. وقالت:

– أخيرًا.

استدارت وتركت الباب خلفها مفتوحًا، فدخل وأغلق الباب خلفه.

جلست، ووضعت رجلًا فوق أخرى، فانحسر الرداء الذي

ترتديه عند أردافها وتموّج صعودًا إلى أعلى حتى ظهر طرف من حلمة ثديها.

قالت:

– رأيتك تأكلني من تلك النافذة، أليس لديك شيء آخر تفعله؟

كانت ساندرا أشهى مما تخيله الشاب، تتضح أنوثة وجمالًا، لم يكن رأى أحدًا بنعومتها، ولا بجمال عينيها. كان يستطيع استنشاق رائحة الشبق التي تفرزها مسام جلدها.

قالت:

– نعم أيها الصغير، ماذا تريد؟

– أنتِ.

أطلقت ضحكة انشرحت لها أسارير يوسف، وعندما انتهت من ضحكتها الطويلة قالت له، إنه شاب مثير وبهي الطلعة، وإن طلبه ذلك يشرّفها، وهي تحب الجنس والمضاجعة، ثم سألته عن عمره.

– قريبًا أتجاوز الثامنة عشر.

– تبدو في الثالثة والعشرين.

– أعرف ذلك.

– ماذا تعرف أيضًا؟

– أعرف أن البشر رجل وامرأة، وأن ذلك لن يتغير.

– اقتناع الشخص اقتناعًا مطلقًا بما يقول، لا يجعله على صواب.

– وامتلاك الحكمة، لا يعني التصرف بحكمة.

– لماذا؟

– لأن الحكمة تعني الحذر، والحذر غالبًا ما يمنع المرء من الإتيان بأي شيء ذي قيمة خالصة.

– ومثقف أيضًا.

– بعض الشيء، أحفظ بعض ما أقرأه وأسمعه، وأردده عند الحاجة.

ابتسمت له ساندرا، نهضت واتجهت إلى باب المنزل، ثم فتحته وطلبت منه الخروج.

قالت إنها سعيدة بمعرفته، وإنها تتمنى له الأفضل، ورغم أنها كانت تتوق شوقا لمضاجعته فإنها لم تكن لتضاجع شابًا صغير السن مثله، ولم تكن ترضى أن تنام معه رغم أنها كانت شبه مقتنعة بأنه يضاجع من هن أكبر منها سنا كجارتها فاتن.

كانت ساندرا في الـ 28 من عمرها، تكبر يوسف بعشرة أعوام، تعيش بمفردها حياة هي الأكثر غرابة وتفردًا، وستنجح خلال 4

سنوات في أن تغير حياة يوسف إلى الأبد، ستعزز إيمانه بأهمية أن يقول الإنسان رأيه في مجتمع حر خال من الواسطة والفساد، قبل أن ترحل فجأة، وتتركه لينتقم من ذكراها ومن نفسه.

***

بعد أن صدته ساندرا في أول لقاء بينهما، أصبح يوسف مصممًا أكثر من أي وقت مضى على مضاجعتها، وضع مكتبه مباشرة في مقابل النافذة حتى تتسنى له رؤيتها متى خرجت إلى الشرفة أو مشت عارية في منزلها، فجأة أصبحت علاقاته العابرة قليلة حتى انتهت كلها، بعد أن غدا يضاجع فاتن من باب الواجب فقط لا غير.

بعد مُضي شهر على لقائهما الأول، لمح يوسف ساندرا تمشي لصف عارية في شقتها، قفز عن مكتبه، وأخبر الجدة حليمة بأنه نسي بعض المراجع في منزل صديقه، وأنه في طريقه لاسترجاعها.

بعد بضع دقائق، كان يقرع بابها، نظرت من خلال الثقب، ثم فتحت له الباب، أدارت له ظهرها واتجهت إلى غرفة الجلوس حيث كانت مائدة العشاء جاهزة، طلبت منه أن يجلس.

جلست أمامه بكامل جمالها الملائكي، وعبثًا حاول يوسف أن يبحث عن ثغرة أو عيب في مظهرها عله يكبت تلك الشهوة الصارخة

في داخله، إلا أنه لم يجد سوى جسم رائع لوّحته حمرة خفيفة بسبب الشمس، وثديين كحمامتين تحرسهما حلمتان ورديتان. وضعت قليلًا من الخمر في كأسها والتهمت ملعقة من صحن الخضار أمامها، وأومأت له أن يتناول شيئًا.

قال:

– لم آتِ هنا كي آكل.

– لماذا أتيت إذن؟

– جئت كي أضاجعك.

ضحكت ورن صوتها العذب في أحشاء يوسف. وقالت:

– لن أضاجعك إلا بعد أن تتجاوز العشرين من عمرك.

أراد أن يخبرها أنه عرف النساء أكثر مما عرفته من رجال، لكنه اكتفى بالصمت، وخفض بصره عنها. كان يشعر أنها تريده أكثر مما يريدها، وبأنها فعلًا ستنفذ قولها فلا تضاجعه إلا بعد بلوغه العشرين.

نهض عن كرسيه، اتجه إليها وقبّلها في فمها، وفي عينيها، فلم تمنعه.

شعر يوسف بأن شفاههما أصبحت واحدة، حملها بذراعيه حتى

أصبح ثدياها قرب رأسه، وعاد يقبّل شفتيها ورقبتها، يكاد يطير من فرط اللذة، ردت رأسها إلى الخلف، وطلبت منه أن ينزلها، ففعل.

غادرت الغرفة فارتدت ثوبا آخر، ثم طلبت منه أن يصحبها خارجًا، فهي تريد أن تستنشق بعض الهواء.

مشت إلى جانبه قرب المبنى حيث يقيم، وسمحت له بأن يمسك يدها، أوصلته إلى مدخل العمارة، نظرت إلى عينيه بجدية مصطنعة وهيام تفضحه كل قطعة من وجهها وجسمها، أخبرته بأن عرضه مغرٍ، لكنها لن تستطيع مضاجعته حاليًا، فقال إنه سيأتي ليقضي يوم العطلة المقبل معها.

هزت رأسها بالرفض، وأخبرته أن عليهما التريث، سجّلت رقم هاتفه وقالت إنها ستتصل به بعد فترة.

قبّلته ساندرا على خده، ثم طلبت منه أن يصعد إلى منزله وعادت أدراجها.

جلست فوق أقرب كرسي إلى الباب، ووضعت رأسها بين يديها. كانت ترتجف من فرط اللذة والخوف، كيف يمكن لقبلة أن تزرع فيها كل تلك الرهبة؟ كيف يمكن لشاب لم يتجاوز العشرين من عمره أن يطوّعها كدمية بين يديه؟ أرادت أن ترهبه بعرضها المغري ذاك، حتى تكسر حاجز خوفها منه، كانت تريده أن يتلعثم ويركع أمام

أنوثتها الطاغية، أن ترى نظرة الشهوة والغريزة الحيوانية تحوّلانه إلى مسخ كبقية الرجال الذين عرفتهم.

جلست تطرح على نفسها أسئلة مختلفة، عبثًا حاولت استرجاع تلك اللحظة بكل تفصيلها علّها تخرج بنتيجة تريحها. لا فائدة.

قبضت على هاتفها، اتصلت بعشيقها تريد أن تخبره بأن يحضر حالًا، علها تستمد منه بعض القوة والصبر، لكنها عوضًا عن ذلك، طلبت منه ألا يخاطبها أبدًا بعد اليوم، وألا يعودها وألا يسأل عنها. وعندما رفض وشرع يهذي كالمجنون، هددته بالشرطة، وبالنقود التي استدانها منها، ثم أخبرته أنها ستسامحه بكل المبالغ التي أعطتها له، على شرط أن ينساها، ثم أقفلت الخط.

في اليوم التالي، كان عشيقها يقرع باب منزلها، يحمل في يده حقيبة، وضعها أمامها، وقال إن فيها كل المبالغ التي كانت أعطتها له، فقد باع على عجل بعضًا من الأصول التي استثمرها، وقال إن بإمكانها أن تحتفظ بالسندات التي تدينه، وبأنها إن كانت لا تريده، فحياته لا معنى لها.

وأضاف: لا أستطيع أن أرى سببًا واحدًا يفرقنا. أنت من أردت إعطائي النقود لبدء مشروعي، أنت من رفضت أن نقترن، أنت من يرفض أن نقيم معًا. أخبريني ماذا جرى؟

– أظنّ أنني مغرمة بشاب صغير.

هز عشيقها رأسه غير مصدق، وعبثًا حاول حثها على قول شيء آخر عن حبيبها الجديد، وكيف التقت به، إلا أنها رفضت الحديث.

هددها بقتلها وقتل نفسه، ثم عاد فشرع يبكي متأسفًا كالأطفال مكررًا أنه من دونها لا يستطيع أن يعيش.

طلبت منه أن يغادر، وألا ينسى حقيبته، أعطته سندات الدين، ثم فتحت له الباب.

كانت تعاني صراع أحاسيس مختلفة، كانت تشعر بالخوف، والنشوة، والسأم، لامت نفسها على رضوخها السهل لذلك الفتى الوقح، لم تكن متأكدة من أن ما تفعله كان منطقيًا، لكنها دفعت على الأقل شبح الخوف من خسارته إلى الأبد، وأوهمت نفسها بأنها ستقرر لاحقًا ماذا هي فاعلة، وكأنها لم تحسم أمرها بعد.

2

وضع يوسف كتبه في غرفته، وصعد إلى منزل مفيد الذي ابتسم حالما رآه، نهض إلى غرفته، وعاد يحمل زجاجة من الويسكي الرخيص مدعيا أنها من أفضل أنواع الشراب، وضع كأسين، صب الويسكي لنفسه، وقليلا في كأس يوسف، قرع كأسيهما.

قال مفيد يرتشف كأسه:

– يُقال إن هنالك لحظات يتوقف عليها مصير شخص لبقية عمره، ويقالُ أيضًا إن بعض الأحداث تغير شخصًا ما إلى الأبد، لكن الأشخاص أبدًا لا يخترعون شيئا جديد في حياتهم، إنما ينقلون ويسرقون من بعضهم بعضًا، ويطوّرون ما خبروه من سابقيهم ومعاصريهم إلى الأفضل، وذلك لأن حياة المرء القصيرة لا تساعده على اكتشاف أي شيء جديد، وإنما تسمح له بإضافة قطرة للإناء، إلى أن ينضح في زمان أحد سعداء الحظ الذي يتفق البلهاء من بني البشر على دعوته "المكتشف" أو المخترع.

وهذا كله هراء، فإنما يبدأ التلميذ من حيث توقف أستاذه، ولهذا فالتلميذ الأعظم شأنًا من يحوز لحظة النضوح تلك.

سأله يوسف مداعبًا عن الأوائل الذين اخترعوا الفندق ووسائل النقل العام، والبريد، والمسرح، والبنوك، الذين كانوا سبّاقين إلى اختراع أمور لم تعرفها البشرية من قبل.

قال مفيد:

– بسيطة، هذا سهل، عليك أن تعرف من اخترع الشجاعة، والنفاق والكذب، والاحتيال، والفهلوة، فتعرف وجوه الأوائل أولئك.

وأضاف:

الحقيقة يا صديقي كالمرأة رائعة الجمال، تكتشف ولا تقال. إنما المهم في حياة كل إنسان هو تلك اللحظة التي يتغير فيها مصيره مرة واحدة وإلى الأبد.

سيتذكر يوسف تلك الكلمات فيما بعد، وسيدرك أن صباح الأربعاء 1 مارس 2006 حين رأته فاتن ممسكا بيد ساندرا، كان ذلك اليوم الذي تحولت فيه حياة 4 أشخاص مرة واحدة وإلى الأبد، أو كما يدعي مفيد "كان الإناء طافحًا ومهيأً لتلك القطرة الأخيرة من الماء".

عندما دخل المنزل ذلك اليوم لم يستطع تمييز وجه فاتن، شعر بأنه ينظر إلى فتاة أخرى تشبهها، "رباه كم تغيرت تفاصيل وجهها".

كان جسدها يرتعش قليلًا، نظر إلى عينيها فرآها تحدق كالثمل. كان مصيرها أشد بؤسًا من عشيق ساندرا.

صعقت عندما رأته ممسكا بيدها، وذلك النور الذي يصدر عن العاشقين الذي لا يمكن لعين الأنثى أن تخطئه مهما حاولت نكرانه.

وضعت يديها على فمها، وحاولت أن تخفي وجهها عن الناس من حولها كأنها تحاول تحاشي نظراتهم إلى أشلاء مضرّجة بالدماء.

شعرت بأنها ورقة شجر عارية، تتراجع دون أن تنظر وراءها، فاصطدمت برجل وكادت أن تطيحه أرضًا.

صرخ بها:

– ما بك؟ مجنونة؟

"لست مجنونة، ويا ليتني كنت كذلك".

شعرت فاتن بأن نفسها غاص عميقًا فلم تخرج كلماتها، حاولت أن تصرخ... لا شيء.

تمتم الرجل ببعض الكلام ووصفها بالتافهة، ثم تابع سيره.

كانت فاتن تستطيع أن تغض النظر عن الفتيات السخيفات في مدرسته اللواتي لا يستطعن تقديم "باكج" كاملة ليوسف وشيئه، لكن ساندرا ساحرة الجمال، كانت سقطة لن تستطيع غفرانها.

شرعت تتساءل عن سر الحياة الحقيرة، التي يُجبر البشر على عيشها رغمًا عنهم في أي مكان يهربون إليه.

استجمعت كل قواها، فكرت بأنه شاب تافه ككل من ضاجعتهم قبله، وبأنها تعيش بين شعب ملدوغ ومسمم، كل الأطفال يكبرون ليصبحوا أولاد قحبة، ويوسف لن يكون استثناء

سريعا ستغادر فاتن منزلها، وسيعتزل يوسف مطاردة النساء، رغم مناجاة الملكة له، ووعودها المعسولة، وتهديداتها المبطنة وأخبار الاهتمام الخاص لسيدتها ليلى بملف يوسف.

3

كانت الشقة خالية إلا من حليمة، تجلس نصف نائمة أمام النافذة المطلة على الطريق، فكر يوسف ربما كانت الأسماء مرتبطة بمصير أصحابها، فالجدة حليمة كانت صبورًا إلى درجة لا توصف، قلّما رآها تفزّع أحدًا أو تعاتبه، وعلى الرغم من مرض الروماتيزم الذي أعيا حركتها وجعلها شبه سجينة في منزلها، فإنه لم يشاهدها تشتكي ولو مرة.

وعلى الرغم من إحساسها بأن علاقة جمعته مع ابنتها، فإنها اعتادت مسامحة الآخرين، وغفران سوء تصرفاتهم، فهي وإن لم تكن شغوفة بالجنس في صباها، فقد أدركت أن الكثير من البشر لا يمتلكون صبرها أو قدرتها على كتمان المشاعر.

تساءل يوسف كيف كانت تبدو في شبابها؟ وهل عرفت رجلًا غير زوجها؟ هل أحبّت أحدًا غيره؟

حاول أكثر من مرة أن يسألها، إلا أنه كان يؤثر أخيرا ألا يخوض في ماضٍ ليس من حقه.

كانت حليمة هنا، وكانت ترعاه وتحبه، وزاد تعلقها به بعد رحيل ابنتها، لقد مضت شهور على رحيلها الآن، رحل أولادها وبقيَ يوسف، فغدت تشمله بمحبة أولادها مجتمعة.

اقترب منها، فاستيقظت، وسألته:

– جائع يا حبيبي؟

– لا لست كذلك، هيا كي أضعكِ في سريرك، ستشعرين براحة أكبر.

كررت حليمة رغبتها في تحضير طعام ليوسف. وقالت:

– سأقوم بتسخين بعض حساء الخضار، أعددته اليوم لكنك لم تتذوقه.

– حسنا. سأتذوقه غدا، لست جائعا يا نانا، هيا إلى فراشك الدافئ.

ساعدها يوسف في النهوض، ثم دثّرها في فراشها، مال برأسه إلى حليمة فقبّلته، وشكرته.

تمنى لها ليلة هانئة وذهب إلى غرفته.

وضع ساعته إلى جانب السرير، ثم خلع ثيابه ووقف ينظر من الشباك إلى شقة ساندرا، خرجت منه تنهيدة لا إرادية، كان يشعر أن عليه نسيانها بسرعة، جزء منه يخبره أن عليه أن يحذرها كي لا تدمره، كيف أمكنها أن ترفضه؟

لقد مضى على لقائهما السريالي مدة، ها قد انتهت امتحانات الثانوية، وساندرا لم تعاود الاتصال به، ولم يعد يلمحها عارية في شرفتها، ماذا جرى لها؟ هل غادرت؟

تذكر يوسف أنه لمحها قبل بداية امتحانه تهرول كالملسوعة خارجة من عمارتها، مرتدية ثيابًا فضفاضة وقبعة سوداء قاتمة تخفي معظم تفاصيل وجهها، كان ذلك خلال بداية امتحاناته، أي أول الشهر تمامًا، واستنتج أنها ربما تغادر منزلها بداية كل شهر فقط.

كان يفصله يومان على نهاية الشهر، بعد قليل حسم أمره، سيقضي نهاره أمام منزلها بعد غد.

"سأنتظرها. نعم"، قال لنفسه، وأقسم أنه لن يضاجع أية امرأة قبل أن ينال ساندرا في الفراش.

4

قليلٌ من الموسيقى بعض الخمر

خرجت ساندرا من منزلها تقصد المصرف لسحب النقود، وشراء بعض الأغراض التي كانت بحاجتها.

لم يمهلها يوسف كثيرًا من الوقت، فجأة أصبح يسد الطريق أمامها.

– صباح الخير.

لم تجاوبه، فتابع:

– إذا كنت غير قادرة على مضاجعتي، فذلك أمر تفوّتينه على نفسك، ولكني لن أستطيع التوقف عن التفكير بك، أريد أن أراك، أريد أن أحدثك عني، وأسمعك تتحدثين عن نفسك.

– أنت لا تيأس، أليس كذلك؟

– ليست تلك قضيتي.

– ما هي؟

أجاب فيما يشبه الاستحياء بأنه يريد أن يراها لشرب القهوة، أو للغداء، أي شيء، المهم أن يتحدث إليها.

– يبدو أنك تراقبني منذ مدة.

صمتت لوهلة، ثم نظرت إلى عينيه مباشرة وأخبرته، أنه يستطيع زيارتها في أول يوم عطلة، من الشهر المقبل.

صمت يوسف وبدا ضيقه. قالت:

– حسنا، هذا ما عندي.

تنهّد يوسف، وأخبرها بأنه سيجاريها مؤقتًا. أمسك يدها بكلتا يديه، وقبّلها.

قالت له إنها ستنتظره، وتابعت طريقها ترافقها سعادة المنتصرين.

عاد يوسف سريعًا إلى منزله، وضع بعض الموسيقى، وألقى بنفسه على السرير.

***

أصبح الجو حارًا جدًا، وكأن الصيف كان يحاول إثبات رجولته السلفة، نهض يوسف يفتح شباك غرفته، فسمع حليمة تطلب منه التحدث في الهاتف، كان صوت الملكة الرفيع والحاد على الطرف الأخر. قالت:

– أريد البشارة؟

– أهلا

– مبروك

– شكرًا

– ألا تريد أن تعرف لماذا أبارك لك؟

لم يجبها، أدركت سعاد من صوته أنه لم يكن في مزاج طيب، قالت له إنه نجح في امتحان الثانوية، وحصل على مجموع ممتاز يؤهله لدخول كلية الطب، وأن النتائج لن تظهر قبل يوم غد، لكنها طلبت من أصحاب الوصيفة بتول أن تطلع على ملفه، لأنه شاب مؤدب، ويتدّر المعروف.

وعبثًا حاولت دعوته إلى منزل السيدة، إلا أن ذلك كان آخر ما يفكر فيه. قالت:

– هل تظن أن الجميع قادر على دخول منزل السيدة؟ إنه منزل حرم، يدخله أسياد الدولة فقط.

– أرجوك يا سعاد. قلت لك إنني لا أنتمي إلى تلك الطبقة، لا أعرف سبلها، وليست لي طاقة بها. أنا لست سلعة كي أسوّق في بيوتكم، أنا ابن عائلة بسيطة، أبتعد عن الأشياء والأمور المعقدة. لا أفهم تلك التجمعات، ولا أريد أن اقترب منها، وأرجو أن تحترمي رغبتي.

أخبرته سعاد أن تخلّفه الاجتماعي يحزنها، وقالت إنها على الرغم من ذلك ستبقي هاتفها مفتوحا من أجله، وإنه يمكنه الاتصال بها لطلب أية خدمة يريدها.

شكرها، وأغلق الهاتف، ثم اتجه إلى النافذة المطلة على شرفة ساندرا.

شعر بأنه لا يستطيع الجلوس أكثر في هذه الغرفة التي أصبحت ضيقة جدًا، نظر إلى ساعته كانت تشير إلى السابعة مساءً. هرول إليه علّه يخرجه من حالة توتر يعانيه لأول مرة في حياته.

كان صوت محمد خيري يصدح داخل المنزل، وهذا يعني أنه في مزاج طيب. استقبله مفيد كعادته بابتسامة تملأ شدقيه، قال مخاطبًا يوسف:

– كم أحب هذا الرجل.

– أعرف.

شرح مفيد بأن الأخير مات على طاولة الشراب في أحد المطاعم الفقيرة في حلب، وبأنه قد لا يكون أقوى الأصوات الحلبية إلا أنه أكثرها إحساسا وإنسانية، وبأنه الفنان السوري الأكثر صدقا وقربا من مبادئه، ولهذا رحل مبكرا، فهذا البلد لا يحب الشرفاء، زفر بشكل استعراضي، شوّح بيده اليمنى كما يفعل مغنو حلب وشرع يردد مع خيري:

فوق الشفايف عسل

نقط على إيديا

كشفت على صدرها

وقالت تعال تفرج

شباك تاجر فتح

يا نضر عينا

خطى يوسف بشكل تلقائي إلى النافذة، أدرك مفيد أنه لا يصغي، وبأن شيئا ما يقلقه.

– اجلس، اجلس. هل تبيع أستاذك لأجل "قردة طيز"؟ كنت تضاجع نصف فتيات المحافظة، وكنت أستطيع أن أراك على

الرغم من ذلك. ماذا جرى لك؟ هل وسّعت نشاطك؟ وصلت إلى العالمية؟ وصلت إلى العالمية!

ابتسم يوسف، ولم يقل شيئًا. قال مفيد:

– عليك أن تستغل فترة وجودي على كوكب الأرض، فتنهل من معرفتي وخبرتي الطويلتين. أنت لا تعرف متى تستيقظ صباحًا فلا تجدني.

بدأ مفيد لتوّه تناوُل الكحول، وهذا يعني أن أمامه ساعتين قبل أن يفقد وعيه تماما.

لم يجب يوسف، وهذا كان علامة على عدم رضاه، أحب أستاذه مفيد كثيرًا، وكان الأخير يعبده ويشتاق إليه فعلًا، وكان يعتبره ابنًا له، وعندما يمر يومان أو ثلاثة دون أن يراه، يشعر بخيبة مفضوحة ينقلها معه إلى طلابه في المدرسة وكل من يصادفه في يومه، أدرك يوسف أن أستاذه مفيد يحتاجه ويحبه، واحترم ذلك.

وضع مفيد رجلًا على رجل، رجع إلى الخلف، وقال بصوت أقرب إلى الغرور:

– هل تعرف كيف نشأ علم الفلك؟ بالتأكيد لا تعرف، لا أحد يعرف غيري، وأنا سأخبرك هذا السر الخطير يا أبو "زبّورة"، لأنك شاب نبيه، وقد تستفيد مما أقوله لك يومًا ما، أنت شاب سيكون

له شأن عظيم، وأنا أعول عليك في أن تنقل الإرث الثقافي هذا إلى الأجيال القادمة.

رشف مفيد قليلًا من الكأس أمامه، وعاد فاعتدل في جلسته.

– حسنا، قبل 10 آلاف سنة أصيب رجل طيب بالأرق، ولهذا قضى لياليه في العراء ضيق الخلق يتأفف، طبعًا، قبل 10 آلاف سنة لم تكن هناك كهرباء، ولا أنوار شوارع، ولم تكن هناك سجائر ولا كحول، فعمد هذا الرجل إلى فعل الشيء الوحيد المتاح آنذاك، وهو مراقبة النجوم.

توقف الأستاذ ليترع رشفة من الكأس أمامه. وتابع.

– بعد 3 سنوات لاحظ هذا الرجل أن بعض النجوم لا تغير أماكنها، فقام ورسم تلك النجوم على حائط بالقرب من المغارة، حيث كان يسكن.

ابتسم يوسف واعتدل في جلسته ينظر إلى أستاذه بعين نصف مغلقة.

– ثم؟

– ثم استطاع رصد كوكب الزهرة لأنه كان الأكثر ألقًا، وبعض المجموعات النجمية الساطعة، بعد بضع سنوات أخرى أصبح خبيرًا جدًا في الاتجاهات التي استدل عليها من خلال النجوم،

فعمد يسافر ليلًا مسافات طويلة، فيحصل على ثمار وصيد من أماكن بعيدة ويعود بها إلى قومه. كان يستطيع الصيد في أماكن بعيدة والعودة بعد عدة أسابيع مستدلًا بنجوم السماء، فأعجب به قومه كثيرًا وخاصة النسوة اللواتي رأين فيه رجلًا مرزوقًا ومهابًا يستطيع أن يقيهن وأولادهن من الجوع، ذكرًا يستطيع وضع الطعام على الطاولة، فضاجع منهن الكثير وأنجب الكثير، ثم أورث خبرته أولاده، الذين أورثوها أولادهم، وهلم جرا حتى أصبحت لعلم الفلك قواعد وأصول، حتى إن بعض القبائل أصبحت تعبد بعض تلك النجوم، وتطلب رضاها في الأزمات وتقدم لها القرابين، أي أن البشر قد يكونون بدأوا عبادة النجوم قبل الشمس والقمر، فكلاهما غامض وبدهي ولا يتغير، فأهم ما في الآلهة هو الغموض والأساطير، آه؟

– من أخبرك بهذه القصة؟

– آه. أنا؟ أخبروني؟ هل تعاني مشكلة في رأسك يا غلام؟

رشف الأستاذ رشفتين سريعتين من كأسه، ثم عاد يعاتب يوسف.

– أنا لا يُقال لي، أنا أقول ويردد الخلق من بعدي.

– سامح سهوي.

– لا بأس، أسامحك، يجب عليّ أن أخبرك كيف تم اختراع الخمر. آه، الخمر؟

بعد ساعتين من حديث بلا توقف، بدأ الأستاذ يترنح تحت وطأة الخمر الرخيص، وشربه المتسارع.

حمله يوسف إلى غرفته، دثّره، وغادر.

5

اللـه هناك.. إلى يسار العالم

نشأ مفيد في قرية بدوية شمال سوريا قريبة من الحدود العراقية، كان متفوقًا في دراسته كإخوته، أنهى دراسته الثانوية بدرجات مرتفعة أهّلته لدراسة الطب في العاصمة.

قبل أن يغادر منزله، قالت له والدته الأمية: إن الحياة لا يجب أن تجعل الإنسان أنانيًا وإلا قتلته قبل أن تفارق روْحه جسده. أوصته بأن يكون حليمًا مع من هم دونه مرتبة، وحذّرته من الغرور، وقالت إن أفضل ما يقدمه لعائلته هو الحب، لا المال.

وأضافت:

– من يفقد أصله يصبح والحذاء بنفس القيمة، ومن ينكر أصله المتواضع لا يستوجب الاحترام. إن أكثر البشر أهمية هم أولئك

الأشخاص المكافحون الذين يعظمون دون أن يكونوا قد ولدوا بملعقة ذهب، أولئك المصطفون ممن لا يبررون فشلهم، بل يستمرون في المحاولة حتى ينجحوا في تحقيق ما يصبون إليه.

قبّلته وأعطته صرة فيها بعض الأطعمة، عانقته طويلًا ودعت له بأن يوفقه اللـه أينما أدار وجهه.

***

في العاصمة الكبيرة التي تلتهم كل وجوه البشر، سكن مفيد ضمن الحرم الجامعي مع 6 طلاب في غرفة واحدة، واستطاع بسرعة تكوين الكثير من الأصدقاء، وكذلك عدد محترما من الأعداء، انهمك في الشأن السياسي كحال أخيه، وكان بتأثير من نشأته يساري الهوى والفكر.

كان الزمن منتصف الثمانينيات من القرن العشرين، والنظام خرج لتوّه من تهديد الإخوان المسلمين منتصرًا فأصبح أكثر ثقة وبطشًا، وشرع الأمن السياسي يلقي القبض على طويلي اللحى الدينية والثورية على حد السواء، كان من بينهم أخوه، الأمر الذي شكل وطأة ثقيلة على أعصابه، ووضعه في حالة نفسية سيئة، خاصة بعد أن أُرسل إلى سجن تدمر البشع، ما يعني إما أنه سيقتل في السجن أو يخرج منه مدمرًا نفسيًا.

أصبحت والدته تصلي بلا انقطاع، وتصوم معظم أيام السنة عن أخيه الملحد، لم تظهر أي ضعف أو تردد، وكانت تقول له إن أخاه بأمان، وعليه ألا يقلق بشأن شيء سوى دراسته.

***

قبل إكمال سنته الجامعية الثانية أواخر الثمانينيات، جلس مفيد مع مجموعة من زملائه يحتفلون بخروج أحدهم من سجن بعد اعتقال دام أسابيع قليلة.

بعد الكأس السادسة من العرق الثقيل، بدأت ذكرى أخيه السجين أقل سوءًا، وتخيله يخرج بعد فترة قصيرة ليقود حزبًا وطنيًا يحقق أحلام الشعب ويعيد للدنيا صوابها، شعر مفيد بأنه أخف وزنًا، نظر خلفه فرأى جناحين قد نبتا في ظهره، وقف على قدميه. وقال:

– الزجاجة فارغة وأنا مستعد للطيران.

ضحك أصحابه وسأله مازن الذي خرج توا من السجن وكان سبب الاحتفال:

– إلى أين ستطير؟ إلى الجنة، إن كنت تفعل فخذنا فرادى.

تابع مفيد دون أن يفقد وجهه الجدية.

– سأطير إلى وطني.

– أي خازوق فيهم؟ سأله آخر وشرع الجميع بالضحك.

– وطني. وطني يا رجل

وطني هناك. 600 كيلومتر شمال العاصمة الشرموطة، بعيدًا عن مكان عملي وجامعتي. وطني هناك، إلى يسار العالم.

تنبه مفيد إلى عدد الجمع الكبير، يمكن لأي واش أن يندس بينهم دون أن يعرض نفسه للكشف، وتذكر أن عليه أن يمر ببيت ظافر وهبي عميد كلية الاقتصاد، فقرر الاختصار في الحديث والتوقف عن الشرب، بعد قليل من الوقت عادت ذكرى أخيه تنهش صدره.

حمل نفسه مجبرًا، قبّل مازن مودّعًا، ثم غادر يقصد منزل ظافر.

كل شيء في الحارة يوحي بأن الأمور على ما يرام، الباعة في أماكنهم، والمحال التجارية تستقبل زبائنها، هدأ خوفه، عاد فنظر إلى كتفيه، كانا وحيدين من دون أجنحة هذه المرة.

كان المبنى الذي يقيم فيه ظافر مكونًا من دورين فقط، وآخر تحت الأرض، ورثه ظافر عن أبيه الإقطاعي ذي الأصول الكردية.

قرع الباب مطولًا قبل أن يلقى ردًا، وبعد بضع دقائق بدت دهرًا وقبل أن يعود أدراجه فتح الباب إلى نصف اتساعه، امتدت ذراع أنثوية ناعمة وجذبته إلى الداخل.

كان جمال الفتاة صادمًا أوجع قلب مفيد من توّه، أشارت له بإصبعها كي يصمت وأن يتبعها ففعل، دخلت بابًا صغيرًا يفضي إلى سلم فيه 6 درجات تقود إلى أسفل، أغلقت الباب وراءها وقالت بوجه صارم.

– أنا اسمي دعد، كنت أنتظرك، طلب مني الأستاذ ظافر أن أصحب الحضور إلى القبو أسفل المنزل تحسبًا لأية مداهمة، الجميع موجودون. لمَ تأخرت؟

شعر بأنه سيتلعثم لو فتح فمه، ففضّل الصمت والنظر إلى عينيها الساحرتين.

لم تنتظر رده، شرعت تخطو بسرعة إلى مكان الاجتماع، فتبعها يكتم صراخه ألمًا.

كانت في العشرين من عمرها، بشرتها بيضاء ناعمة، عيناها بنيتان، وشعرها أسود منسدلًا على كتفيها كشال من الحرير، معتدلة الطول، ولم تكن تمتلك تلك الشفتين المكتنزتين أو الأرداف المستديرة، إلا أنها كانت لمفيد أجمل فتاة رآها في حياته.

***

وقف الأستاذ ظافر بين مجموعة مكونة من نحو عشرين شخصًا، معظمهم من الشباب، كانوا يجلسون متفرقين في مستودع منزله

الرطب، يستمعون باهتمام إلى ظافر الذي كعادته يتحدث بشغف، ويعصر الهواء مرارًا فيرفع يديه ويحرك أطرافه ويرفع جذعه ورأسه وكأنه يتحدث بكامل جسده، وكأن الحروف تخرج من أصابعه.

نظر إلى مفيد. وقال على عجل:

– لقد بدأنا لتوّنا، اجلب ورقة وقلمًا، ستكون أمين السر، سجّل المحضر، سأعرّفك إلى بعض الزملاء ما إن ننتهي، من الأفضل ألا يعرف أحدنا الآخر، فقط من يحتاج إلى ذلك. تابع ظافر:

– من حقنا أن نعيش في دولة ممأسسة، دولة يخاف رئيسها من الشعب ويُنتخبُ من الشعب، لا جزار يحكمهم كالعبيد، لا لدولة طائفية، لا لدولة استبدادية، لا لنظام ابن قحبة يقتل شباب البلد ويزج خيرتهم خلف القضبان، ويهجر عقولها وعمالها وتجارها.

جلس ظافر كمن أنهكه الوقوف، جعل ظهره على شكل زاوية حادة مع جذعه، شرع يتحدث عن الفساد والعرف الاجتماعي المريض في البلد، وبأن الطامة الكبرى هي فساد القيم لدى الشعب السوري، وفقدانه للبوصلة الأخلاقية، حيث أصبح رجل المخابرات والمدير المالي والمفتش الفاسد أشخاصًا ذوي نفوذ يطلب الناس ودهم ويحسدونهم على ما هم فيه، وبأن المصيبة الكبرى هي تحول أحلام الشباب إلى جهة السلطة، وإيجاد السبل الكفيلة بجعلهم ضابطًا في الشرطة أو الجيش حتى يهينوا قومهم ويعذبوهم، ويسرقوا

نقودهم، وعندما يدفع الشرطي كل مدخراته حتى يضمن انتقالًا إلى نقطة حدودية فيثري من التهريب والرشوة.

عصر الهواء بيده اليسرى وهزّها بقوة. وقال بصوت أكثر هدوءًا:

– المشكلة يا إخوان ليست في نظام الأسد، فكل شيء ينجح بسبب حاجة ما، وظروف خارجية محيطة مناسبة، وهو ما توفر للنظام الفاشستي الطائفي، فمكنه من الوصول إلى حكم الدولة، لكن المصيبة كانت بقاءه أكثر من اللازم. كان لزامًا على هذا النظام الطائفي وزبانيته أن تكشف عورة الاستبداد واستعباد الناس والطائفية المقيتة، فيهرع الناس إلى نظام مختلف عنه كليًا، تمامًا كما يجعلنا الصوت القميء في شوق إلى الجيد منه حتى نحتفي به ونقدره.

أي حقد خبأته الطبيعة ضد سوريا فمدت في عهر هذا النظام كل هذه السنين؟ وأضاف وصوته يخفت:

– لا، أيها الإخوة، ليس هذا وطني، وليست هذه مدينتي.

كان معظم الحاضرين يثقون بظافر، فهم يعرفون بأسه، وقدرته على التضحية من أجل الآخرين والمستضعفين، وتفانيه في حل مشاكل من يلجأ إليه لطلب المساعدة، وكانوا يحترمونه، لكن تلك العظة الأخيرة كانت مختلفة بنبرتها وحدتها.

في زاوية القبو الصغير قليل الإضاءة، لمح مفيد وجها يعرفه، دقق النظر في تقاطيع وجه، فرافقه شعور بعدم الارتياح حتى قطع حبل أفكاره ظافر يسأله أن يعطيه محضر الاجتماع على أن يحرره هو ويحوله إلى منشور ينسخه، ثم تقسم المجموعة إلى فرق تقوم بتوزيع المنشور في أحياء العاصمة الشمالية، حيث العشوائيات والطبقة المهمشة والأفقر في المدينة، ثم أعلن انتهاء الاجتماع.

اقترب الوجه المريب نحو مفيد وصافحه، لم يكن سوى مازن مطر، طالب كلية الصحافة الذي خرج مفيد قبل ساعتين من منزله، صافحه مفيد وسأله كيف أمكنه أن يسبقه إلى هنا، فقد غادر قبله.

ضحك وقال إنه لم يأت للسياسة، فقد تاب عنها في السجن، وغمز يشير إلى الفتيات الجميلات من حوله. وأضاف أنه لم يميز وجهه في القبو، فالإضاءة ليست قوية كما يجب، وأحب أن يتأكد من أنه مفيد لا شخص آخر، هناه، فقلة من الأشخاص تحظى بشرف نيل ثقة ظافر، ثم صافحه مرة أخرى وودّعه على أمل اللقاء القريب، نظر مرة أخرى إلى حيث كانت الفتاة الجميلة. وخرج.

بقي مفيد رفقة ظافر والفتاة، جلس يكتب النقاط الأساسية في الجلسة وتلك التي أشار إليها الرفاق، عادت الفتاة تحمل صينية قهوة، وضعت أمام كل منهما فنجانًا وجلست تراقب كصاحب شركة بين مرؤوسيه، شرع مفيد يكتب ويراقب الفتاة بطرف دماغه، بعد

نحو ساعة انتهى تحرير المنشور، فناداها ظافر كي تقرأه بصيغته النهائية.

قالت إنه جيد جدًا، ثم نهضت إلى آلة طباعة عتيقة، رصّت الأحرف فوق بعضها بعضًا، وطلبت من مفيد أن يساعدها في الطباعة، كانت تتكلم بمواضيع شتى في ذات الوقت الذي كانت فيه تصف الحروف بدقة عالية، فكر مفيد لوهلة أن ينساها فورًا، فهي مجرد فتاة جميلة جدًا ولن ترضى أبدًا بشخص متواضع الأفكار والشكل مثله كصديق حميم.

أخبرته بأنها طالبة في كلية التجارة، تكره الرئيس والأطباء والمحامين، فكلهم يتمنون حدوث المصائب للناس حتى يصيبوا منفعتهم الشخصية. قالت:

– هل رأيت رئيسا في العالم يطمئن شعبه ويحاول إسعاده؟ إنه يعلم تماما أنه بحاجة إلى خوف رعيته حتى يبقى في منصبه، إنه يعتاش على بؤسهم، ثم شرعت تتكلم عن أهمية العمل وعدم إضاعة الوقت حتى تنهض الشعوب من سباتها، فكل عمل هو خطوة إلى الأمام.

شرعت تتحدث ومفيد يجد صعوبة كبيرة في فهم ما تقول أو استيعابه، كان جمالها ورقة شفتيها يأكلان قلبه ويحولانه إلى آلة أكثر منه رجلًا.

في حدود الساعة الرابعة فجرا، كان لديهم 2000 منشور. قسموها إلى 10 أقسام، دفنوا 7 منها في القبو، وحمل كل منهما جزءًا من 200 منشور.

قال ظافر إنه يحضر للمشاركة في مظاهرة لنقابة المحامين نهاية السنة الجامعية، طلب من كل منهما أن يحتفظ بتلك المنشورات في مكان آمن حتى حينه، حيث سيوزعانها في المظاهرة، أما المنشورات الباقية فسيرسلها إلى العشوائيات مع بعض الرفاق الموثوقين، صافحه مفيد وغادر ترافقه دعد.

في طريق العودة، طلبت منه دعد الصعود إلى منزلها فهي تقيم بمفردها، وبما أن ظافر يثق به فهي أيضًا تثق به.

كان منزلها مرتبًا وفاخرًا، وتبين أنها ابنة صناعي حلبي فاحش الثراء، وهي آتت للدراسة في العاصمة هربًا من صيت والدها المقيت وأفكاره المقولبة والجاهزة عن البشر.

سألته إن كان يريد شرب شيء ما، توقع أن تعرض عليه شايا أو قهوة، لكنها عوضًا عن ذلك قالت إن لديها فودكا.

شرعت تحضر بعض المازا، وتتكلم عن سوء والدها وكرهها له. قالت:

– عوضًا عن أن يستأجر لي منزلًا قام بشرائه، يظن أنه سيزوّجني

بعد انتهاء الجامعة، وأنا أظن أنني سأضاجع نصف طلاب كلية التجارة والإدارة قبل أن أنهي دراستي.

وبصوت أكثر جدية قالت:

– وربما أحد طلاب كلية الطب أيضًا.

نظرت إليه تسأله إن كان يرغب في مضاجعتها.

لم يصدق مفيد أنها فعلًا تود مضاجعته، ظن أنها تريده أن يبقى معها كي يكسر وحدتها.

مفيد الذي كان ملتاعًا من جمالها، وأصلها البرجوازي المتمرد، كان محتارًا في أمرها، أضف إلى ذلك أن سحرها وقوة شخصيتها المفرطة جعلا ثقته بنفسه بحدود الصفر، كان متأكدا من أنها قالت شيئا آخر مختلفًا، لكن لكثرة ما يشتهيها فهمه بطريقته، عادت فكررت سؤالها.

نظر مفيد بشكل لا إرادي خلفه ليرى مع من تتحدث، عندما نظر إليها كانت تضحك ملء قلبها.

اقتربت منه قبّلته ولعقت لسانه، ثم طلبت منه أن يشرب قليلًا من كأس الفودكا الموضوعة أمامه، فشربه دفعة واحدة.

استيقظ في الصباح على صداع مدوٍّ، نظر إلى الساعة كانت الواحدة ظهرا، لم يكن ليلحق حصصه، بعد قليل عندما شاهد دعد

عارية إلى جانبه تأكد من أنه يحلم، حاول إيقاظها فقالت إنه يستطيع أن يضاجع والدها وظافر معًا لكنها لن تنهض من سريرها الآن.

هرول إلى الحمام نظر إلى وجهه في المرآة، هل هذا معقول؟ عاد يسألها كيف يستطيع الخروج من هذا الحلم. عادت تضحك من جديد.

بدأ يسترجع أحداث الليلة الماضية تدريجيًا.

قالت له إنها تحب بساطته وبراءته، وإنها تريد أن ترى المزيد منه.

سألها إن كانت تبحث عن عشيق أم رفيق، قالت إنها تبحث عن الاثنين، وطلبت منه ألا يطرح كثيرًا من الأسئلة إذا أرادها أن تبقى بقربه.

قال لها إن لديه سؤالًا واحدًا فقط.

– ما هو؟

– هل توافقين على الزواج بي؟

راقبها مفيد مدة ٥ دقائق تضحك دون توقف، وعندما لم يهتز لهُ جفن أدركت أنه كان جادًا، فوافقت.

ستغدو دعد قضية مفيد المقدسة وجنته الحالمة، سيستمد منها

الفصل الخامس

الأعور

كما أخبرته الملكة، نجح بامتياز أهّله دخول كلية الطب، عاد إلى منزل الجدة يخبرها فانهمرت دموعها وعاجلته بالقبل والزغاريد. كان مفيد ينتظر متوترًا، وعندما تناهت إلى سمعه زغاريد الجدة، هرع إلى منزلها، لم يدرك أنه كان يبكي إلا عندما أعطاه يوسف محرمة ليمسح خديه، عانقه كثيرا، وأجبر الجدة على شرب بعض الكحول الذي وصفه بأنه أغلى شيء اشتراه في حياته، غنى كثيرًا ورقص حتى نام على الأريكة إلى جانب الجدة.

لم يشعر يوسف بالإثارة على الرغم من نجاحه بتفوق، غادر في اليوم التالي إلى قريته كمن يغادر إلى سجن انفرادي، استقبلته والدته بدموع غزيرة، وكذلك وبشكل مفاجئ فعل والده فأسقط دمعتين فشل في كبتهما.

عندما علمت نادية بأن يوسف في القرية، ابتاعت عُقد ذهب هدية وهمّت تقصد منزله.

عرف يوسف بقدومها من صوتها العالي، بعد قليل جاءت والدته تطلب منه إلقاء التحية. نظرت إليه تترجّاه. قالت:

– تريد أن تبارك لك نجاحك، اشكرها فقط على هديتها ثم غادر.

كانت نادية تتحدث كالعادة عن بطولات العماد علي بندر، رئيس شعبة المخابرات العسكرية أحد أقوى الأجهزة الأمنية في البلد، كانت تقول بزهو واضح، إنه زارها في منزلها قبل عدة أشهر مع زوجته وابنته الجميلة سارة، وبأنه تعرض قبل مدة لعملية اغتيال فاشلة نفذها بعض المجرمين الكلاب أفقدته بعض أصابعه وعينه اليسرى التي غطاها بنظارة سوداء زادته هيبة ورجولة.

– قلتُ له، سيادة العماد، نحن من يجب أن نزورك ونطمئن عليك، لكنني دوما كنت أعلم أن سيادتكم أكبر من هؤلاء السفلة المخربين، وأنا أرثي حالهم الآن. وعندها ضحك وأخبرني أنهم وأهاليهم يتمنون الموت دون أن يجدوه. كم أثلج قلبي كلامه، هذا الرجل جبل. جبل كبير يحمل هذه الأمة على كتفيه.

نهضت عندما رأت يوسف فاتحة ذراعيها، ثم قبّلته ملء شفتيها

على خديه ورقبته. اقتربت بجسدها منه بطريقة أزعجته، ثم ألبسته العقد الذي ابتاعته. قالت بأن العقد تنقصه خرزة زرقاء تركتها في منزلها، وطلبت منه الذهاب معها حتى تعطيه إياها، وعندما حاول يوسف أن يعتذر لضيق وقته نظرت إليه بغضب. تدخلت والدته تدفعه للذهاب معها، ومن ثم العودة بسرعة لترتيب أغراضه استعدادا للسفر.

نظر يوسف إلى والدته كمن يقول "حتى أنت؟"، تجاهلت نظراته، كانت تريد التخلص من هذا الضيف الثقيل بأقل الخسائر. فنادية ستتذمر لبقية حياتها إن رفض يوسف، وقد تؤذيه وأسرته لو هو تردد في ذلك.

***

قدمت نادية مع زوجها وأولادها الثلاثة لتقيم في القرية قبل 10 أعوام، عاشت مرهوبة الجانب بين قوم مسالمين لم يخطر ببالهم أنهم قادرون على اتقاء شرها إلا بالابتعاد عن دربها وإكرام وفادتها لدى زيارتها منازلهم. كانت معتدلة البنية وقصيرة في منتصف الأربعين من عمرها، ميّزتها تسريحة شعر قصيرة وكحل سميك ومكياج كامل لا يفارق وجهها. كانت تشتم وتطلق أقذع الأوصاف بلا حياء كالرجال، تهدد وتتوعد كل من يقلق راحتها أو يتطاول عليها بكلمة لا تعجبها.

كان يوسف يحتقر نادية ويكره أفراد أسرتها، فقد تسببت في سجن أحد أصدقائه مستخدمة نفوذها وعلاقتها المشبوهة برئيس المخابرات العسكرية علي بندر، الذي يتناقل أهل القرية أخبارا تفيد أنه يقيم علاقة جنسية مع ابنتها البكر وبتشجيع من والدتها.

أمسكت نادية ساعد يوسف طوال الطريق إلى منزلها، شرعت تحدثه عن أهمية ارتداء الواقي الذكري قبل مضاجعة أي فتاة مهما كانت جميلة أو نظيفة، فشاب بمثل هيبته وجماله عليه أن يصون جسده سليما وخاصة في أمور الجنس، حيث تكثر الأمراض المختلفة.

عندما وصلا كانت ابنتها الكبرى في المنزل، ألقت التحية عليهما وباركت نجاحه ثم غادرت.

اقتادته نادية إلى غرفة نومها. اعتذر وقال إنه سينتظرها هنا. نظرت إليه بشيء من الغضب ومضت إلى غرفتها.

عادت بعد قليل وفي يدها علبة مجوهرات حمراء، أعطتها ليوسف وقالت بأن السبب الذي دفعها للقائه هو أنها أرادت أن تطمئن إلى سفره وتحصيل دراسته في الجامعة. وأضافت:

– يوسف حبيبي، أصبحت شابا مهيبا، ونحن نريد منك أن تتصرف باللباقة المرجوة منك حتى تعزز مستواك الاجتماعي وتساعد أهلك، أنت لم تعد صغيرا، وعليك أن تختار خطواتك القادمة بعناية.

جعلت تتكلم عن أهمية أن يعرف الإنسان الأشخاص النافذين في المجتمع حتى يضمن لنفسه مستقبلا باهرا، ثم بدأت تدعو لسيادة العماد بطول العمر، الذي رفع توصية لابنها فأصبح مورد الأغذية لقطعات الجيش في قطنة، وضمن مستقبلا ناجحا ونقودا وفيرة، مضيفة أن ابنها للأسف ليس بشيء من وسامة "الدكتور" يوسف وذكائه وإلا لكان حاله أفضل بكثير.

بعد قليل قُرع الجرس، نظرت إلى يوسف وقالت بأنهم حضروا. لم تفسّر له، وسحبته من يده إلى الباب.

كان شابان يرتديان ثيابا عسكرية يقفان بكامل أسلحتهما وجديتهما، حيتهما باقتضاب وقادت يوسف إلى سيارة عسكرية ملونة بالأبيض والأحمر مكتوب على جانبيها أنها تابعة للمخابرات العسكرية.

يوسف المذهول من تسارع الأحداث بدا شارد الذهن ينظر إلى خارج السيارة التي كانت تبتعد باتجاه المدينة، ثم انعطفت شمالًا باتجاه الطريق الموازي للساحل، بعد وقت بدا دهرا له وصلت السيارة إلى مزرعة كبيرة على شاطئ البحر، فُتح باب المزرعة بشكل أوتوماتيكي فولجت السيارة داخلا، وتوقفت أمام فيلا ضخمة مكسوة بالرخام يعلو سطحها قرميد أحمر، تشي كل تفاصيلها والبلاط اللامع فيها ببذخ وترف كبيرين.

***

بنى علي بندر منذ أواسط الثمانينيات وحتى نهاية التسعينيات دولة داخل دولة، واتسع نفوذه بشكل فاق تصورات رأس النظام حافظ الأسد الذي اعتمد عليه في البداية لتحجيم دولة رفعت الأسد والقضاء عليها على مراحل.

نفذ علي المهمة الموكلة إليه بأمانة وحماس لافتين للنظر، ولكن فيما بعد تبين أن انقلاب علي على رفعت الأسد كان انقلابا لحسابه ولمصلحته الشخصية أولا ولمصلحة حافظ الأسد ثانيا. استطاع علي مستغلا الحرب ضد رفعت ورجاله توطيد نفوذه بشكل غير مسبوق، وخصوصا في الجيش والمخابرات، وكان فرع شئون الضباط الذي يرأسه ابن أخته أحمد وسيلته لذلك من تسريح ونقل وتعيين للضباط.

لم يكن علي يحب الظهور الإعلامي، ولم توجد صورة صريحة له أبدا في أي مجلة أو صحيفة، عرف الكثير عن حال البلد وخفاياه، وأسهم بشكل مباشر في سرقته وتقسيمه وتحويله إلى مزرعة طائفية يقودها الأسد الأب، أثرى بشكل خرافي، وامتلك مصانع وأملاكًا وعقارات في أوربا ولبنان، وأقام علاقات مع رؤساء وشخصيات نافذة في كل أنحاء العالم، وكان هذا يفوق

بمراحل طموحات القروي البسيط الذي كانه قبل عقود، ويتجاوز أكبر أحلام صباه جموحا.

كانت لعلي نقطة ضعف واضحة تجاه النساء الجميلات، وكان مستعدا لاقتلاع أي عقبة تواجهه في سبيل الحصول على امرأة جميلة تعجبه.

نادية كانت تعلم أنه لن يقرب سيدة كبيرة في العمر مثلها، ولهذا حرصت على تقديم عذرية ابنتها الشابة عربون صداقة للعماد، ودفعتها لاحقا لتعزيز علاقتها السرية به، كانت ابنتها وبتشجيع منها تقطع دراستها وكل المناسبات الأخرى عندما تأتي عربة المخابرات كي تصحبها للعماد، أرادت الحصول على قلبه وماله.

بعد وقت قصير كان وجود الفتاة مع والدتها أمرًا شائعا بين أفراد عائلة العماد، حتى إن نادية تقربت بشكل كبير من ابنته الوحيدة سارة، التي كانت لا تقل بطشا وتجبرا عن والدها.

وفي حين كان والدها يعمل في السر ولا يظهر في العلن، انتشرت قصص سارة المتهورة في كل أنحاء المحافظة الساحلية، كانت تقود السيارة بشكل أرعن، وتقطع الطريق على الشبان والناس وتقذفهم بأبشع الشتائم أمام الملأ، ودون تدخل من أي جهة أمنية.

عندما دخلت نادية أشارت إلى يوسف وقالت:

– الدكتور يوسف ستي سارة.

نظرت الأخيرة باستهزاء واضح ثم خرجت إلى الشرفة وأشارت لهما أن يتبعاها.

كانت سارة في بداية العشرينيات من عمرها، ناعمة البشرة حنطية اللون، شعرها مصفف بعناية واضحة، توحي ثيابها ومظهرها العام بثراء واضح.

جلست إلى طاولة مقابل البحر تظللها شمسية كبيرة، كانت الطاولة مفروشة بأنواع عدة من الأطعمة والمشروبات.

بعد قليل دخلت سيدة تحمل شيشية وضعتها بهدوء إلى جانب سارة وغادرت.

شرعت نادية تسأل بداية عن سيادة الوالد العميد، مغرقة في الدعاء والمديح لسيادته.

ثم أشارت إلى يوسف الذي يشهد فترة مهمة في حياته، فقد تجاوز بتفوق امتحان الثانوية العامة وهو يعد لدارسة الطب.

بعد برهة فقد يوسف انتباهه وشرع يفكر في ساندرا وجمال المدينة البعيدة عن هذا البؤس والفساد المفضوحين.

بعد نحو نصف ساعة من الزمن لم يتلفت أي من يوسف أو

سارة إلى الآخر، لم يكن يُسمَعُ إلا صوت نادية التي كانت تتكلم في شتى المواضيع، فتتحدث تارة عن محال الصاغة الجديدة في المدينة، ثم تنتقل إلى أهم النوادي الفاخرة والسهرات المتوقعة.

نهضت سارة قائلة إنها سعيدة بلقائهما وتمنت ليوسف مستقبلا واعدا.

نادية نصف المذعورة، قبّلت سارة كثيرا وشكرتها على حسن استضافتهما، ودعت لها بالتوفيق.

في طريق العودة لم تستطع نادية إخفاء حنقها على يوسف وأهله الحمقى، فكيف يمكنه أن يظل صامتا بهذه السلبية أمام طاقة القدر! لم يقل يوسف شيئا واكتفى بالنظر من النافذة.

نزل كلاهما من السيارة، لكن نادية لم تودّعه، أدارت ظهرها له وهمّت تسير نحو منزلها، كان يوسف يستطيع سماع سبابها القميء.

***

بعد أسبوع قضاه في قريته، غادر متذرّعًا بحاجته إلى التسجيل المبكر في الكلية حتى يتمكن من اختيار المواد والأساتذة المناسبين، ورفض عرض أهله بمرافقته.

لم تثر اهتمامه فتيات القرية كما كن يفعلن، تكلم خجلًا مع إحدى

معجباته وأخبرها بأنه ينوي الزواج سريعًا، ومن الأفضل لها ألا تنتظره، فذلك لن يفيدهما بشيء. تفاجأت برده، كما تفاجأ هو! لكنه كان يريد الرجوع إلى المدينة وحسب، بعيدا عن منافقي السلطة وذكرياتهم المؤلمة.

كما استقبلته والدته بالدموع، ودّعته بالدموع، أما والده فكان أكثر حزمًا هذه المرة، نصحه بالابتعاد عن رفاق السوء، والتركيز على النجاح في جامعته.

2

عندما عاد يوسف قصد منزل ساندرا وشرع يدور حول بنايتها ثم توقف قليلا أمام الجهة المطلة على شقتها.

تساءل في سره "هل تراني الآن؟".

لام نفسه على انتظاره غير المجدي، فرؤيتها له قد تفتر همتها تجاه عاشق آخر يطاردها كالمجنون.

ذهب إلى منزل مفيد، إلا أنه لم يجده، وضع زجاجة العرق البلدي التي جلبها من القرية على المنضدة، وغادر إلى شقته. كادت الجدة حليمة رغم مرضها المزمن تنهض عن كرسيها فرحة بعودته لولا أن سارع يوسف إلى تقبيلها وحضنها.

كعادتها سألته آلاف الأسئلة، أجابها على عجل كمن يهذي، وغادر إلى غرفته، استحم ونام على الأريكة في صالة الجلوس، لم يكن يريد الاقتراب من نافذة غرفته المطلة على شقة ساندرا.

استيقظ باكرا صباح اليوم التالي، استحم، أخبر الجدة بأنه سيتأخر

في العودة حتى يتم إجراءات التسجيل في الجامعة، قبّلته ورفعت يديها تدعو له بالتوفيق وبلقاء أولاد الحلال فشكرها وغادر على عجل.

عاد في المساء، وقصد مفيد، كان الأخير نصف نائم، لكن لم يكن أمامه كحول، أخبر يوسف بأنه لم يرد تذوق الكحول في هذا اليوم من دونه.

عانقه يوسف طويلا، وطلب منه الانتظار إلى نهاية الأسبوع، فلديه الكثير ليفعله صباح اليوم التالي.

بعد أيام متعبة أنهى يوسف إجراءات التسجيل في الكلية، واعتكف في غرفته ينتظر نهاية الأسبوع الموعودة.

لم يستطع النوم بشكل جيد، غفا لساعتين أو أكثر، واستيقظ باكرا جدًا، فارتدى قميصًا أبيض أهدته إياه إحدى عمّاته، وسروالاً بنيًا، حلق ذقنه النابتة، وخرج من الغرفة إلى حيث الجدة حليمة، أخبرها عددا من الأسباب التي تستوجب اهتمامه، وبأنه قد يتأخر في العودة، حتى يتم بعض المراجعات الضرورية قبل الكلية، وقبل أن تستفسر منه عن تلك الألغاز التي تفوّه بها لتوه، خرجَ من المنزل يقصد ساندرا.

بعد دقائق أدرك أنه يجري، وأن أنفاسه تتقطع، فكر يوسف بكل العبارات الإنسانية الممكنة الموجودة في قاموسه، والتي رددها في

رأسه مئات المرات استعدادًا لهذه اللحظة، شعر بأنه للمرة الأولى يواجه فتاة تفقده السيطرة على أعصابه.

وقف قليلا أمام باب منزلها، وجعل يقرع الباب بكل قوته بحركة لا إرادية، إلى أن ظهرت ساندرا ترتدي قميص نوم أبيض يظهر جمال ساقيها وقدميها المرسومتين بريشة فنان ماهر.

كانت أصابع قدميها مزينة بطلاء أحمر لمّاع وسميك يظهر جمال أصابعها المغرية وغناها وقدرتها على استنجار أفضل العاملات في مجال التزيين. كان وجهها طريا أبيض خاليًا من المكياج، وخصلة شعر بني ناعمة تخفي جزءًا من إحدى عينيها العسليتين.

تقدم منها، ورفع بيده خصلة الشعر المنسدلة، ونظر إلى عينها، شعر بأن لفتته المفضوحة كانت كافية، وبأنه لم يكن بحاجة إلى إخبارها كم أن عينيها جميلتان.

مسح خدها بباطن يده اليمنى، وقدم لها باقة من الورود، استنشقتها، وشكرته. قال:

– هذه ورود طبيعية، قطفتها بيدي.

لم تجبه، نظرت إلى عينيه، وابتسمت، اقترب منها فقبّلته.

قال إنه يشعر بأنه أسعد رجل في الدنيا، لمجرد وجوده إلى قربها. ضحكت وأخبرته بأنه لن يستطيع خداعها بكلامه المعسول،

فهي أذكى من أن يغرّر بها فتى صغير.

حملها بين ذراعيه، دار مرتين حول نفسه يرقص بها، ثم جلس على الكرسي وجعلها في حجره، وشرع يقبّل عينها ووجنتيها وأصابع يديها، أخبرها بأنه لم يبح بمشاعره الحقيقة لأحد قبل ذلك، وبأنه قضى أيامًا صعبة جدًا بعيدًا عنها.

قبّلته في فمه، ونهضت عنه ثم سألتها إذا كان جائعًا، أجابها بلا.

اقتادته إلى غرفة الجلوس، كانت غرفة واسعة جدًا تعادل حجم منزل الجدة حليمة بأكمله تقريبًا، مليئة بالفازات المزخرفة المذهبة، وفي وسطها طاولة من العاج. جلس يوسف على أريكة وثيرة، وجلست ساندرا أمامه، صبت له قهوة كانت حضّرتها مسبقًا، ودعته لشرب فنجانه وأن يحدثها قليلًا عن نفسه.

أطلعها على معظم أخبار حياته، إلا مغامراته الجنسية المبكرة والغريبة، وقال إنه يشعر بأن لديه والدتين، ووالدين، وكان يقصد مفيد وحليمة، فقد كان يحبهما حبًا صرفًا، صمت لوهلة وقال لها إنه فعلًا لا يحب الحديث عن نفسه، لكنه أمامها يشعر بأنه منوّم مغناطيسيًا، وكأنها تجبره على فعل كل ما تريده وسألها عن الساحر الذي لجأت إليه حتى يلقى هذا المصير.

ضحكت وأخبرته بأنه يبدو شابًا ظريفًا، على الرغم من اندفاعه الغبي في بعض الأحيان، وبأنها لا تعرف إذا كان عليها أن تطرده من منزلها، أم تتركه حتى يقع في غرامها أكثر.

حاول يوسف استيعاب جمل ساندرا القصيرة والمختزلة، إلا أن أكثر ما كان عالقًا في ذهنه كان مفردتي الجنس والحب، كان مسحورا بفتنتها، فهي مختلفة جدا عن مَن عرفهن من النساء، كانت أجملهن على الإطلاق، بشرتها في غاية النعومة، تفوح من جسدها رائحة عذبة تسكره، وكانت أكثر من صادفهم جرأة، صادقة إلى أبعد حدود، كانت تخبره كل ما تفكر فيه، تخطئ، تنفعل، وتثور أحيانًا، لكنها كانت دومًا تعود فتعترف بأخطائها، وردود فعلها الطائشة.

لم تكن بذكاء فاتن، ولا ثقافة سوسن، لكنها كانت حقيقية، صادقة الإحساس ومتصالحة مع ذاتها، ينساب خوفها من كلماتها بلا نفاق، خجلها، حبها، حنقها، حنانها، كل ما يصدر عنها كان طبيعيًا، وحقيقيًا، وكانت عيناها العسليتان أجمل ما رآه في حياته.

أخبرها يوسف بأنها تبدو كدمية من الجنة، وبأنه يشعر وكأن الفردوس يمشي خلفها كظلها.

ضحكت وقالت إنه يستطيع متى أراد مغادرة هذا الفردوس.

– تعلمين أنني لم أقل ذلك كي أسمع هذا الجواب منك.

– أعرف. حسنًا، قلت لك إنك شاب صغير بالنسبة لي، وسأخبرك بما قد أريده منك فيما بعد.

هزّ يوسف رأسه على مضض.

***

كانت ساندرا تعيش في شقة مؤلفة من طابقين، وكان الأثاث الفاخر ينم عن ثراء كبير وذوق رفيع، وحتى يوسف الذي لم يكن ملمًا باللوحات الفنية غالية الثمن، راوده شك حول قيمة تلك المقتنيات والأثريات الجميلة.

أمسكت بيده، واقتادته إلى صالة الطعام، طلبت منه أن ينتظرها لوهلة، ثم صعدت إلى الطابق الثاني، كانت الصالة واسعة جدًا، ومفتوحة على المطبخ الفخم المليء بكل أنواع التجهيزات الفارهة، في منتصفها طاولة فاخرة وأربع كراس مزركشة في أعلاها طلاء ذهبي، ومن خلف المطبخ نافذة واسعة تطل على الحديقة الخضراء الأكبر في المدينة.

ألقى يوسف نظرة خاطفة فرأى البرجين الأعلى في المدينة في طوْر البناء، وشاهد ساحة الملعب البلدي والخضار المذهل الذي تتفرد به المدينة بفضل مياه نهرها العذب الذي جعلها مأهولة منذ آلاف السنين كزمردة تزهو عما حولها من قحط وصحراء.

خرج يوسف إلى الشرفة التي رأى ساندرا تمشي فيها عارية ذات يوم، ونظر إلى البناية المقابلة، سريعًا ميز شقته فيها، شعر بحنين إلى حليمة، وتساءل عما تفعله الآن.

أيقظته ساندرا من شروده، كانت خرجت ترتدي ثوبًا إضافيًا يخفي كثيرًا من جسدها، سألها لماذا توقفت عن الخروج نصف عارية إلى الشرفة، فقالت إنها تحاول أن تجتذب انتباهًا أقل، وأشارت له بالدخول، ففعل.

جهزت الطاولة بعدد من الأطعمة التي يبدو أنها طلبتها من أحد مطاعم المدينة الفاخرة.

في وسط الطاولة وضعت زجاجة نبيذ أبيض في دلو من الثلج، نظرت إليه ساندرا وقالت: إن النبيذ الأبيض البارد لا يجب أن يشرب إلا في الصيف، فما نفْع الشيء إذا توفر على الدوام.

3

مر الوقت بسرعة ويوسف كالمذهول عما حوله، أخبرته ساندرا فجأة بأن الساعة تجاوزت العاشرة مساء، وبأنها تستطيع تحضير سلطة خفيفة من أجله، أما هي، فلا تتناول طعام العشاء.

فشلت كل توسلاته في جعلها تخلع ثوبها وتضاجعه كما كان يأمل، سمحت له بتقبيلها، لأنها كانت تريد ذلك، لأنها رأت أنه يريد ذلك بقوة، إضافة إلى أنها استظرفته واستظرفت ذلك منه، وأخبرته أنه يستطيع قضاء ليلته على الأريكة في غرفة الجلوس، ثم صعدت إلى غرفتها في الطابق الثاني، وطلبت منه ألا يتبعها إذا ما أراد رؤيتها مرة أخرى، فهي ليست مستعدة لمضاجعته.

لم يكن يوسف قادرًا على النوم، نهض عن الأريكة بعد قليل من الوقت، كان لا يزال متوترًا، لكنه لم يكن قلقًا كما في السابق، فهو على الأقل في منزلها، وهي قريبة إليه في الغرفة المجاورة.

عاد فتمدد فوق الأريكة، ونام بضع ساعات من شدة الإرهاق

إلى أن أيقظته ساندرا بقبلة تخبره بأن طعام الفطور جاهز.

نهض، أخذ حمامًا ساخنًا أنعش جسده، خرج بسرعة من الحمام، فهو لا يريد إضاعة الوقت بعيدا عنها، وتساءل كيف يمكنها تقبّله وتدخله منزلها، ثم لا تسمح له بمضاجعتها، وعندما واجهها بذلك صمتت، وقالت إنها لا تريده أن يكرر جملًا بسيطة كتلك مرة أخرى.

***

اكتشف يوسف غرفة متوسطة الحجم مليئة بالكتب في الدور الثاني، مجهزة بأمهات الكتب المختلفة، كانت فيها أيضًا شاشة سينمائية ومقعد وثير يتسع لشخص واحد.

أخبرته ساندرا بأن تلك غرفتها الخاصة التي لا يراها الزائرون، لكنها تعتقد أنه شخص خاص، ولهذا لم تجد غضاضة في مشاركته إياها.

ووجد أنها تمتلك مكتبة موسيقية فريدة، تضم أجمل الأصوات البشرية المسجلة على أقراص صلبة.

من البرازيل اختارت غال كوستا، وأدريانا كالكانوتو، ومن بريطانيا إيمي وين هاوس، ومن فرنسا إيديث بياف وجو داسان، وآلاف أغاني الجاز الأمريكية، ومعظم أعمال بوتشيني، حتى إنها

امتلكت أسطوانات لمغنّين هولنديين وألمان، وجميع ما غناه وديع الصافي، وفيروز، وعبد الوهاب، والشيخ إمام، والشيخة ريمتي، وصباح فخري.

كانت تقول:

"الموسيقى هي الأم الأولى، لا يطربني إلا الصوت النقي، والقوي، لا يمكنني أن أفهم الموسيقى بلا صوت بشري، إنه أجمل الآلات الموسيقية على الإطلاق".

***

إضافة إلى جمالها الذي لا يرحم، كانت ساندرا تمتلك حاسة سياسية وإنسانية غريبة، كانت ترى أن النوع البشري واحد، وعلى الرغم من ذلك فإن أعراقه المختلفة والمتشابهة على حد السواء مستعدة دائما لذبح بعضها لأسباب تافهة، وهذا الأمر كان يعييها، فكيف لا يستطيع البشر توحيد جهودهم لأهداف سامية؟ وكيف يحشدون الأسلحة النووية لقتل بعضهم الآخر؟ كذلك هالتها السرعة التي يبدلون بها آراءهم.

كانت تتكلم وكأنها قد جاءت تؤا لتعيش في كوكب الأرض أو أنها في مهمة لتدرس طبائع البشر وأحوالهم، وكانت كلماتها لا تقل إدهاشًا عن تصرفاتها، وفلسفتها في الحياة.

هي تعتبر أن قوة النوع البشري وذكاءه الخارقين سيكونان السبب في فنائه.

كانت تقول إنها تكره جميع البشر بالتساوي، ولا تتحامل على أحد، فالبشر كائنات صلفة، لا يزيد عمر نوعهم على 200 الف سنة، ومع ذلك، وخلال فترة قصيرة استطاعوا الخروج من جحر تحت الأرض والسيطرة على الكون.

وعندما أخبرها يوسف أنه سمع أستاذه مفيد يردد شيئًا شبيهًا بذلك مثنيا على أحد أنواع سمك القرش الذي يفوق عمره 450 مليون سنة، شعرت ساندرا بالارتياح، وقالت إنها قد ترغب في رؤية مفيد ذات يوم. وأضافت:

– ما يغيظني حقا، هو عزمهم على إلحاق الأذى بأنفسهم، وقدرتهم على تحقير أحدهم للآخر.

لا أثق بهم، يوما ما سيدمرون بعضهم بعضًا، والأرض التي يعيشون فيها، إن التفكير بذلك يجعلني لا أشعر بطمأنينة عندما أكون بينهم، أفضل هذه الشقة الجميلة، فهي قصري وحريتي.

أفعل هنا ما أشاء، أستقبل من أشاء، ولا أنتظر الأوامر من أحد، ولا أرغم أحدًا على احتمال فظاظتي، من ليست له طاقة احتمالي، فليغادر.

– ألا تضطرين إلى طرد أحدهم؟

– نعم، لقد فعلت ذلك، بضع مرات، فهذا قصري كما قلت لك.

– من؟

– عشيقي الأخير.

– أمن أجلي فعلتِ ذلك.

– ليس من أجلك، بل بسببك، لا تغير موضع النقاش، لا أحب ذلك.

أراد يوسف أن يبتعد عن الأحاديث السياسية والفكرية التي تجعل ساندرا تتحول إلى كائن آخر، كان متيما بها، وأراد أن يجلس بقربها ويمسك يديها، دون أن تشوش تفكيره بحنقها اللا متناهي وغير المفهوم على الجنس البشري.

قالت:

– الجميع سيدخل بوابة التاريخ سواء بأكبر صحن حمص أو تبُولة أو بأسرع رقصة، من حق الجميع أن يصبحوا مشاهير، فذاكرتنا تتسع للكثيرين.

كذلك قد لا يستحق الشخص المشهور أي احترام، فحافظ الأسد

مثلا مشهور جدًا، وابنه بشار كذلك، لكنها لا تحترم أيًا منهما، ونرى أن كلا الرئيسين أسهما بشكل واضح في إضعاف الشخصية السورية الحديثة، وإظهار المجتمع السوري كأسوأ المجتمعات في العالم، وهما في المحصلة نتاج هذه البيئة، فأي منهما لم يأت من ابكاراجوا.

وأضافت:

– لا أشفق على أي مواطن سوري، أكرههم جميعهم، فهكذا حاكم يليق بهكذا شعب. ماذا يعني أن يكون المجتمع "موزاييكا" طائفيًا؟ لقد كانوا يعبدون الحجارة قبل المسيح، ثم غيروا دينهم إلى الإسلام مع وصول أهل قريش المنتصرين، لقد حولوا معبد جوبتير إلى كنيسة ثم إلى جامع بني أمية، هل تستطيع لوم المسلمين على ذلك؟ لماذا لا تلوم مسيحيي الشام الذين ارتدوا عن دينهم؟ لو لم يكن هناك إسلام، لذبح الأرثوذوكس والموارنة أحدهم الآخر، إنهم ينجحون دوما في خلق سبب يقتلون بعضهم من أجله. وبين تلك الحروب يتم تأليه الرابح، ببساطة نحن دومًا نعبد المنتصر، جميعنا حاليا يؤله الرأسمالية الغربية، ويُقتلُ في سبيل العمل لدى مصنع للقمامة في أي بلد أوربي، على الأقل هذا ما تسوق له جميع برامجنا التليفزيونية والسينمائية.. وخصوصا الفيديو كليبات.

فجأة وفي خضم حماسها وطلاقتها، أحست بأنها قد تخسر

استقلالها أمام هذا الشاب، شعرت بأمعائها تعتصر عندما نظر إلى عينها، وتذكرت أنها شاهدت في أحد الأفلام أن ذلك يعني الحب.

أرهبتها تلك الفكرة، فالحب يعني خسارتها لاستقلالها، وذلك الجدار الذي يجعلها ساندرا الصلبة، إلا أنها لم تكن لتستطيع الاستغناء عن يوسف بعد.

أخبرته بأن عليه أن يغادر، ثم أعطته مفتاح منزلها، قالت إن بإمكانه القدوم الأسبوع المقبل فقد استظرفته، لكنها لن تضاجعه، وعبثًا سيحاول إقناعها بالخروج من المنزل، والذهاب إلى السينما أو أي مكان آخر، إلا أنها لن تفعل، وستخبره أخيرًا ضاحكة بأنها اعتادت حياة الأسر، وبأنها تشعر برهاب فظيع عندما تقترب من باب المنزل.

***

ساندرا لا تستقبل أحدًا، ولا تزور أحدًا. يأتيها فتى بقالة كل أسبوع بالطعام والشراب، تعطيه النقود وورقة بالحاجيات التي عليه تأمينها للأسبوع القادم.

قبل أن تتعرف إلى يوسف، وبين الحين والآخر كانت تستقبل رجلًا غريب المظهر، فتغلق الأبواب والستائر، إلا أنها لم تعط يوسف تفاصيل علاقتها بذلك الرجل، وعندما كرر سؤاله عنه،

أخبرته بأنها لن تسمح له بأن يضغط عليها في أي شيء، فَعلته، أو تَفعله، أو سَتفعله، وقالت إنها ستخبره ما تريد عندما تريد.

توقف يوسف عن مطاردة النساء والفتيات، ومضت سنته الأولى في كلية الطب بسرعة، أدرك أساتذته قدراته الطبية، ونصحوه بالتخصص لاحقًا في مجال الجراحة، وأصبحت زميلاته بالدراسة يتندرن بظرفه، لم يعرهن أي اهتمام، إلى أن انتهى بهن الأمر لنعته بالشاذ، كانت عاطفته مزروعة هناك بين يدي ساندرا.

توقف عن مضاجعة فاتن قبل مدة من مغادرتها للمنزل، أصبح يريد المزيد من ساندرا علّه يتحرر منها، أو هكذا خيل إليه، كان يرى أن الدنيا وجمالها موجودان فيها، رغم معرفته أنه ينتمي إلى النوع الملول من البشر الذي إذا أصاب أنثى ملّها، أدرك سريعا أن ساندرا ستكون الحالة المختلفة.

4

الجماعة الجماعة

دخل يوسف إليها بوجه خال من الدماء، تناول طعامه، وبين الحين والآخر كان يبتسم لساندرا ويقبّل يديها.

بعد أن فرغا من تناول الطعام، سحبته من يده إلى غرفة الجلوس، وسألته أن يتكلم.

أشاح ببصره عنها. وقال إنه واجه أمرا مقززا في جامعته.

– ما الأمر؟

شرح أنه وخلال محاضرة اليوم تجادلت إحدى الطالبات بشكل بالغ السوء مع الدكتور المحاضر، كانت تتحدث بصوت عال وعندما طلب منها أن تصمت أو تغادر، بدأت تهدده بصوت عال فوصفها بأنها فتاة بلا أدب قليلة التربية.

قذفته بشتى أنواع السباب. قالت إنها من القرداحة بلد الأسود، وتعهدت بأن ينكح أهالي القرداحة والدته، ثم رمته بكتبها أثناء مغادرتها.

صمت يوسف محاولا تذكر تفاصيل الحادثة. وتابع:

– لم يقل لها شيئا معيبا، طلب منها أن تهدأ، لكنها لم تستطع إغلاق فمها، بعد قليل عادت مع مجموعة من الرجال الذين يبدو من مظهرهم أنهم يعملون في الأمن السياسي، بدورهم أهانوا الدكتور واقتادوه خارجا بطريقة مذلة.

كانت تلك الفتاة تقف في الخارج تنتظر من طلاب الكلية أن يقتربوا منها ويواسوها على ما جرى معها، وكأنها كانت الضحية لا الجلاد! وكثير منهم فعل!

بعيدا عن الظلم الذي يشوه البشر والإجحاف الذي لحق بالدكتور، إن ما حصل اليوم يرسخ قانون الغابة لدى طلبة الكلية.

"اخرسوا وإلا مسحنا الأرض بكرامتكم! أعراضكم مصانة بقدر ما هي أفواهكم مغلقة!".

على الرغم من كل ما رأيته من فساد وفجور للسلطة خلال حياتي، ما زلت لا أستطيع تصديق ما جرى اليوم، وكأنه قطعة سريالية من جهنم.

اقتربت ساندرا منه، وضعت يديها على كتفيه، ثم ضمت رأسه إلى صدرها، قبّلته طويلا في خديه وعينيه، وفي شفتيه. جلست إلى جانبه أمسكت يديه وقالت:

– هذا البلد يحتاج إلى مبضع إله لا جراح، لا تسء فهمي، فمشكلة السوريين لن تحل مع زوال السلطة الحالية، فسادهم ضاربة أطنانه في القدم، فهم ومنذ 500 عام وكلما بلغوا قاعا حضيضا تفوقوا على أنفسهم وانهزموا إلى قاع أسفل! دون أي خطوات حقيقية أو ملموسة نحو الحرية أو دولة القانون والنظام!

هناك قصص أفظع، وكلما عشتَ أكثر ستفاجأ بقصص أكثر بؤسا وسريالية.. ربما آن الأوان كي تعرف.

– أعرف ماذا؟

نظرت إليه بشيء من المرارة، ورسمت على شفتيها ابتسامة حزينة، سحبته من يده إلى غرفة النوم وأضجعته فوق السرير، سحبت كرسيا وجلست أمامه.

قالت:

– غرفة نوم رئيس الدير تشبه قصرًا صغيرًا، فمنذ 500 عام تقريبًا، والناس والقرويون يحجّون إلى الدير حاملين إليه الغالي والنفيس، فامتلأت حجراته بالذهب والتحف الفريدة، وكان لغرفة نوم الرئيس نصيب الأسد.

في غرفة النوم هذه، باب سري يقود إلى سرداب في باطن الأرض ينتهي إلى غرفة واسعة، في داخلها قبعت فتاة شابة.

كانت جاءت صحبة والديها إلى الدير قبل 8 سنوات عندما كانت في الخامسة عشر من عمرها، ما هي إلا لحظات حتى وقع رئيس الدير بغرامها، كان الشيطان أكثر منه شرفًا.

ببعض الترهيب والترغيب، أقنع والديها بضرورة رسمها راهبة للرب. هل سمعت عن هذه القصة من قبل؟

أشار يوسف بالنفي فتابعت:

– كان اسمها ريم، قضت سنتها الأولى داخل السرداب في البكاء، والعويل، وبدأت نوبات صرع قوية تنتابها، عبثًا حاولت الانتحار، لم تنجح.

كانت غرفتها مظلمة لا يصلها الصوت، ولا النور الخارجي.

عمد رئيس الدير إلى اغتصابها مرة كل أسبوع، كان يعودها ليلًا كل يوم، لكنه لا يغتصبها إلا مرة في الأسبوع.

أصبحت الكتب والموسيقى سلواها الوحيدة، فقد كان الشيطان يمتلك أكبر مكتبتين للموسيقى والمخطوطات في الشرق الأوسط، احتجزها جميعها مع تلك الصبية في ذلك القبو.

لم تر النور إلا بعد 3 أشهر من موت رئيس الدير، وبعد أن

استدل بعض الرهبان إلى الباب السري مصادفة، وهناك وجدوها بين الحياة والموت، فقد نفد زادها بعد موت كبير أساقفتهم وانقطاعه عن تزويدها بالطعام.

تكفل الدير بنقود العلاج، ودفعوا لها ولأهلها ملايين الليرات خوفًا من انتشار الفضيحة.

قال الراهب الشاب الذي أنقذها، إن الشيطان مات، وإنه كان تفاحة بائسة استطاع أن يخدع الجميع، وإن إثارة موضوع كهذا لن تفيد أحدًا، بالعكس ستسيء إلى سمعة الكنيسة والطائفة وسيكون الجميع متضررًا، وأقنع والديها بقبول المال.

وقفت ساندرا فتحت ذراعيها تشير إلى ما حولها:

– وبه اشتريت هذا المنزل.

اتسعت عينا يوسف رغمًا عنه.

أدارت ساندرا ظهرها إلى يوسف وتابعت باستهزاء:

– لا أتحدث إلى أهلي، لا أزورهم، حتى إنهم لا يعرفون أين أقيم، لقد باعوني للدير من قبل، وليس من حقهم أن يستردوني متى أرادوا، باعوني وبعتهم، لم أعد ريم المسكينة... أنا الآن ساندرا.

أراد يوسف أن يسألها عن رئيس الدير، فقاطعته على الفور.

قالت إنه أول شخص تخبره بتلك القصة، وطلبت منه ألا يسألها عن تلك الفترة أبدًا، ولا عن أي شيء. وأضافت:

– اسمع، سأخبرك عندما يسمح مزاجي، وعندما يكون الوقت مناسبًا. وتابعت ضاحكة:

"لقد أصبحت تعرف الآن لماذا أعاني رهاب الخروج من المنزل. لست معتادة على العيش مع بني البشر".

5

لدى وصول مفيد إلى المدرسة كان الطلاب على وشك الخروج، فقرر أن يصاب بالزكام، أخبر بواب المدرسة أن ينقل تحياته للمدير ويصف له الإعياء والزكام الواضحين اللذين حضر بهما إلى المدرسة، ثم أعطاه 100 ليرة.

حمل رأسه بين كتفيه وقصد خمارة "هاغوب".

بعد الكأس الرابعة بدأ الضباب ينقشع عن عينيه وراح يميز المكان ووجوه الموجودين بوضوح، في زاوية الخمارة لمح وجهًا سبب له صداعًا فوريًا.

كان رفيقًا سابقًا يعرفه منذ أيام الجامعة، بعد الكأس السادسة تذكر أنه نادر، أحد أصدقائه اليساريين ممن قضوا طفولتهم وشبابهم في السجن حتى بات لا يستطيع العيش خارجه.

اقترب منه وحيّاه فتذكره، كان نادر خائفا من الخوض في الأحاديث السياسية حتى إنه تحاشى الخوض في أسماء الرفاق

القدامى، وقال إنه لا يتذكر شيئًا عنهم، وبأنه توقف عن دراسة الطب وتحول إلى الفيزياء الذرية، وحاليا يعد رسالة الدكتوراه عن الذرات معدومة الكتلة، والتي تتجاوز سرعتها سرعة الضوء لدى مرورها في أفق الثقب الأسود.

– الثقب الأسود؟

– نعم يا رجل، الثقب الأسود.

بعد شرح بدا لمفيد دهرًا، ازدادت حماسة نادر فوقف وفتح ذراعيه وشرع يقسم الهواء بيديه ثم جمعهما حتى صارتا أمام ذقنه قائلًا: إن الكون الذي نشأ قبل 13 مليارًا و800 مليون سنة، كان بحجم ذرة متناهية في الصغر، والسر بأنه ما زال ينمو ويتحرك ويتمدد، يكمن في أنه وبالإضافة إلى نشأته الانفجارية يتغذى على شيء أو مادة ما.

وأضاف بعد لحظة من الصمت:

– قد تكون الطاقة السوداء أو المادة المظلمة، أو كلتيهما.

– هذا خراء غير إنساني، كنت ثملًا وسعيدًا على غير عادتي في الثانية ظهرًا، نزعت لي سعادتي وستطير السكرة معها.

تابع نادر يتحدث بحماسة واضحة عن الفيزياء الكمومية وأشياء

يسمع مفيد عنها في التلفاز من دون أن يفهمها.

بعد نصف ساعة من حديث لا يتوقف، أمسك مفيد رأسه بكلتا يديه، فكّر في أن جنون نادر قد يكون سبب نجاته من سنوات سجنه الطويل ومحنته اللا إنسانية في دولة تقتات على أحلام أبنائها تمضغهم وتتغوّط عليهم، انتظره حتى أنهى حديثه، شكره على معلوماته وتمنى له النجاح، وغادر مهرولًا إلى بيته.

عندما وصل مفيد إلى منزله، وجد يوسف يفترش كتبه على الطاولة الوحيدة، شعر بسعادة كبيرة، وقبل أن يتفوّه يوسف بشيء، شرع يخبره عن "رفيقه المجنون" اليساري السابق الذي تحول من طبيب شجاع يضع مصلحة الآخرين فوق كل شيء، إلى كلب مطيع استطاعت الدولة أن تطوعه وتوجهه كيفما تريد، وتستغل ذهنه المتقد لخدمة أغراضها السافلة. وأضاف:

– شرع يحقنني بشتى النظريات المسمومة حول سرعة الضوء وتغير الزمان لدى السير بسرعة توازي سرعته، وأن الثقب الأسود يمتص كل شيء حتى الضوء لحظة سقوطه في مهبل أم الثقب الأسود.

قال لي إننا نحن البشر كائنات صغيرة تافهة، لكن يميزنا عقل وخيال عظيمان، وعاطفة عاطفة استثنائية! أتبع ذلك بضحك وصراخ هائلين.

نظر في عيني يوسف وقال:

– يا ولدي. ليس كل من سهر الليالي وصل العلا، ولا كل من صادق فتاة جميلة "جغل". خذ مثلا نادر، لم أعرف أحدا في كلية الطب بدمشق أكثر منه اجتهادا وإخلاصا لدراسته، لكن ما تقول في حال هذا البلد المقلوبة التي حولته إلى نصف معتوه، في حين أن أكثر الشبان غباء وكسلًا، استطاعوا بفضل آبائهم الضباط والحرامية أن يقودوا سيارات فارهة مزينة بأجمل النساء، متمتعين بتجارة مربحة وحسابات بنكية في كل مدن أوربا تقريبا. وعليك كقضيب متميز أن تستغل كل إمكاناتك الفذة حتى تبتعد عن الوقوع في أي من شراك الشام السامة. تذكر فجأة ساندرا، فنظر إلى يوسف نظرة ملؤها الجد. وسأله:

– أخبرني، كيف استطاعت ساندرا أن تحولك إلى قطوة؟

كان يعلم أن يوسف لن يجيب، فتابع يخبره عن أهمية الجامعة في بناء شخصية الإنسان، فالأصدقاء الذين سيجتمع معهم، والخبرات التي سيكتسبها لن تتوفر له في مكان آخر، وعليه أن يوزع قضيبه فوق كل الجبهات الجامعية، من زميلات شبقات إلى بروفيسورات ماجنات، وكل المحتاجات والخبيرات، وأنه سيستطيع أن يستغل طاقات الشابات واندفاعهن للتحرر من رقابة الأهل والمجتمع في تحقيق مآربه الجنسية العظيمة، وسيحصل بالتأكيد على تقدير

الأستاذات الخبيرات ممن يثمّنّ القضيب الذهبي، ويعرفن قيمته حتى يضاجعهن مضاجعة خرافية.

نهض يوسف عن كرسيه، شرب قليلا من كأس الماء أمامه، أخبر مفيد أن زوارًا قصدوا منزل حليمة بصحبة أطفال كثيري الضجة، ما جعل الدراسة مستحيلة في الأسفل، وأنه أنهى دراسته وعليه أن يذهب إلى محاضرة أخرى في الجامعة.

– لماذا تذهب؟ لا يا رجل، اجلس نأكل شيئًا معًا، إيييه كم أمقت الأطفال، وأهلهم، هل سأراك في المساء؟

– لا أعلم.

– اسمع، اتصلت بي الملكة وقالت إنها ستأتي بصحبة فتاة على كيفك يوم الخميس، وقالت إنك إن لم تحضر فلن تأتي.

– لا أستطيع، أنت تعلم صعوبة مواد الطب.

– لا شغل لها إلا السؤال عنك، ماذا فعلت بها؟ هل ضاجعتها؟ ضاجعتها أليس كذلك؟

– لماذا تسألني هذا الآن؟

– لأن لا حديث لها إلا عنك، قالت إنها أتت بصحبة رفيقتها من

قبل، وإنني خيّبت ظنها كالعادة، وهي لن تأتي دون ضمانات أكيدة أننا سنكون معًا موجودين في المنزل.

– حسنًا، سأكون موجودًا لحظة مجيئهما، ولكن سأغادر حال وصولهما.

– لا بأس.

– نهض يوسف، عانق مفيد، قبّله وذهب.

الفصل السادس

أجمل ما فيها كل ما فيها

غدت ساندرا مرعوبة من فرط انجذابها ليوسف، ومن أن تكون محبتها له في طريقها إلى أن تتحول إلى عشق وولع يدمران هناء حياتها.

أصبحت تصاب بنوبات ذعر عندما لا يجيب على هاتفه المتحرك، يلاحقها خوف من أن يكون أصابه مكروه، يطاردها وسواس يوهمها أنه توقف عن حبها، أو أنه قد وجد فتاة أصغر وأجمل منها.

باتت تدرك أن الحب قد يعني كل شيء إلا الاستقرار، خففت من حدة اندفاعاتها أمامه، حتى أصبحت تشعر بأنها مكشوفة وبلا حول معه، لم تعد تعنَى بترديد خطاباتها السياسية الصلبة أمامه، ولا نظرياتها الخاصة عن الطبيعة، أضحت أكثر رأفة بحال البشر، والدنيا.

إن حياة جعلتها تلتقي بيوسف وتحبه، ليست خالية أبدًا من المعنى.

نعم. تدرك أن كل شيء سينتهي وفي رأسها ملايين الأسئلة لا تعرف ربع إجابة عن أحدها، لكنها كلما نظرت إلى عينيه، واستنشقت رائحته أدركت أن حياتها لن تكون هباءً.

مع كل يوم كانت محبتها له تزداد، ورافقها خوف متزايد من خسارته.

أخبرته بأن لكل شخص عيوبًا ومحاسن، وبأنه يعجبها بعيوبه ومحاسنه، وبأنها تعرف أنه يعبدها. وأضافت:

– أعرف أنك تحبني، ولكن، بعد 10 أعوام أو كثر، سأكون في الأربعينيات من عمري، وأنت ستكون في الثلاثين، ستكون في ذروة رجولتك وقوتك، وأنا سأكون عجوزا قميئة منفّرة، عندها ستعمد إلى مطاردة المراهقات فأقتلك وأقتل نفسي.

أرادته أن يقول شيئًا يطمئنها، وأنه لن يتركها حتى لو صارت في السبعين من عمرها، حتى لو لم يكن يعني ذلك. أرادته أن يقول شيئًا حنونا جميلًا، يطمئنها ولو قليلًا، لكنه لم يفعل.

2

مرت سنتان على العاشقين كأنهما لمحة بصر، أنهى يوسف سنته الثانية في كلية الطب بامتياز.

ما عدا جامعته ومفيد وحليمة، لم يكن يوسف يعرف إلا ساندرا، أصبح وبطلب منها، يقضي معظم لياليه في منزلها، كانت تعد له الطعام، وتراقبه يدرس، أو تجلس إلى جانبه وتقرأ أحد الكتب، في أحيان كثيرة كانت تغادر إلى غرفة الجلوس المطلة على المكتبة حيث يجلس، وتختلس النظر إليه.

كانت تشعر بمئات من الأحاسيس المختلفة، فتارة تكون خائفة، وتارة مليئة بالغبطة، ثم حزينة، أو مستثارة.

كيف يمكن لجسدها أن يحتمل كل تلك السعادة وهذه المشاعر دفعة واحدة؟

كان يوسف لا يمل إدهاشها وإذهالها، وكأنه وفر كل حنان العالم، وضعه فوق قلبه وقدمه لها، ظنت أحيانًا أن هناك نوعًا من

المواد الكيميائية التي تفرزها مسامه في الهواء، فتجذبها كالفراشة إلى النور، وإلا فما سر كل تلك الجاذبية تجاهه؟

لكنه يحبني أيضًا، نعم يحبني، فكيف يقضي كل وقته معي لو لم يكن يهيم بي عشقًا؟

"نعم يحبني وأنا متيمة به". قالت لنفسها، ثم ذهبت فوضعت أسطوانة موسيقية لمغنية برازيلية تدعى نارا ليلو، وعندما بدأت تغني "Corcovado" شعرت بخدودها رطبة. كانت تبكي.

دخلت إلى غرفته حيث كان يدرس، كانت عيناها حمراوين من البكاء. جلست فوق حجره واحتضنته طويلا، ثم استقامت في جلستها وخاطبته بما يشبه الصراخ:

– هي أنت.

نظر إليها، وقبل أن يسألها عن سبب بكائها، طلبت منه ألا يخبرها عن ماضيه الجنسي والغرامي، فهي لن تحتمل ذلك أبدا. أخبرته بأنها ماضية في عشقه، وبأنها تغار كثيرًا حتى من ماضيه، ثم غادرت.

3

الحلم

ارتدت ساندرا فستانا أسود منسابًا على جسدها مفتوح الصدر، بدا كقميص نوم في نعومته، وضعت قرطًا ذهبيًا دائريًا رفيعًا واسعًا، وسلسالًا رقيقًا أهداه لها يوسف في ذكرى لقائهما الأول، كانت تبدو كقطعة من السحر والأنوثة، أعدتها الطبيعة لتحويل الذكر المتوحش إلى أرق المخلوقات الحية.

شرعت تكرر لنفسها: "لم يعد صغيرًا... في هذا اليوم يبلغ العشرين من عمره، إنه أكثر ذكاء وعلمًا من جميع الذين صادفتهم في حياتي. لم يعد صغيرًا. لن أستطيع مقاومته بعد اليوم، صدّي له قهْر لكلينا".

شعرت بقلبها ينبض بسرعة عجيبة، وبأن نبضه يتسارع مع طرقات يوسف على باب شقتها.

ما إن فتحت الباب حتى حملها بين ذراعيه، وأمطرها قُبلًا، تنشّقها طويلًا، ثم عاد فحملها وقبّلها في رقبتها ووجهها وشفتيها.

خافت ساندرا من أن تذوب بين يديه، طلبت منه أن يجلس. أمسك يديها، ونظر إلى عينيها.

– يا الله.

– ماذا؟

– كم أنت جميلة؟

– هاه!! أنت تقول ذلك لكل من تصادفه.

– أحبك.

– وأنا أيضًا.

– ماذا؟ أعيديها.

– أنا أيضًا.

– قوليها، أعيديها.

صمتت لوهلة، نظرت إلى عينيه. كانت متأكدة أنها تعبده، وأنه إن غادرها أو توقف عن حبها، فستعيش من دون أمل، هائمة على وجهها، أو تقتل نفسها، أصبحت حياتها تتوقف على رؤيته.

– أحبك.

حملها مرة أخرى بين ذراعيه، وشرع يذرع الغرفة جيئة وذهابًا ويبتدع حركات راقصة.

وخيل له أن السعادة الموجودة في تلك الغرفة لو وزعت، لكانت كافية لمحو كل الخلافات على الأرض، وجعلت سكانها يعيشون في سلام لمئات السنين.

كان عيد مولده العشرين، طلبت منه أن يدخل إلى غرفة الجلوس، حيث وجد الحلوى بانتظاره وزجاجة نبيذ فاخر، قبّلته.

– عقبال كل سنة.

– حبيبتي.

وقفت ساندرا بكامل أناقتها، وضعت موسيقاها الأثيرة tonight you are mine بصوت إيمي واينهاوس.

راح يقبّلها مرة ومرة، وكأنه في كل مرة يقبّلها من جديد.

دخل غرفة نومها لأول مرة، ثم وضعها فوق السرير، وبدأ يتأملها.

قال إنه يعبدها، وإنه لا يستطيع التفكير في حياة لا تكون موجودة فيها. لمعت عيناها وكأنها كانت تريد البكاء، عانقته، قبّل رقبتها، وخدّيها، وأذنيها.

نزعت قميصه. نهض، جلس عند حافة السرير، نزع عن قدمها اليسرى حذاءها ذا الكعب العالي، وشرع يقبّل أصابع قدمها، جعلت رأسها إلى الخلف، وأغمضت عينيها، قبّل قدميها، ثم صعد متمهلاً إلى أعلى، كانت شهوة كليهما في ذروتها حتى أصبحت الغرفة مليئة ومنتشية برائحتها.

جذبت زجاجة النبيذ، وسكبتها فوق جسمه، ثم شرعت تلعق جسده، وتشربه بتمهُّل.

شعر بأنه يكاد يغيب عن الوعي من فرط الشهوة واللذة، اقترب يقبّل فخذيها، فغدا جذعها يرتجف من فرط اللذة، فشرع يشم شيئها ويستنشقه.

عندما أولج بها ندت منها شهقة ملتوية من الشهوة.

شعرت بلذة لا توصف، وقالت له إنها لا تستطيع أن تقول له ما تشعر به الآن، وإنها لم تكن لتستطيع مقاومته أكثر، ثم اقتربت من شفتيه، وقالت له إنه إذا فكر في غيرها من النساء فتكون تلك نهاية حزينة لكليهما، ابتسم وقبّلها.

ثم أولج فيها مرة أخرى.

تسارعت أنفاسها، لفّت ظهره بيديها، وشرعت تقبض عليه بكلتا يديها حتى جرحته أظفارها، مع ازدياد شدة قبضتها أدرك يوسف

أنها اقتربت من القذف، فحبس أنفاسه، أرادها أن تدرك شهوتها قبله، طلبت منه أن ينزل أسفلها، ففعل، امتطته وأسندت قبضتها إلى صدره، ارتمت فوقه، وشرعت تقبّله، وتمص لسانه.

شعر يوسف بأن ساندرا بدأت تفكك خلايا جسده إلى فتات مسحوق طائر، محوّلة إياه إلى رغبة حسية خالصة، إلى موسيقى كونية، إلى نار متفجرة.

تحول الشعور لديه إلى غيبوبة إعجازية امتدت إلى بضع دقائق أو ساعات أو ثوان، شرع ينهم من لعابها ويطلب منها أن ترويه.

جعلت ساندرا تلعقه وتقبل عينيه وشفتيه، حتى فاضت شهوتها.

ظلت مستلقية فوقه، تريح خدها فوق صدره، وتقبّله بلطف، وعندما هم يعتدل في جلسته، طلبت منه أن يبقي قضيبه داخلها.

بقيت مستلقية فوقه ليضع دقائق أخرى تقبّله، وتمسح عرقه عن وجهه، شرعت تقول له إنها تحبه كثيرًا، ثم بدأت تهدده بكل الأمور الفظيعة التي يمكن أن يصادفها إذا ما فكر هو تعيس الحظ في أنثى غيرها.

عاد يوسف إلى تقبيلها، ثم رفع الشعر المتطاير عن رأسها بيده، وأخبرها بأنها حبه الأول والأخير، وبأنه لا يستطيع أن يبتعد عنها حتى لو أرادت هي ذلك.

لم تكن ساندرا المرأة الأولى في حياته، ولم يكن هو أول رجل في حياتها، لكنه آمن عميقا في داخله أنه لأول مرة يرتبط بأنثى كانت تبدو له حقيقة، وكأنها تختصر ما حوله من سعادة وجمال.

على عكس كل الفتيات والنسوة اللواتي ضاجعهن، شعر بأنه عرفها منذ وقت طويل، كانت ساندرا بالنسبة له المرأة التي تمتلك كل شيء وترفض كل شيء. على الرغم من كل الاختلافات التي كانت بينهما، أدرك بأنه لا يحتاج إلا لضمها واستنشاق رائحتها، يحتاج إلى ساندرا فقط.

قالت له إنها بدأت تشعر معه بحالة غريبة من السعادة، حالة غريبة لم تشعر بها من قبل تدفعها إلى أن تحب البشر والدنيا من جديد، وأنها خائفة جدًا، خائفة.

– عندما تغادر المنزل أترقب عودتك بفارغ الصبر والسعادة، فأنا أعرف أنك موجود، وأنك ستأتي إليّ، لكن يرعبني أن تتركني يومًا، أو أن يصيبك مكروه، أو تشاطرني بك امرأة أخرى، إن ذلك سيقتلني.

– أليس من الأجدى أن نفرحي لأننا معًا، عوضا عن الأوهام الغريبة؟

– صحيح.

– حسنًا، ابق في الفراش، سأعود بشيء نأكله.

ابتسمت ثم عانقته طويلًا وسالت رغمًا عنها دمعة.

مسح يوسف دمعتها، وقبّلها.

– أحبك.

– وأنا أحبك.

4

لكل منّا أسطورة

قال مفيد ساخرًا:

– لقد وقعت أخيرًا يا أبا قضيب.

وأخذ بعد مقولته يضحك بشكل سينمائي مصطنع وصاخب، ثم شرع يخيط نظريات مختلفة عن الحب، وكيفية اتقانه، وبأن المرء لا يمكنه التعلم من تجارب الآخرين على الدوام، إذ أحيانًا تجبره الطبيعة على أكل البراز حتى يتجنبه في المرة المقبلة.

توقف فجأة عن الاسترسال واستقام في جلسته.

– بالحديث عن البراز، لم يعد لديّ شيء أشربه إلا هذه الخمر الرخيصة، أخبر والدك بأنني أشتاق للعرق البلدي الذي أرسله لي

يوم نجاحك الميمون، اطلب منه أن يرسل لي قليلًا منه، وسأدفع ثمنه من حر مالي... آخ.. الخمر!

هل تعلم كيف جرى اختراع الخمر؟ اجلس اجلس، سأخبرك عن القديس الذي قدّم للكون أجمل ألوانها.

– دعني ألقي التحية على الجدة حليمة، فأنا لم أزرها بعد.

– أوف! إيه يا ساندرا إيه. كنتَ تضاجع نصف سكان المدينة، وكنت أراك مرتين في اليوم، ما الذي تمتلكه ساندرا ولا يوجد لدى المهابل الأخرى في المدينة؟ اجلس أقول لك، دعني أنهي هذه الكأس وننزل معًا إلى الجدة، فأنا أيضًا لم أرها منذ مدة.

أشار مفيد إلى الزجاجة أمامه، وأخبره أنه قبل نحو عشرة آلاف سنة عاش قديس شاب في قرية بالقرب من معرّة النعمان، وكان الموسم قحطًا، ولم يتمكن البشر من إيجاد أي طعام يأكلونه، وتوفي خلق كثير، إلا أن هذا القديس عانى مرضًا في ساقيه منعه من المسير الطويل والركض، فلم يستطع الهجرة مع أقرانه إلى المناطق الساحلية القريبة من البحر لاصطياد الأسماك، وبقي في القرية إلى جانب النساء والأطفال والعجزة، وفي أحد الأيام وبعد أن أكل الجوع معدته ورأسه، سار إلى حقل قريب حيث كان يتناول

عناقيد العنب صغيرًا، وطبعًا لم يجد أي شيء يأكله، اقترب من إحدى العرائش اليابسة، كانت تحمل عنقودًا شوّه حباته الجفاف، ولأنه كان نصف مغمى عليه، شرع يتناول حباته التي تخمّرت بفعل الشمس، حتى أتى على آخر حبة فيه، وحينها شعر بأن ساقيه قد عادت فيهما الحياة، وبرأسه خفيفًا سعيدًا. قطف كل العناقيد الجافة التي استطاع الوصول إليها، ذهب إلى ظل قريب، أكل أحدها، ودفن البقية تحت التراب وعاد يرقص إلى قريته، عندما شاهدت النساء وجهه متوردًا، وحركته الرشيقة، ظنن أنه تناول وليمة دسمة وحيدًا ولُمْنه على أنانيته.

لم تصدق إحداهن أنه لم يأكل إلا عنبًا جافًا تمتنع حتى الحيوانات الرامة عنه.

عاد بعد عدة أيام إلى المخبأ وجلب معه إلى القرية عدة عناقيد كانت قد تخمرت أكثر بفعل الرطوبة والعفن، وصار خمرها أشدّ تأثيرًا.

دعا النساء اللواتي كن في القرية إلى الوليمة، طبعًا عافت النسوة الوليمة، إلا أن الكثير منهن – بعد أن شاهدنه يأكل – وتحت تأثير الجوع شرعن يأكلن العنب العفن في نهاية المطاف. بعد عدة ساعات كانت النسوة وبفعل الخمر يرتمين في أحضان الشاب القديس، وضاجعن الكسيح بلذة لم يعهدنها من قبل.

في صباح اليوم التالي، عمد القديس إلى دفن كل العناقيد الجافة وتخزينها حتى يبتز النسوة لمضاجعته، فجميعهن كن لا يقربنه لهزاله وشح صيده، ما هي إلا عدة أشهر حتى كان القديس قد ضاجع نساء القرية كلها، ولم يعد الصيادون من رحلتهم إلا وذرية الكسيح تملأ القرية، وشرع أولاده من بعده يعملون على توسعة فنون التخمير حتى وصلت إلى أعلى مراتب التطور والفن.

التفت مفيد إلى يوسف فرآه يضحك، فصرخ به يؤنبه، ويغلظ القسم بأن ما يقوله حقيقة تنتظر عالمًا قديسًا ومحترمًا حتى يوثّقها بطرقه العلمية.

وافقه يوسف، وأكد أنه يشاركه الأمنية، ثم حثّه على الذهاب إلى الجدة.

5

نهضت الجدة حليمة عن كرسيها لحظة رأت يوسف يدخل من الباب، وشرعت تصفق بيديها وتغني فرحا لقدومه، قبّل وجنتيها ويديها، وشرعت هي تقبّل رأسه وخديه.

تنحنح مفيد وطلب منها أن تتمهل في تقبيله فلا أحد يعلم أين كان وجه هذا الملاك الأسود مدفونا!

لم تعره الجدة انتباهًا، ثم أخذت تلوم يوسف على تأخره في زيارتها.

تذرّع يوسف بكلية الطب وجدولها الدراسي بالغ التعقيد. وقال:

– سجلت اسمي في الحصص الصيفية، سأحاول أن أختصر مدة الدراسة من 7 إلى خمس سنوات.

– ألن تزور أهلك في الصيف؟

– سأفعل، لكن لن أطيل البقاء.

– المسكينة والدتك، كلما ذكرت اسمك تبدأ بالبكاء، إنها تعيش على أمل لقياك.

– سأصحبها معي لدى عودتي، فتقضي بضعة أسابيع هنا في المدينة.

أثنت الجدة على رأيه، ودعت الله أن يحفظ والدته وأهله، ويطيل أعمارهم.

بعد قليل دخل عيسى بهنا يحمل بعض العلب المغلقة. نظر إلى مفيد ويوسف كمن تفاجأ بوجودهما. لم يتكلم إلى أحد، فوعده مفيد أن يعطيه 250 ليرة إن هو ألقى التحية. دخل المطبخ ووضع العلب في غرفة صغيرة جانبية مخفية، ثم عاد فصافح الجميع معتذرا ببلادة تتماشى مع مظهره الخارجي والضخم.

بدت الجدة سعيدة بقدومه وسألته عن فاتن. قال إنها ستأتي لزيارتها غدا.

قالت إنه لن يغادر حتى يتناول الطعام معهم. قبلَ أن يعتذر، سحبه مفيد من يده وأجلسه إلى جانبه، قال إنه أمام مجنون إما ابن حرام من يرفض طعام الجدة.

وضع بعضا من العرق في كأسين وقرع نخب عيسى وفاتن، وشرع الاثنان بالشرب.

بعد قليل حُلت عقدة لسان عيسى، فشرع يتحدث عن أيام عمله كحارس على الحدود بين سوريا ولبنان، وكيف كان يعترض بغال المهربين المحملة بالأجهزة الثمينة. قال:

– يُطلق على تلك البغال اسم "بغل الضربة" أصحابها كانو يعبرون بها الحدود بضع مرات خالية من الأحمال، كل ما يلزم حتى يتذكر البغل أو الحمار الطريق مروران متتاليان، فكلاهما حيوان ذكي كما تعلمان. وعندما يطمئن المهّرب إلى أن بغله قد حفظ الطريق يعود به إلى لبنان فيحمّله بمختلفة البضائع الثمينة، ويضربه على مؤخرته فيذهب البغل وحيدا إلى الطرف الثاني من الحدود.

كانت مهمتي أن أعترض تلك البغال وأسلّمها إلى مركز حرس حدود تل كلخ. قاطعه مفيد:

– حتى يقوم مدير المركز ببيعها بدوره.

– لم أكن أعلم ذلك في حينها.

– ومتى علمت يا.. بعدي (وكان يريد أن يقول يا بغل).

زم عيسى فمه فغار في تقاطيع وجهه الضخم حتى كاد يختفي. وقال:

– في إحدى المرات وعلى غير العادة، طُلب مني أن أرأس دورية الحراسة، نعم أنا ضخم وسريع في الركض، وأستطيع أن

أوقف بغلا بمفردي وبيدي العاريتين، لكن قيادة دورية أمر لم أحلم به، فالكثير من الحرس أقدم مني وأرفع رتبة عسكرية. المهم ذهبت مع عرّيف ومجند حديث العهد، ورابضت على رأس تلة الزعتر التي تطل على النهر الكبير الجنوبي الذي يفصل شمال لبنان عن سوريا، فمن هناك أستطيع رؤية البغال المحمّلة، كان البدر مكتملا والرؤية ممكنة!

بعد قليل من الوقت أيقظت العريف، وطلبت منه أن ينزل معي أسفل التلة، فقد لمحت حركة غير مطمئنة وكأنها قطيع من البغال. قال لي إن قدمه تؤلمه، كنت أستطيع أن أجعله ينزل معي فأنا أقدم منه في السلك، لكنه لئيم ومدعوم، فقررت تحاشيه، سحبت المجند الشاب وذهبت.

عندما وصلت إلى الجسر الصغير على النهر، لم أجد البغال بل صف من الشاحنات تقوده سيارة دفع رباعي، لقّمت الكلاش وشرعت أركض إليها، قبل أن أصل ميزت شاحنتي بيك أب في رأس القافلة وشاحنتين في الخلف، وكل منها مزودة بمدفع رشاش مضاد دروع، رأوني قبل أن أصل إليهم وسمعتهم يلقنون مدافعهم، وصوتا عسكريا قويا يأمرني بالوقوف "قيف" فوقفت.

كانت القافلة تابعة لفواز الأسد تضم نحو 20 رجلا مسلحا، لم أكن مستعدا للموت، ولم أكن لأمنعهم على أي حال، فبأسلحتهم

وعديدهم كانو قادرين على احتلال مفرزتي أمن.

أشرت إلى المجند أن يعيد سلاحه إلى مكانه، ناداني رجل ضخم بنفس حجمي حتى أقترب منه، قال إنه يعمل لصالح شيخ الجبل، وهذه البضاعة تخصه.

هززت رأسي مرتين علامة الفهم، ثم أشرت له أن يتجه شرقا نحو تل كلخ، فالطرقات هناك معبدة، شكرني وصافحني ثم ذهب بمن معه.

قال مفيد إن المهرب الأكبر في المنطقة هو فواز السفيه، الذي قرر احتكار التهريب لنفسه، فدفع شبّيحته يستولون على بضائع المهربين فيبيعونها بدورهم.

تململت الجدة حليمة، فلم تكن تحب هذا الصنف من الحديث. قالت بأن الجدران لها آذان.

ضحك مفيد وقال بأن هذا ليس سرًا، فحتى "جاكي شان" رئيس الصين يعلم به. نظر إلى عيسى الذي صمت عن الحديث. فسأله مفيد أن يكمل. فقال:

– وشى بي العريف الذي كان على علم مسبق بعملية التهريب، سُرِّحت من خدمتي، وحرمت من راتب التقاعد، بعد فترة توقفت

عن البحث عن عمل مناسب، ولأني أعرف طرق التهريب تعاونت مع بعض المهربين الذين كنت أوقفتهم من قبل، شرحت لهم قصتي وصدقوني، أخبرهم عن الطرق والأوقات المثلى لتهريب البضائع، وأقوم برشوة بعض الضباط والمجندين ممن أعرفهم لتسهيل التهريب. المهربون يأتون إليّ بالبضائع وأنا أصرّفها هنا.

وأشار إلى المطبخ حيث وضع صندوقي دخان أجنبي فاخر ومطلوب في السوق.

– الحياة كريمة والحمد لله، عندي سيرفيس ملك خاص، اشتريت أخيرًا شاحنة نقل، وأموري طيبة!

أسند ظهره إلى الكرسي خلفه كجبل يتأرجح.

نظر عيسى إلى مفيد وابتسم، ثم نهض مستأذنا في الذهاب.

شكرته الجدة على قدومه وقالت له أن يأتي باكرا مع فاتن.

راقب مفيد جسد عيسى الضخم يغادر، ثم نظر إلى يوسف والجدة، وقال:

– هل رأيتما يديه؟ إنهما أكبر من سهل البقاع. بعد ضحكة مقتضبة قال:

– هذا الإنسان "سرفايفر". عقدت الجدة حاجبيها. فأضاف:

– لو أن شخصا غيره تعرض لمثل هذا الموقف، لفقد عقله،

لكنه كحال أولاد هذا البلد الداعر، يتقبلون كل شيء فاسد وكأنه أمر مقدر ومحتوم. لك هذا البلد كله "سرفايفر".

كان مفيد قد أكل كفايته، وشعر بأن عليه أن يشرب القليل من الخمر المتبقية في منزله، قال:

– يجب عليّ أن أنهض باكرًا، أستأذنكما في الرحيل.

قال يوسف إن عليه أن يغادر هو أيضًا.

أجفلت الجدة، وضعت يدها على صدرها:

– ألن تنام الليلة هنا؟ وأشارت إلى غرفته التي أعادت توضيب أسرّتها وتهيئتها لاستقباله.

– لا أستطيع يا نانا، عليّ التحضير للامتحانات، سأبيت خارج المنزل طوال الوقت، وسأعود الأسبوع المقبل.

تمنّعت الجدة، وأبدت حزنًا واضحًا على رحيله.

نهض قبّل يديها ورأسها ووعدها بأن يعودها الأسبوع المقبل ويقضي ليلته عندها. سألها إن كانت تريد أي شيء.

قالت إنها تريد أن تراه أكثر، نبّهته مرة أخرى إلى رفاق السوء في الجامعة وضرورة تحاشيهم، وسألته عن الأصدقاء الذين يقيم عندهم وعن أخلاقهم، قال إنهم أشخاص طيبون، قبّلها مرة أخرى ورحل.

6

اضّجعت الملكة على الأريكة اليتيمة في صالة منزل مفيد.

قالت إنها تُضاجع في السر، وتَخدم في السر، وتقوم بكل ما يخجلها بالسر، فهذا هو مفتاح الحياة السعيدة، رفعت رجلها إلى أعلى حافة في الأريكة فبان سروالها الداخلي الأبيض، وأضافت:

– أنا أحب المضاجعة، ولا يكفيني أربعة رجال في سرير واحد، وأحب أن أغيرهم كما أنواع الأطعمة، لكني إن فعلت هذا على الملأ، فلن أفقد صديقاتي وعملي فقط، بل سيذبحني أولادي أنفسهم.

أنا من دون رجال أصبح نارية المزاج ويائسة، وأتحول إلى شجرة ذابلة، ومضطربة، أريد منهم أن يضاجعوني لا أن يحبوني، إن الرجل الذي يحب امرأته ويخلص لها يذوب كالشمعة.

نبّهها مفيد إلى أن تلك أغنية جبلية، فضحكت وقالت إنها تعلم، ثم شرعت ترددها بلحن مكسور:

حاجة مطر يا ربي

وحّل درب محبوبي

واللي يعشق ما يخون

متل الشمع يذوبي

عادت ترنّمها ومفيد يصفق ويضحك.

نهضت عن الأريكة بسرعة ووقفت كأنها تتأهّب لعراك، وقالت:

– أنت ترى يا أستاذ، فأنا امرأة غير متعلمة، لكنني أتبع أهوائي وأتعلم مما هو متاح أمامي. على عكسك أنت، أنا مؤمنة بأنني بحاجة إلى تعليم كثير، فأبقي أذني وعيني مفتوحة، وعلى استعداد لأتعلم من كل فرصة سانحة، أما أنت فقد درست الكثير، وقرأت الكثير، سجنت وعذبت من أجل ما تؤمن به، وهجرك أقرب أصدقائك ومستقبل واعد كطبيب ناجح، ولم تعد لديك القدرة ولا القناعة لعمل أي شيء، وفقدت رغبتك في التعلم منذ أن اصطدمت بالواقع وسقطت مع مبادئك، ومثالياتك.

أنا أخبرك بهذا كله لأني أعرف أنك لن تحكم عليّ، لقد فقدت بوصلتك منذ زمن، وما عدت تميز بين الصواب والخطأ، ولهذا فلن تقوم بأي رد فعل، حتى عندما أطلب منك مزيدًا من النقود،

فستعطيني، لأنك ما أنت عليه، أنت الأستاذ.

أحس الأستاذ بلسع كلماتها، وبضيق على إثره أراد طردها من المنزل.

لم يكن ضاجعها بعد، لذا ارتأى أن يؤجل افتعال مشكلة وطردها خارج المنزل إلى حين الانتهاء من ذلك.

وحتى يخفف من حنقه شرع يفكر بأنها فتاة كملايين المساكين حول العالم لو توفر لها تعلم طيب لربما كانت تفكر وتتكلم بطريقة مختلفة.

نظر إليها بابتسامة مصطنعة، فرمقته بنصف عين، كانت مستاءة لأن يوسف غادر بسرعة، وأدركت خطته اللئيمة، فلو دخلت منزل مفيد دون أن تجده لكانت أقامت الدنيا ولم تقعدها.

صرفت الفتاة الصغيرة التي كانت برفقتها، وقالت لنفسها بما أنها هنا فلتضاجع هذا المسكين.

قال مفيد يريد تغيير الحديث متحاشيًا استفزاز الملكة:

– أخبريني عن الطبّال، كيف حاله هذه الأيام؟

– سليم؟ أضافت بدلع يوحي بأنها مدير أعمال ناجح وكفء يحسب ويجني أرباحه بدقة.

– منذ أول يوم سمعته يغني في الكباريه، علمت أنه سيكون مغنيًا ذا شأن، كان عليه فقط أن يجد شخصًا يعطيه طرف الخيط.

قال مفيد متهكمًا:

– أنت الخيط، وطرف الخيط، لك. أنت الطريق وزهر الطريق يا قمر.

ضحكت الملكة، لكنها أرادت أن تكمل الأداء المسرحي البطولي الذي من خلاله تتبجّح بقدراتها التي أوصلت طبالًا حقيرًا إلى قائمة المبيعات الأولى في الأسواق. وقالت:

– للحقيقة، أصعب ما في الموضوع كان إقناع بتول، مديرة أعمال السيدة ليلى باحتضانه، فمعارفها الكثر كانوا أقوى من أي سوق كاسيت أو غيره، السيدة ليلى تصل إلى كل شيء، المهم أن تقنعها بأن الشيء ذا قيمة فتنفعه.

– آهاه.

– هذا السليم اللئيم، وبعد أن بدأ يشتد عوده حاول التملص من العقد الذي يتيح للسيدة الاستحواذ على 50 بالمائة من دخله، المسكين كاد يسقط سقوطًا مروّعًا.

– ماذا فعل؟

– أراد أن يغني أغاني خاصة، والابتعاد عن أغاني الدبكة

والرقص، ورفض الغناء للرئيس، كما أنه قال لبتول إنه سيعطي السيدة ليلى 10 % من دخله، لكن دون توقيع عقود، فأعمالها مشبوهة، وقد تؤثر على خطه الفني.

– ثم!

– لا شيء.. نكحته سيدتي شر نكاح.

ضحك مفيد وقال إن هذه القصة من اختراعها هي، وعندما اتخذ مظهرها جدية أكبر، تساءلت متى قبض عليها تكذب!

كان يريد أن يقول لها إنها عبارة عن كذبة على قدمين لا يتفوق على سفالتها سوى تفاهتها.

لكن شهوته كانت مستعرة، فقبّلها مفيد في مؤخرتها وعضها لاهيًا، وقال:

– إنني أعبث، لمَ هذه الحساسية الزائدة يا زينة الملكات؟

– لا لشيء، أنت سألتني، فأخبرتك بالحقيقة، وإذا كنت لا تثق بكلامي فلمَ سألتني؟

– إيييييه، سامحيني يا زهر الرمان، سامحيني يا غالية، ثم قرع كأسه بكأسها داعيًا إلى شرب نخبها. شربت قليلًا وتابعت:

– أرسلت له سيدتي هدية كتلك التي تلقاها صاحب ستديوهات هوليوود في فيلم "العراب"، هل شاهدته؟

– لم أشاهده، لكني قرأت الكتاب.

– هل أعجبك؟

– أعجبني وأغضبني واا...

قاطعته:

– لماذا؟

– لأن كلا من بشار الوحش والمقبور صدام معجب بالفيلم والكتاب. المهم ما لنا وما لهم، تابعي قصتك عن سليم.

– لا شيء، عاد فوقّع العقد، وطلب من السيدة أن تسامحه على طيشه، وأن تساعده في عمله وتتولى الأمور اللوجستية لحفلاته، ووافق على الغناء للرئيس، وأصبح يغني في الحفلات التي توافق عليها السيدة فقط.

– لكن صوته جميل هذا الشقي.

– نعم، لكن بلا إحساس، في الأساس لم يكن لديه إحساس، لكنه وبعد أن وفرت له السيدة بتول أساتذة غناء لتدريبه، وبعد فترة وجيزة من نجاح أولى أغانيه، أصبح يعيش دور الفنان والموسيقي مرهف الإحساس، قدم أغنية بدوية رائعة، لكنها فشلت فشلا ذريعًا.

– ربما لأن البشر يرفضون ما هو حقيقي وصادق.

– أبدًا، إن البشر بمعظمهم قوم كافرون إلا أنهم يعشقون الفنان الصادق ويقتلون في سبيل بعض الحقيقة.

– فيلسوفة أيضا؟

– أنت من أخبرني ذلك يا زيكو.

– صحيح، معك حق، بدت لي تلك الكلمات مألوفة.

– فشل سليم يا حبيبي، لأن سيدتي أرادت إفشالها.

– آها! وذاك أيضًا.

– وعلى ماذا حصلت أنت من اكتشافك هذا؟

– أنا لست موظفة لأتقاضى أتعابًا، وأنت تعرف أنني لا أطلب شيئا لنفسي، لسيدتي الحق في أن تعطيني متى أرادت، تماما كما تفعل أنت.

نظر مفيد إلى عينها، كان الخمر بدأ يزهر في أوردته، وبدأ يرى الملكة وقد أصبحت كتلة من الجمال أكثر من أي وقت مضى، تحمّس وطلب منها أن تقبّله في شفتيه، ضحكت وفعلت، ثم عضّته بشقاوة، فندّت منه آهة قوية مضحكة.

قام مترنحًا فأغلق جهاز التلفاز، وأطفأ النور، وامتطاها إلى أن أرادت الملكة غير ذلك.

***

الفصل السابع

الأبيض ثم الأسود

بدأ كل شيء في نهار سعيد من حياة هانئة ومتصالحة، كانت ساندرا كعادتها قد استيقظت قبل يوسف، نهضت إلى المطبخ وأعدت إفطارا من الفاكهة والحبوب مع بعض الحليب، كانت ترفض إطعامه الخبز الأبيض والأطعمة الدسمة، وتجبره على ممارسة الرياضة والذهاب إلى المسبح، فهي ترى أن السباحة أفضل الرياضات الموجودة.

لم يقو يوسف يومًا على رفض طلباتها، كانت مهتمة بصحته ونجاحه أكثر منه، لم يدرك كلاهما أن تلك السعادة لا تأتي إلا بثمن باهظ.

كان يوسف يعد لامتحانات السنة الرابعة في كلية الطب، ويقيم مع ساندرا لا يغادر منزلها، إلا لرؤية حليمة ومفيد، أو لمتابعة محاضراته المهمة، وحصص التشريح العملي. غادر صباح ذلك

اليوم ليقدم امتحانه الأخير للسنة، قبّل ساندرا وعانقها طويلا.

طلبت منه ألا يتأخر في العودة إلى المنزل، وإلا ستصاب برهاب حاد، قبّلها مرة أخرى وغادر.

ابتسم يوسف في قاعة الامتحانات عندما تذكر حنق ساندرا على التعليم الحالي الذي يفصل الطالب عن كل العلوم الأخرى والفنون، ويركز على اختصاص وحيد، لقد أصبحت ساندرا تعيش في كل مفردات حياته.

أنهى امتحانه، غادر إلى محل الزهور، اشترى وردة جورية حمراء، وقصد منزلها.

قرع الباب مرارًا لكن دون جدوى، فدخل بمفتاحه.

كانت ساندرا ممدة على الأرض والدماء تسيل من رأسها، حاول أن يوقظها لكنه لم ينجح، كانت تتنفس بصعوبة، قاس نبضها، كان ضغط دمها منخفضًا جدًا، هزّها قليلًا حتى تحركت عيناها، عادت فأغلقتهما، حملها وجعل يركض بها كالمحموم إلى أقرب مستشفى.

بعد عدة ساعات أخبره الطبيب أن بإمكانه الدخول إلى غرفتها والتحدث إليها على ألا يطيل، وأن عليه إجراء مزيد من الفحوص لقلبها ودماغها.

دخل يوسف فقبّل رأسها وشفتيها، ويديها، ابتسمت له ساندرا بشيء من الأسى والحزن.

شعر بضيق في صدره، وبأن شيئًا سيئًا أسود يتربص بهما، لم يدرك ما هو.

قال محاولًا تبديد خوفها:

– ألا تستطيعين لفت انتباهي بطريقة أخرى؟

– أنت المسئول، كيف تكون طبيبًا وتدع هذا يحدث لي؟

غمزها بشقاوة وطلب منها أن توفر طاقتها إلى المساء، فهي ستحتاجها. قبّلها كثيرًا وأجبرها على إغلاق عينيها لتأخذ قسطًا من الراحة، فالأطباء أخبروه بأنها متعبة فقط، ومصابة بجفاف بسيط.

خرج يوسف من الغرفة وشرع يراجع كل التقارير الطبية عنها، وطلب إجراء تخطيط دماغي سريع لها.

كان أحد أساتذته طبيبًا في المستشفى، فطلبه على عجل، وسأله أن يسرّع إجراءات المستشفى الروتينية، فبالنسبة له كانت القضية ملحة.

بعد بضع ساعات كانت ساندرا في غرفة الرنين المغناطيسي، كان يوسف يراقب الجهاز مع أستاذه، حين سقطت يداه على المنضدة، وعض شفتيه.

طلب منه الطبيب ألا يجزع، فقد تكون القطعة ورمًا غير خبيث.

قال يوسف:

– أرجوك، علينا أن نفحصها بأسرع وقت، أرجوك.

– لا تقلق، سنفعل.

عندما دخل يوسف غرفة ساندرا، أدركت من وجهه أن مرضها مسألة جدية.

عبثًا حاول يوسف أن يداعبها، إلا أن كذبه كان مفضوحًا.

قالت:

– لن أقص شعري، يمكنهم أن يقطعوا رأسي، أما شعري فلا.

ثم ضحكت أمام وجه يوسف الذي أصبح كقطعة من القماش الأزرق، وطلبت منه أن ينظر إلى المرآة ويرى سر ضحكتها.

عادت ساندرا إلى المنزل كي تعد بعض أغراضها، وكان عليها العودة إلى المستشفى حتى تخضع لفحوص أخرى توجب عليها البقاء لأكثر من أسبوعين.

أخذت حمامًا ساخنًا، وخلدت إلى فراشها، طلبت من يوسف أن ينزع ملابسه، ويحضنها.

قال:

– لستِ بحاجة إلى أن ترهقينا خلفك في المستشفيات كي تجبريني على النوم عاريًا، كل ما كان عليك فعله هو أن تطلبي ذلك.

خلع ثيابه على عجل واندس خلفها يقبّل رقبتها وخدها، بعد بضع دقائق كانت تنام بعمق.

2

– هل أنت سعيد الآن؟ انظر كيف يبدو رأسي كالتفاحة.

ضحك يوسف وأخبرها بأنه سيتمكن الآن من تقبيل كل قطعة من جسمها.

ضربته بالوسادة، وطلبت منه أن يقبّلها، ففعل، ثم نهض يقبّل رأسها حليق الشعر، حتى استسلمت للنوم.

كان يوسف يعاني كل أصناف مشاعر الخوف والحزن، وكانت ساندرا تقرأ في عينيه كل التقارير السيئة التي ينقلها له الأطباء عن ورمها الخبيث.

شرع يطالع كل الكتب الطبية الممكنة، وينام بضع ساعات في النهار.

قال له الأطباء إن عليه ألا يجهد نفسه، وأن يحافظ على صحته جيدة حتى يستطيع قضاء الأسابيع القليلة المتبقية معها.

بعد أن ملّ التقارير الطبية، واليأس من أي سبيل علاج، بدأ يصلي لأول مرة منذ كان في الرابعة عشر من عمره، وعاهد نفسه إن شفيت ساندرا، بأن ينذر حياته للصوم والصلاة ما بقيَ حيًا. كان يستطيع التشبث بأي شيء وبذل أي تضحية كي يبقي على حياتها.

عاده مفيد في المستشفى، وأخبره بأن الجدة حليمة تسأل عنه كثيرًا، وبأنه استنفد كل الحيل التي لديه لتبرير غيابه، كما أن عليه الاتصال بوالدته، إذا لم يكن يرغب في قدومها إلى المدينة.

سأله إذا كان بحاجة إلى نقود، فنفى.

عانقه وقبّله، ثم همّ يغادر، وصل إلى باب الغرفة حيث كانت ساندرا ممددة، التفت إليه وطلب منه ألا يفقد الأمل، وأخبره بأن الوحيد الذي لا يخطئ هو الله، وربما الشيطان أيضًا، أما البشر فقوم تافهون لا رأي صحيح أو ثابت لهم، وبأن الأطباء هم أوسخ أنواع البشر على الإطلاق.

3

استيقظت ساندرا فرأته يغفو بجانبها، أيقظته وطلبت منه أن يعانقها، احتضنها طويلًا، أراد أن يتحد جسدها به، وأن يذهب معها في أي طريق تختاره، باتت حرارة جسديهما تزداد وكأنهما أصبحا قطعة لحم واحدة، أشاحت ساندرا بوجهها عنه، وشرع كلاهما يبكي، أخبرته بأن الطبيب قال إن أمامها أقل من أسبوع، وبأنها نادمة لأنها قصت شعرها بالمجان، قالت إنها راغبة في المبيت في منزلها، وقضاء وقت ممتع معه، ثم غمزته محاولة تقمص دور الفتاة المغرية.

طلبت منه أن يشتري طعامًا يكفي لمدة شهر، وأن يخزن بعضًا منه في غرفة نومها والبعض الآخر في الثلاجة. أضافت بعد صمت ميت:

– اسمع، أريد أن تعدني بشيء.

اقترب منها، حملها وأجلسها في حضنه.

– عليك أن تتزوج، وتنجب أطفالًا كثرًا، وأريد أن تسمي إحدى بناتك باسمي.

قالت له مشددة:

– إذا أردت البقاء معي للفترة المتبقية عليك أن تعدني بذلك.

هز رأسه على مضض. صمتت، وأدارت وجهها عنه.

كانت تتألم بمرارة لعدم إنجابها طفلا منه، أرادت إنجاب طفل يتوّج قصتهما، ويخلد ذكرى حبهما إلى الأبد.

"لقد ظننت أن الوقت ما زال مبكرًا، لم أرد لأحد أن يشاركني فيك، كم كنت حمقاء".

شرعت تبكي بحرقة فشلت في كبت نشيجها، كانت دموعها ساخنة جدًا.

يوسف الذي بدأ يتناول بعض المهدئات، شعر بأمعائه تعتصر، وكأن الدماء قد تجمدت في معدته وشرعت تتحرك بعيدا عن جسده، قام فاحتضنها، وشرع يقبّلها.

صرخت وطلبت منه أن يعدها بتسمية ابنته تيمنًا بها، قال إنه سيفعل.

4

الزمن لا يعلّمه الحزن

في صباح التاسع من يونيو 2009 كانت ساندرا جثة هامدة بين يدي يوسف. قبل أن تفارق الحياة بساعات طلبت منه أن يحملها خارج المنزل، فهي لا تريد أن تموت بين أربعة جدران، لفها يوسف بغطاء السرير، حملها وذهب بها إلى الحديقة المجاورة لمنزلها قرب النهر الذي يقسم المدينة إلى شطرين، هناك جلس على العشب وأجلسها في حضنه، طوّقها بذراعيه.

كان الوقت ليلًا وكانت النسائم جميلة منعشة تمر عليهما برفق، فجعلت ساندرا تستنشق بملء ما تبقى من رئتيها المتعبتين.

كانت تصارع لحظات الإغماء المتكررة حتى ترى يوسف، فترفع وجهها نحوه كي يقبّلها.

حضنها يوسف بين يديه بقوة، كان يستطيع أن يشعر بروحها تغادرها، جعلهُ تسارع الأحداث والسهر أكثر سهوًا عما حوله، إلا أن ذلك لم يشتت انتباهه عنها، لم يكن يرى سوى ساندرا الجميلة الحلوة العذبة، طلبت منه أن يكرر وعده بتسمية ابنته تيمنًا بها، ففعل.

قالت له:

– إن الدنيا يصنعها أبيض وأسود، فلولا ساعات الألم والحزن، ما استطاع البشر تقدير لحظات الفرح، وتقدير ساعات النشوة.

توقفت قليلًا عن الكلام وشرعت تدندن بأغنية (Roma Criola).

كانت تبذل مجهودًا جبارًا حتى تفتح فمها، عادت فابتسمت من جديد. وقالت:

– إن سعادة هائلة كالتي جعلتني أشعر بها، لم تكن لتمر بسلام. أنا لست نادمة على شيء فيها، تلك اللحظات التي قضيتها معك كانت أعظم ما في حياتي. أنا أسعد إنسانة في الدنيا لأنني أدرك أنني سأموت بين ذراعيك، ولأني سأغادر هذه الدنيا قبلك.

كانت تتألم شوقا إليه وهي بين ذراعيه، فقليلا لن تراه.

قالت له إنها تريد أن تستنشق رائحة أنفاسه الحلوة، اقترب

منها بكل ما أمكنه من هدوء، لامس شفتيها، وقبّلها بصارع ألمه وغضبه.

شرع يوسف يبكي بحرقة مكبوتة، عض شفتيه بكامل قوته... بدا طعم الدم الحار غريبًا في شفتيه، وكأنه يتذوق طعم اللحم بين أسنانه.

قالت إنها سعيدة جدًا لأن عينيه وشفتيه آخر ما ستراه وتلمسه شفتاها، حاولت أن ترفع وجهها كي يقبّلها، وسقط رأسها على صدره.

***

اكتشف يوسف بعد أيام من وفاة ساندرا أنها سجّلت منزلها باسمه، وكذلك فعلت بنقودها في المصرف، نهض عن سريره يجر رجليه جرًا، ثم اتصل بالمحامي، طلب منه أن يحول كل شيء امتلكته ساندرا إلى أموال سائلة، وأن يعطي المبلغ إلى ملجأ "مريم" للأيتام، على أن يسلم الشيك للسيد المدعو رياض ناصيف حصرًا، وعندما استفسر منه المحامي، أوقفه يوسف على عجل، وطلب منه أن يقوم بالمطلوب بأسرع وقت ممكن حتى يوقع الأوراق، أو يستيعن بمحام آخر.

اختفى يوسف لمدة أسبوع إلى أن وجده مفيد بين الحياة والموت

فوق قبر ساندرا، فحمله سريعا إلى أقرب مستشفى.

حليمة التي كادت تموت من فرط خوفها عليه، أجبرته على الإقامة في منزل مفيد، كانت تعرف أنه قد لا ينجو إن بقي حبيسًا في منزلها، فوافقت أن يبقى في منزل مفيد على أن تزوره كل يوم وتطعمه بيدها.

كان مفيد يدرك السأم الذي كان يعانيه يوسف، فطلب إجازة مفتوحة غير مدفوعة من وظيفته حتى يرعى الفتى، لم يكن قادرا على تحمّل رؤيته متألما.

توقف مفيد عن تناول الكحول، ليعتني به، وأنفق النقود القليلة التي يحوزته في شراء أدوية باهظة الثمن، كذلك فعلت حليمة التي لم تقتصد في نقودها أو حنانها تجاه يوسف.

كما طلب منهما يوسف، لم يخبرا أهله في القرية، فوالداه يعانيان أمراضًا تكفيهما.

نحل يوسف كثيرًا، وعبثًا حاول مفيد دفعه إلى الكلام أو الخروج من المنزل، إلا أن الأخير كان ساهيا عما حوله، لم يستطع إدراك رحيل ساندرا المفاجئ عنه دون مقدمات، إن البشر يهرمون ثم يعانون مختلف الأمراض قبل أن يفارقوا الحياة، كيف يمكن أن تختفي ساندرا عن الوجود في أقل من شهر؟

كانت بهية الجمال، تنبض حياة وحيوية، كيف يمكن أن تختفي

بهذه السهولة؟ كيف يمكن لها أن ترحل؟ تساءل يوسف كثيرًا عن معنى الحياة التي يمكنها في لمح البصر أن تخطف منا أغلى ما نملك.

أخبره مفيد بأنه عندما يواجه البشر العالم بقدر وافر من الشجاعة، فإن على العالم أن يكسرهم أو يقتلهم، إنه يكسر الناس جميعًا، وبعد ذلك ينشئ كثير منهم في مواطن الكسر، أنسجة عظمية جديدة.. أما أولئك الذين يستعصون على الكسر فإنه يقتلهم... إنه يقتل ذوي الصلاح البالغ، واللطف البالغ، والبسالة البالغة على حد سواء. وأضاف:

– لا شيء يموت حقًا في هذا الكون، إنما يتحول إلى شيء آخر، حتى لو بعد حين.

ازداد يوسف غما فأغلق عينيه، تذكر بحرقة كيف فشل في إنجاب طفل من ساندرا.

توقف مفيد عن إطلاق النكات عندما سمع جرس الباب، كان الوقت متأخرًا، لم تكن الجدة حليمة، بعد قليل قرع الجرس مرة أخرى، فذهب يرى الطارق.

كعادتها، تأففت الملكة من تأخر مفيد، وصممه قال:

– ليس الآن يا سعاد، الوقت غير مناسب

– لم آتِ من أجلك، أتيت أطمئن على يوسف.

لاحظت ذهوله، فأضافت أنها تعرف كل شيء يجري في هذه المدينة الملعونة، وكل شيء متعلق بيوسف، فهي مهتمة بأمره كثيرًا، وقبل أن تنهي جملتها الأخيرة كانت وصلت إلى غرفته.

حيّته وجلست إلى جانبه، ثم سألته:

– لماذا توقفت عن الذهاب إلى الكلية؟

تابعت عندما لم تجد جوابًا:

– بسبب ساندرا؟

نظر يوسف إليها ببعض الأسى والحقد.

أخبرته الملكة بأن الحياة لا تنتظر من لا ينتظرها، وبأنها وسيدتها بتول والست الكبيرة ليلى، وكل سيدة في المدينة يكدن يجنّ حتى يضاجعنه، وتمنت أن يتعافى بسرعة ويرجع الدم إلى وجهه النحيل حتى تعرّفه بالست ليلى، وترفع من شأنه، فهي تستطيع حل مشكل أي رجل في العالم.

لم يتفوه يوسف بشيء، وتابع ينظر بعينين زائغتين إلى الأرض، شعر برأسه ثقيلًا جدًا، أغمض عينيه، وقبل أن يدخل في كوابيس قاتمة ونوبات إغمائه المتكررة، سمع مفيد يتحدث إلى سعاد يطلب منها أن يستدين بعض النقود.

قبل أن تغادر سعاد، دخلت إلى غرفته، وهمست في أذنه قائلة إن عليه أن يتحمل مسئولية مفيد وحليمة وأهله، فهو ليس صغيرًا.

نظرت الملكة إلى مفيد، فأمسك بيدها واصطحبها إلى باب الشقة، قال إن الأطباء وصفوا مهدئًا قويًا ليوسف، وإنه ينام 20 ساعة في اليوم.

شعرت سعاد ببعض تأنيب الضمير، وتساءلت إن كان يوسف حقًا في خطر يهدد حياته.

كان لديها ما يكفيها من النقود، لكنها لم تكن لتعطي دون مقابل. عادت فجلست على الأريكة وطلبت من مفيد أن يجلس بقربها. وقالت:

– عندما يستفيق يوسف أخبره بأن والده قد خسر الكثير من النقود في لعب القمار، باع أرضه ورهن منزله إلى حين سداد قروضه، لكنه لن يفعل، وأنا لست حزينة من أجله، بل لأجل تلك الحمقاء زوجته التي سترمى إلى الشارع رغم كونها قديسة، ورغم تحملها نزق زوجها وطباعه المقيتة، وعليك أن تخبر يوسف بأنني سأستدين من سيدتي نفقات علاجه، وفك رهن منزل والدته. عليك أن تجعله يدرك أنه مسئول عن أهله، وعن الذين يحبونه خاصة أنت وحليمة، وأن عليه أن ينتظر وفاة والدته وحليمة قبل أن يقتل نفسه.

– كيف ستقنعينها بدفع كل تلك المبالغ؟

– لا عليك، فقط افعل ما أقوله لك، عليك أن تخبره بأنه في المقابل عليه أن يسدي سيدتي معروفا، وعليه أن يعمل لديها حتى يفك دينه.

لم تنتظر رده، نهضت من مكانها، فتبعها مفيد إلى باب المنزل، كانت لا تزال تشتم يوسف ومفيد على تلك المصيبة التي وضعاها فيها، تمتمت بأن حلمها التعرف إلى شخص واحد في حياتها دونما أن يكون عليها أن تساعده أو تحمل همومه معها إلى وسادتها.

فتحت الباب وشتمت مفيد مرة أخرى، وشددت على ضرورة أن يخبر يوسف بما قالته حال استيقاظه، وبأنه ما إن يفعل حتى يتصل بها على وجه السرعة حتى تجلب له النقود اللازمة.

الفصل الثامن

رحلت...

ها هو كغيره يعاني رحيل أحبّته، انكسر أمام حياة تستطيع أن تأخذ فجأة كل شيء وفي لحظة واحدة، تساءل بمرارة كيف يمكنه أن يستبدل هذا الألم بأي شيء آخر؟

قال لمفيد بعد رحيلها إنه مستعد لأن يدفع عمره كله مقابل بضع ساعات أخرى مع ساندرا، وعندما أشار مفيد إلى أهله وأحبته، قال إنه وحيد، وحيد من أهله، ومن أحبته، ومن أصدقائه، وحيد ضد العالم.

كانت خسارته ساندرا حزنه الأكبر، لم يكن يستطيع أن يقايضه بأي شيء. كيف يمكن لشيء بهذا الحجم أن يكون بلا ثمن؟

نهض مفيد واقترب منه بكل ما أمكنه من هدوء. وقال:

– تك.. تك.. تك.. تك.

وضع مفيد يده على الكرسي إلى جانب يوسف، شعر بوهن في جسده يمنعه من الوقوف.

نظر إلى يوسف ثم إلى الأرض، وشرع يتكلم:

– تك. تك. كانت تلك قطرات مطر تصدم وجهي كما شاحنة، ثم تنساب إلى الأرض فتختلط بدمي الممدد بجانبي.

اخترقت صدري ومعدتي 3 رصاصات، استيقظت ممددًا على الأرض، كان الألم لا يطاق، وكأنه صداع رأس فاجر يقطّع معدتي وصدري.

بعد وقت لا أعرفه بالتحديد، سحبت جسدي حتى أصبحت قريبًا من الطريق العام، كانت هنالك أسرة تتناول طعام غدائها بالقرب من غوطة دمشق، لحسن الحظ، أو لسوئه.

رآني الأطفال مضرجًا بدمي فنادوا على أهلهم.

بعد يومين استيقظت في المستشفى الوطني. ومنذ ذلك اليوم وأنا مفيد فقط. مفيد السكير أستاذ المدرسة الفاشل.

قبل دخولي إلى السجن، كنت قد تزوجت من رأيتها أجمل نساء الكون، كنت أحضنها فأشعر بأني أمتلك الكون في قبضتي، لم يكنّ لابتسامتها ثمن، ولا لدلعها شيء يساوي ربع قيمته. بفضلها أصبح لحياتي معنى. معنى مهم، معنى حقيقي يتجاوز وجودي الفردي، معنى صنع مني بطلًا ومثالًا في ذات الوقت، قضيت سنة في سجن

انفرادي في سجن تدمر، أسوأ مكان بناه إنسان على مر العصور، ثم انتقلتُ إلى غرفة لا تتجاوز مساحتها نصف مكاننا هذا مع 36 سجينًا.

في سجني كنت أصرخ في وجه السجان كأني سيده لا تحت رحمته، كنت أدخل التعذيب فلا أخرج إلا غائبًا عن الوعي، غارقًا بدمي وبرازي، وعندما أستيقظ كنت أرعى الجرحى وأشد من أزرهم.

اكتسبت قوة خرافية بفضل من أحببتها، ودخلت السجن فخورًا بقضية جمعتني بها وصنعت مني رجلًا ملء الكون.

كنت أراها تضحك فتحمل كل ما في الطبيعة من سحر وتمرد ومفاجآت، جمال حقيقي أقسمت على حمايته والموت من أجله، وعندما دخل الأمن منزلنا، ضربتهم بكل ما أوتيت من قوة، وقفت أمام بنادقهم بصدري العاري حتى تتمكن من الفرار.

بعد سنتين خرجت بفضل عفو عام، كانت قدماي متورمتين، لكني حال خروجي كنت أركض كالمجنون لألقاها، لم تكن في أي مكان شاهدتها فيه، سألت كالمجنون عنها، وقال لي أحدهم إنها طلقتني عندما كنت في السجن، لكني لم أسمعه، للحقيقة لم أصدقه، كانت وعدتني بأن نموت معًا، وبأنها ستنتظرني حتى أعود مهما غبت.

بعد شهور من البحث المضني، رأيتها تهم بركوب سيارة

إلى جانب مازن مطر، الذي أصبح رئيس تحرير جريدة الثورة الرسمية، شاهداني أركض نحوهما كالملسوع، طَلَبت منه المغادرة بسرعة، لم أستطع اللحاق بهما.

في مساء ذلك اليوم، اقتحم منزلي أشخاص كثر وأشبعوني ضربًا، ثم اقتادوني خارج العاصمة، وقفت على قدمي فرأيت مازن يضحك ويتبادل النكات مع من كانوا يشبعونني ضربًا.

قال لي إنه يدرك أنني لن أصدق أية رواية ما لم أسمعها من صاحبة الرواية ذاتها، ثم أشار بيده إلى سيارة أخرى متوقفة إلى يمين الطريق، فخرجت دعد، قالت لي إنها طلقتني منذ مدة، وإنها لا تريد أن تراني، وإنني كنت غلطة، وإن أمثالي لا يمكنهم إلا أن يفسدوا العالم وأهله. وأضافت:

– كان والدي على حق.

لا أتذكر ما قلته بالتحديد، لكني قلت لها إنني سأضاجعها وسأضاجع أباها إذا تفوهت بأكثر من ذلك.

أتذكر أن مازن أشار بيده لمن معه، فسحبوني بعيدًا عن الطريق وأطلقوا عليّ النار.

صمت مفيد كمن يستجمع قواه. وقال:

خرجت من المستشفى بعد 4 أشهر، كنت كطفل يحاول فهم المدينة من حوله. بعض أصدقائي قبِلَ أن تحولهم سوريا إلى جزارين، قلة منهم بقوا على قيد الحياة نصف مجانين. مثلي، أما الآخرون فاختفوا

أو رفضوا الحديث إليّ في أي شأن، سياسي كان أم غيره.

وصلني نبأ وفاة والدي وأنا في دمشق، لم أكن لألحق دفنه، فبقيت مكاني أبحث عن شيء لا أعرف ما هو، شرعت في القراءة علني أفهم الحياة والبشر، لكن ذلك لم ينفع إلا في زيادة بؤسي.

في تموز 1996 دعيت إلى فرع الأمن السياسي. لم أكن خائفًا منهم فلم يكن لديّ شيء لأخسره.

أذكر أن 3 أشخاص دخلوا فجأة إلى الغرفة حيث كنت أنتظر قتلي بفتور، وسحبوني من مكاني ثم دفعوني خارجا، أعطوني ورقة مكتوبًا عليها عنوانًا قالوا إنه عنوان ظافر، أمين الحزب الشيوعي.

ركضت كمن وجد شيئًا فنى عمره يبحث عنه.

كان ظافر يقيم في فيلا فارهة بحي المزة. نهض عندما رآني، عانقني ودعاني إلى الجلوس.

قال إنه سيغادر للتدريس في جامعة أمريكية بولاية هيوستن، فهذا البلد غير مستعد للثورة، ويجب على الرفاق أن يتحلوا بالصبر حتى يحين الوقت المناسب. وأضاف بأنه لم يستطع أن يسحب قرار فصلي التعسفي من كلية الطب، وبأنه دبّر لي وظيفة رسمية في مدرسة الشعلة في حمص. أثنى على لغتي العربية الممتازة وتبحّري في الرياضيات، مؤكدًا أنني أفضل من أي مدرس لديهم.

تحدث عن محبوبتي دون أن يذكر اسمها، قال إنها خدعتهم جميعا، فهي من كان السبب في حملة الملاحقة التي طالتنا جميعا، وبأنها

نجحت في تمثيل دور الثائرة، قال إن التيار الوطني أصبح أكثر نقاء في سوريا، فقد عرّى الخونة كمازن وأمثاله من الكلاب.

"لقد غادر الحزب الشيوعي من كان يجب أن يغادر، وعلينا أن ننتشئ بالحياة لا من أجل الشعب فقط، بل لأجل أولادنا ومن يحبوننا".

نهض يفتح الباب كمن يطردني، عانقني في طريقي إلى الخارج، وقال إن رايات أكتوبر ستبقى خفاقة طالما بقي في البلد أشخاص مثلي.

اسمع يا بني، كل امرأة تحب لنفسها لا لأجل من تحب، وهذا ليس لعيب فيها، وإنما في الطبيعة التي صممتها على هذا النحو.

جميع النساء عاهرات بالفطرة، بكل تأكيد. هذا لا يعني أن الرجال أكثر شرفًا، كل ما في الأمر أن بعضهم قليل الحذر، طائش، يجعلك تصدقه، فتقتل أحلامك ومستقبلك بالإصغاء إليه.

لست أدري حتى هذه اللحظة سبب بقائي على قيد الحياة كل هذه المدة، لا يوجد أي سبب منطقي يفسر تحول إنسان مثلي إلى معلّم مدرسة سكير، كل ما يمكنني قوله إن الخمرة التي قتلت صحتي ونفسي، ربما فتتت خلايا دماغي أيضا، وجعلتني أقل تنبها وحساسية لحالي وما حولي.

شعر يوسف بوخزة في صدره، وضع يده على صدره، وطلب من مفيد أن يغادر، أخبره بأنه سيخلد إلى النوم.

حالما غادر مفيد، شرع يوسف يبكي بنشيج عال، وضع الوسادة على فمه كي يخفي صوته.

تخيل أن ساندرا لا تزال حية، وأنه سيراها مرة أخرى تمامًا كما كان يفعل كل يوم، كان جسمه وعقله يحاولان إنقاذه بأي طريقة، إلا أن ذكرياته الجميلة معها عادت أجمل منها في أي وقت مضى.

بدأ يوسف يتذكر شريط محطات رحيل ساندرا، علّه يستطيع أن يبرر لعقله ما حدث له، أي تبرير مهما كان سخيفًا سيكون مهمًا، سيكون خيطًا يستطيع معه أن يتابع حياته.

لا شيء، فقط قسوة ذلك اليوم الذي وجدها فيه ملقاة على الأرض. ذلك الكابوس المتواصل.

كان يشعره بخدر في فمه، فتجرع دواءه، بدأت ألوان المنزل تتغير، وتموجت الصور من حوله وبدت له أكثر ودًا وابتسامًا. بدأ مفعول الدواء يسري في جسده.

2

في النهاية تنتصر الغريزة

سمع يوسف صراخًا ولعنات متواصلة، كان مفيد يتحدث في الهاتف بنزق وعصبية، ميّز يوسف مفردات تتعلق بالمال والنقود، وقال أيضًا إن حليمة لا تملك ثمن الطعام، وإنهما لم يتناولا سوى الخبز والماء منذ يومين.

لم يستطع يوسف مناداته، كان جسده ضعيفا جدًا من فرط الأدوية والمهدئات التي يتناولها.

نظر حوله فرأى شمعتين صغيرتين مضاءتين إلى جانب رأسه، أدرك أن الجدة حليمة تعوده في منزل مفيد.

استيقظ يوسف بعد قليل، وفتح عينيه ببطء، فشاهد شبح مفيد يقف إلى جانب سريره يتحدث إلى الطبيب الذي جاء يعاينه.

قال الطبيب:

جسمه ضعيف جدًا، لكن قلبه ونظامه الحيوي يعملان بشكل جيد، من حسن الحظ أن بنيته قوية، وإلا ما احتمل كل تلك الأدوية طوال هذه المدة.

وأضاف يخاطب مفيد:

– لا نستطيع أن نفعل شيئًا، عليه أن يقرر بنفسه أنه يريد الحياة، وإلا فلن تنقذه أدوية العالم كلها.

ثم أخبره أن عليه أن يغادر لارتباطه بموعد آخر.

طلب مفيد من الطبيب الانتظار قليلا بشأن أجرته، فهو على وشك استلام نقود من صديق له.

لم تكن ردة فعل الطبيب مبشرة، وشعر مفيد بأنه قد لا يراه مرة أخرى، وصف له بعض الفيتامينات، وطلب منه أن يحاول إطعامه بعض البطاطس المهروسة أو الأرز المسلوق المطحون، وبكميات قليلة، فمعدته لم تعد قادرة على طحن الطعام بكميات كبيرة، ثم خرج. استيقظ يوسف في اليوم التالي، ليجد الجدة حليمة تجلس في كرسي عتيق إلى جانبه، تمسك بيده بين راحتيها وتصلي، نظر إلى يديها وجبهتها محنية، شعر بحرارة فورية في يديه، وعينيه. ناداها:

– نانا.

نظرت إليه غير مصدقة، هرعت نحوه تمسح رأسه وتقبّل صدره وكتفه برفق.

سألها عن مفيد، فنادته بأعلى صوتها حتى جاء يمشي كالسكران، لم يكن ثملًا، كان نائمًا وتعبًا.

حاول يوسف أن يعتدل في جلسته، فساعده مفيد.

طلب ماءً فسقته الجدة، وشرعت تتلو كل الدعوات التي حفظتها دفعة واحدة.

جلس مفيد بقرب يوسف، ووضع يده على رأسه، نظر إليه يوسف وهز رأسه وابتسم ابتسامة خفيفة.

– كم مضى عليّ هنا.

– 3 أسابيع.

– والداي؟

– لا يعرفان شيئًا، قلت إنك في مهمة ميدانية مع الجامعة، وقد تتغيّب لشهر أو أكثر.

أطعمته حليمة بعض الحساء، وطلبت منه أن يركن إلى الراحة، أعطاه مفيد بعض الأدوية، فعاوده النوم من جديد.

استيقظ يوسف في صباح اليوم التالي على صوت الملكة سعاد، كانت تجلس إلى جواره، وكأنها تنتظره كي يستيقظ.

– ها... لقد جعلت مفيد يقلع عن الخمر، أنت فعلًا تستحق جائزة تقديرية.

لم يكن أحد في الغرفة سواها.

– أهلا. قال بصوت خافض.

ساعدته سعاد على الجلوس، وشرعت تلومه على كل تلك البلبلة التي تسبب بها، اقتربت من رأسه وقبّلت خده، ثم أمسكت يده، وجعلت تنظر خلفها، وتتأكد أن لا أحد يسمعها. قالت:

– كم أنت قاسي القلب حتى تكلف حليمة ومفيد فوق طاقتهما. حليمة تحبك كولدها، أما مفيد المجنون فلم أره متوترًا وقلقًا كما هو الآن، إنه مستعد لأن يقتلع قلبه ويعطيه لك.

لو حصل لك مكروه لا قدر الله، لكنت قتلت والديك كمدًا على شبابك، ومعهما مفيد وحليمة.

لا أعلم إن كان مفيد قد أخبرك عن والدك.

– ماذا حدث له؟

– والدك خسر نقوده وباع المطعم حتى يفي بسندات الدين التي كتبها وهو يقامر. كانت مجزرة حقيقية، فقد اتفق مجموعة من الزعران على والدك، وجعلوه يخسر كل نقوده ثم يكتب لهم سندات دين خسرها أيضًا أثناء اللعب، وهو عاطل عن العمل الآن، ولا يستطيع إرسال فلس واحد لك.

واضطر مفيد إلى رهن المنزل الذي تقيم فيه أنت الآن بعد أن جمع كل قرش معه ومع حليمة كي يوفر لك تكاليف العلاج وأقساط جامعتك، وقد قمت بتسليفه بعض النقود أيضًا، لكنني لن أستطيع إعطاءه المزيد، فكما تعلم أنا أم وأولادي طلباتهم كثيرة، لكني تدبرت أمري وطلبت قرضًا صغيرًا من الست ليلى.

عليك أن تزور سيدتي في منزلها بأسرع وقت وتشكرها، لكن يجب عليك أن تستعيد عافيتك ولونك، وإلا رمتنا نحن الاثنين إلى الشارع، أعطتني كل ما يلزمك كي تسدد رهن منزل مفيد، وحتى تؤمن لوالديك ونفسك حياة كريمة. من دون سيدتي لن تستطيع إكمال جامعتك.

اعذر لي صراحتي، فأنا لا أعرف اللف والدوران، وأنت شاب بالغ ولم تعد طفلًا، وتدرك بأن ما أقوله الآن إنما هو لمصلحتك، ولخير من يحبونك.

قبّلته في جبينه وقبل أن تغادر وضعت رزمة من النقود في درج بالقرب من سريره، أخبرته أن عليه أن يذهب بهذه النقود إلى أهله في أسرع وقت، كي يفك رهن منزله، ومن ثم عليه العودة والاتصال بها حال رجوعه، وهي ستتكفل بالباقي.

3

استقبلته والدته بالصراخ والبكاء، ضمته كثيرًا وقبّلت رأسه ويديه وتحت إبطه وفي كتفه، كأنها تراه بعد خروج من المعتقل أو سجن طويل، كانت عينا والده مبلولتين أيضًا ومهزومتين، لم يتفوه يوسف بالكثير، في صباح اليوم التالي أعطى والده نصف النقود التي كانت بحوزته، وطلب منه أن يفك رهن المنزل، وأن يبتعد عن لعب القمار، لم يتفوه الأخير بشيء.

أعطى يوسف نصف المبلغ المتبقي لوالدته، طلب منها ألا تخبر والده بهذه النقود وإلا صرفها في ملذاته، وقال:

– متى أصبحت لا تحتملينه اهجريه، وسأتخذ لك منزلًا في المدينة أو في أي مكان ترغبين، وأنا سأتكفل بمصاريفك، لقد صبرت بما فيه الكفاية.

ابتسمت والدته وشعرت بغبطة لم تفهمها، كانت تدرك أنها لن تستطيع مفارقة زوجها، وأنها قد اعتادت ما كبرت عليه حتى أمست

لا تستطيع العيش إلا فيه، فهي ليست أول امرأة تعاني من زوجها ونفوره، ولن تكون الأخيرة.

***

التقى يوسف خلال زيارته القصيرة ببعض أصدقائه في القرية، لم يلحظ تغير شيء فيهم سوى أجسادهم، فقد انتفخت بشكل ملحوظ، صديقته منى عادته مع طفلها ذي السنتين، كانت تبدو بعمر والدته تقريبًا.

قبّلته وضمته وطلبت من الصغير أن يحيّي يوسف، ففعل باستحياء. قالت:

– هذا طفلي، لقد تزوجت من برنارد. برنارد. تعرفه يقيم في فرنسا، لديه مطعم هناك، وسوف أذهب إليه العام المقبل.

– جيد.

– نعم، الحياة هنا ليست فيها أية فائدة أو شأن، إذا لم أستطعْ توفير حياة طيبة لطفلي فما نفعي كأم؟ سأحرص على تعليمه في أفضل المدارس والجامعات، أريده أن يحظى بكل الفرص التي حرمت منها في هذا البلد التعس.

هز يوسف رأسه، بدت منى سعيدة، جاءت تريده، وطلبت منه صراحة أن يزورها في منزلها على أن يخبرها بالطعام الذي يريد

تناوله حتى تجعله ينسى أطباق المدينة المصطنعة. قال إنه قد يفعل.

– لن أقبل أن ترفض زيارتي.

وقبل أن تغادر طلبت من والدته أن تقنعه بزيارتها وإلا ستغضب وتحزن كثيرًا، فهو في النهاية صديق دراستها، وهي لا تريد أن تغادر البلاد قبل أن تراه ولو لمرة أخيرة.

لم تعرف الوالدة بماذا تجيب، هزّت رأسها في كل الاتجاهات معربة عن الموافقة، ووعدتها بأن تحاول إقناعه.

أخبرها يوسف بأن لديه وقتًا قصيرًا يقضيه في القرية، وبأنه سيزورها إن سمحت ظروفه، وهمّ يرافقها إلى خارج المنزل.

وضعت طفلها في السيارة، ثم اقتربت من يوسف، عانقته وقالت:

– لقد هزلت كثيرًا، لكني ما زلت أريدك في داخلي، أرجوك لا تحرمني من حلم راودني طوال حياتي، لقد تزوجت رجلًا يكبرني بعشرين سنة كي أهرب منك ومن هذه القرية التعسة، أنت مدين لي بتلك الزيارة، ثم قبّلته قريبًا من شفتيه، وغادرت.

لوّح لها يوسف مودعًا، كانت والدته تراقبها من المطبخ وعندما هم يوسف بالدخول قالت:

– هذه الفتاة لقيطة بالتأكيد، لا تمتلك شيئًا من أخلاق أهلها. عرفتُ والدتها طوال حياتي، ليس هناك من هن أشرف منها في كل القرية، يا الله كيف يمكن أن تكون منى ابنتها؟

– ربما لم يكن لدى والدتها تلفاز وهي صغيرة.

– آه؟

– أو ربما أخذت سوء تقديرها عن والدها.

– ماذا؟ والدها؟ إنه أشرف من والدتها بألف مرة.

– حسنًا، هيا نأكل. ماذا أعددت لنا اليوم؟

ضحكت والدته وقالت إنها أعدت كل الأطعمة التي يحبها، وما عليه إلا أن يختار.

بعد يومين كانت الوالدة تبكي بحرقة على فراق ولدها، وقالت إنها ستأتي لتزوره في أقرب فرصة. قال إنه سينتقل إلى شقة جديدة، وعندما تستقر أموره سيطلبها لتزوره.

4

لا ينتحر البشر بسهولة

استقبله مفيد في محطة الحافلات، كان كلاهما يبدو هرمًا، لكنه مفيد من كانت تفوح منه رائحة الخمر والموت.

عانقه طويلًا، وقبّل وجنتيه، ثم سحبه من ذراعه إلى سيارة أجرة كانت تنتظرهما.

وضع حقائبه داخلها، وأوعز للسائق:

– حدائق الضباط.

كانت تلك أفخم مناطق المدينة، يقطنها التجار الأثرياء والحزبيون النافذون، كانت عصية على عامة الشعب، إلا إذا كان يعرف أحد السكان، أو كان من السائقين أو عاملي النظافة، فعلى من يرد الدخول أن يعرف الشخص المناسب في المكان والتوقيت المناسبين.

تذكر يوسف كيف كانت ساندرا تمقت هذه المنطقة وساكنيها، فشعر بألم في صدره.

دخل يوسف إلى شقة من ثلاث غرف في الطابق الحادي عشر من عمارة مكونة من 20 طابقًا، كانت الأعلى والأكثر رفعة بين العمارات الفارهة المكسوة بالرخام والمنتشرة في أرجاء المنطقة.

إلى شمال الحدائق توزعت مطاعم فاخرة في حزام أخضر ينتهي إلى نهر المدينة الشهير.

مدخل المنزل مصمم على شكل بهو واسع بيضاوي الهيئة، يفضي إلى مطبخ مفتوح على الطريقة الأمريكية مع بار يفصله عن غرفة الجلوس، تتفرع من البهو ثلاثة ممرات تؤدي إلى غرفتي نوم، إحداها أكبر من الأخرى وفيها حمام خاص وبانيو واسع ونافذة ملء الحائط. الصالة كانت مفروشة فيها سفرة فاخرة بلون بني محروق وتلفاز بشاشة مسطحة كبيرة الحجم، يغطي أرضيتها موكيت بلون التراب يمتد من أولها ويرسم قوس دائرة أمام باب يفضي إلى شرفة واسعة فيها بعض النباتات والشجيرات الصغيرة، التي يبدو أنها وضعتْ في أحواض على عجل.

في غرفة النوم الكبيرة كانت الخزانة مليئة بالثياب الفارهة والأحذية

الجلدية وتلفاز يتوسط مكتبة صغيرة، في حين احتوت الغرفة الثانية على سرير وطاولة صغيرة فقط.

خرج يوسف من غرفة النوم على صراخ مفيد، كان الأخير في الشرفة المطلة على النهر يتأوه من فرط إعجابه بالمنظر. قال عندما لمح يوسف:

– كما تنبأت لك، أنت أفضل من أن تكون طبيبًا، عليك أن تكون قرصانا.

ابتسم يوسف من دون أن ينظر إلى مفيد.

اتفق الاثنان على أن يأخذ يوسف حمامًا ساخنًا، في حين يعدّ مفيد بعض الطعام.

كان مفيد يشعر بضيق متزايد. أثناء غياب يوسف ومرضه، طوّر عادة الحديث إلى نفسه بصوت مسموع، ملأ كأسه بالعرق البلدي وشرع يتلو لنفسه.

– عدم الحديث عن المشكلة، لا يعني أنها لم تعد موجودة... ها يا شرموطة، شرموطة.

كان يترع العرق كالجمال العطشى، توقف قليلًا، شعر بيديه تهتزان، وبخدر في قدميه، توقف عن الحركة كمن يصغي السمع.

– ما بك أيها الجسم الشرموط؟ ليس الآن.

جلس فأشعل سيجارة، وشرع يحيك الهواء بيده.

– العدالة؟ ما هذا الوهم؟ تابع يشيح بيديه أمام وجهه ويحدث نفسه:

– طبعا ستسأل لماذا تساعدنا ليلى. سألت نفسي مئات المرات، كلانا يعلم أنه لا شيء بالمجان في هذا العالم حتى حب الأم.

هذا أفضل، نعم هذا أفضل، ستعمل عاهرا، وتضاجع من أجل النقود، كس أخت العلم والطب ومن يدرس الطب.

دخل يوسف الغرفة، لكن مفيد ظل يكلم نفسه، فسأله مع من يتكلم، نظر إليه، وقال:

– قالت لي سعاد، إنها تحضر لك منصبًا شرفيًا ترافق فيه الضيوف المهمين وتطلعهم على أرجاء المدينة أو تسافر معهم، لا أعلم ماذا فعلت الملكة لك أو ما قالته لإنقاذك، لكنني أعرف أننا لم نكن لنفوز بشبابك لولاها، من يدري. قد تضطر إلى مضاجعة تلك أو غيرها في بعض الأحيان، لكن ذلك سيكون بمقابل ما.

حوّل مفيد نظره عن يوسف يحاول أن يتفادى صفعة أو نظرة لوم، دخل إلى غرفة الجلوس يصيح ويشرح بأنه من غير الممكن أن يضاجع يوسف النساء بالمجان، إذ عليهن أن يدفعن ثمن كل دقيقة يقضيها معهن.

عاد الاثنان فجلسا إلى طاولة الطعام، بدأ مفيد يشرب العرق البلدي بتمهل ويأكل بنهم واضح وكأنه مصاب بجوع قديم، وعندما شعر بأنه أكل كفايته، أشعل سيجارة، وملأ كأسه وترعه مرة واحدة. قام أشعل التلفاز وعاد يجلس إلى الطاولة مع يوسف، كانت قناة الـ BBC تذيع برنامجا وثائقيا عن ملكة بريطانيا وجهودها الإنسانية حول العالم. زفر مفيد، نظر إلى السقف وقال مخاطبًا يوسف:

– على عكس البريطانيين، عانى الفرنسيون انفصاما في الشخصية، وتنازعتهم على الدوام مبادئ ثورتهم العظيمة من جهة، وشراهة إلى الثروات والنزوات الحيوانية من جهة أخرى، لذلك تراهم وبشكل تلقائي وفي كثير من الأحيان من غير قصد منهم، عمدوا إلى نشر الفرقة والشقاق بين أهل البلد الذي يستعمرونه، في حين احتلت الإمبراطورية البريطانية نصف دول اليابسة، ووصلت إلى أطراف العالم، وذلك لأن الإنجليز شعب لئيم وبري، كالمغول والعرب، عاشو في عزلة عن العالم، ومن دون تكوين أية حضارة تذكر، ثم خرجوا فجأة من رحم غريزة الغاب ليحتلوا العالم.

شعر بصدره أقل ثقلًا، فشرع يتحدث في التاريخ الأوربي ويصف قصة نجاحه ببداية نهاية الجنس البشري في حين أن أسوأ ما في أوربا هو بريطانيا على الإطلاق، وقال:

– أحتقر كثيرًا من الأشياء، أما احتقاري للملكة إليزابيث وأسرتها،

فيأتي بشكل تلقائي يرافقه شعور بالسعادة كمضاجعة سعاد.

لاحظْ كيف يشجّع الأمراء بعضهم بعضًا ويبجلون بعضهم الآخر!

تلك الأوسمة السخيفة التي تمنحها البريطانية إليزابيث.

فتح فمه وارتفعت نبرة صوته محاولًا تقليد مذيع بليد (وسام الإمبراطورية.. من رو تب ات ظا بط). قال:

– كان يجب أن يسموه وسامًا من رتبة "زب وقط".

إن كل تلك الموبقات لا شك أثرت في صميم البلد، وانتقلت إلى الشعب البريطاني بأسره، فأصبح بأكمله جنسًا فاجرًا محطمًا وكئيبا!

وقف يترنح قليلا، ثم ذهب إلى الحمام يحارب الهواء بيديه ويتابع تشريح الشعب البريطاني:

– لا بد أن مارجريت تاتشر لم تعرف الحب في حياتها قط، أو أنها تعرضت إلى أزمة عاطفية حادة. امرأة بهذه القسوة لا يمكن أن تبصر النور بهذه البساطة، لا تصبح المرأة أكثر بطشًا من الرجل إلا إذا كانت سوداء ويتيمة من الداخل. أراهن أنها لم تأكل قضيبا مذكرا منذ استلمت رئاسة الوزارة. لا بد أنها كانت تُضاجع في يوم ما من حياتها. وقت كانت صغيرة مثلا! لست متأكدًا. عاد مفيد

بسرعة كمن اكتشف شيئًا، فجلس بسرعة. سأل يوسف إن كان لديه ورقة وقلم، أجابه بالنفي.

– لا بأس. اسمع يا أخي يوسف، المرأة كالنفط! أما الرجل فهو كالنقود والمعادن الأخرى كالنحاس أو الذهب... إلخ. إي أنه مقياس فقط.

– كيف يعني؟

– اسمع يا ولدي، في حين أن المرأة هي الطاقة الصرفة، يؤدي الرجل في هذه الحياة دور وحدة القياس. فهمت؟

– لا.

شرع مفيد يحلل بكل الطرق الممكنة عبثية الحياة وعدم جدوى الكفاح لصالح شعب منافق ومذهول عما حوله.

بعد نحو ساعة من الشروحات والتفسيرات المفيدية، نهض وطلب من يوسف أن يذهب معه لرؤية حليمة، فهي تكاد تجن حتى تراه، فوافق الأخير، ارتدى ثيابه على عجل، وسحب مفيد معه في طريقه حتى لا يسقط.

5

أبو خالد

– "هذه العنزة ربيتها عالغالي والنفيس، الله وكيلك ما بطعميها إلا ما لذ وطاب".

أشار يونس إلى عنزة بنية اللون تأكل أوراق شجرة صغيرة في حديقةٍ خضراء جميلة وأضاف:

– مثلًا، الصبح لوز وعسل، والغداء تفاح وتين، المساء أطعمها خضروات بأنواعها، إي إي، وقبل النوم أطعمها خمرا ولبنا.

بعد أن فرغ يونس زيتون من وصف عنزته التفت إلى مفيد وقال:

– من غير الممكن أن أبيعك هذه الأميرة، لكن إذا رهنت معي 5000 ليرة سأعيرك إياها مدة أسبوع، أذهب خلالها إلى مزرعتي

لتدبير بعض الأمور، ثم أعود إليك فأعطيك نقودك.

كان مفيد يترنح متكئًا على يوسف.

وقف يونس في حديقة منزله الفاخر بالقرب من سكن يوسف الجديد يخاطبهما كشخص يعرفهما منذ أيام الطفولة، وعندما قال مفيد إنهم جيرانه الجدد، قفز يونس بسرعة عجيبة فأحضر ثلاثة كراس، وهجم على مفيد فأمسكه من خديه، وسحبه باتجاه المنزل، وشرع يحلّفه بكل غال حتى يتناول قهوة معه في حديقة منزله.

أمام إصراره وترحيب مفيد، سحب يوسف الكرسي القريب وجلس ممتعضا.

***

عانى يونس مرضًا وراثيًا يجعله سريع الغضب ويدفعه لقول أمور غريبة جدًا وأحيانًا غير منطقية، لكنه كان محبوبًا من أغلب سكان المدينة، فقصصه مثار للتندر والطرافة، وكان لقبه "أبو خالد" ذائع الصيت أكثر من نار على علم.

تميز بطفولته بمعدل ذكاء واضح، ما دفع أساتذته إلى ترقيته في صفوفه حتى تخرج في دار المعلمين في دمشق وهو بالكاد في 18 من عمره.

أقام في العاصمة لعدة سنوات كأشهر مدرس لغة عربية فيها

قبل أن يفقد إيمانه بالشأن الثقافي وبالدولة وشعبها، ويهجر التعليم متجها إلى التجارة، فافتتح معصرة زيت حديثة على أطراف مدينته، وبسرعة أصبح ميسور الحال.

عانى جميع أفراد عائلة زيتون من أمراض ذهنية واضحة، بدءًا من والدته التي لا أحد يعلم كيف حصلت على جواز سفر أمريكي أورثته لأولادها وأحفادها.

كان بعضهم يتميز بحصافة فريدة، لكنهم جميعا عانوا من طباع غريبة وانفلاتات عصبية طريفة كانت معظم الأحيان.

كان يونس ضخم البنية، وذا وجه شرس ودائم الجدية، إذ لم يسبق لأحد أن رآه يبتسم. مال يونس ظهره إلى الخلف، رفع رأسه إلى أعلى، وشرع ينادي:

– زوجتي، يا زوجتي، زوجتي يا زوجتي.

نظر إلى عنزته التي كانت لا تزال في موضعها تأكل كأن غدًا لن يأتي. عاد ينادي:

– يا زوجتي.

عندما لم تجبه امرأته، أغلق يونس عينه اليسرى، ومد شفتيه إلى الأمام، وصرخ بصوت أعلى:

– يا بنت الشرموطة، يا معرّصة.

رفع يوسف حاجبيه بشكل تلقائي.

سُمع صوت من داخل الفيلا:

– إي إي إي، قادمة، قادمة.

عندما ظهرت زوجته دلال كانت تجر قدميها جرا، كانت دلال ضخمة البنية كزوجها، حيّتهم كأن شيئا لم يكن. عندما أصبحت بينهم، عادت مظاهر الجدية إلى وجه يونس. قال:

– أعرّفكم إلى زوجتي دلال، شريكة حياتي، وأم أولادي المخلصة.

قال جملته الأخيرة بصوت خفيض وناعم كشاعر متحذلق.

تابع يونس:

– زوجتي العزيزة، أعرفك إلى مفيد وابنه الشاب يوسف جارنا الجديد، جارنا يعيش بمفرده، وأرجو منك عندما تعدين أطباقك الشهية أن تذكري أن لدينا جارًا طيبًا ووحيدًا.

أومأت برأسها إيجابًا، كانت تمسح يديها بمئزر على بطنها وكأنها كانت تغسل أطباقًا أو تقوم بأعمال منزلية ما، ثم عادت إلى الداخل دون أن تتفوّه بكلمة.

رغم أن يوسف أخبره بأن مفيد بمثابة والده لكنه ليس والده، فأبوه

هناك في قرية طيبة في الريف، لكن أبا خالد لن يكترث وسيسأله من اليوم فصاعدًا كلما شاهده يمشي وحيدًا "كيف الوالد مفيد؟".

عادت الزوجة بعد قليل تحمل القهوة، وضعتها على عجل أمام ضيوفها، وكما ظهرت بهدوء اختفت أيضًا.

جعل يونس يقفز بين مواضيع مختلفة، تارة يكون حديثه عميقًا، وأخرى يكون مفصولًا عن الواقع، وكأن عشرة أشخاص على مستوى مختلف من المعرفة والاتزان يجلسون داخل رأسه، فيتحدث كل منهم خمس دقائق.

– أخبرني صهري شكري عازار "العرصة" بأن امرأة ابن عمي سليمان، تعرفونها تقيم في أمريكا مع زوجها؟ تابع دون أن ينتظر جوابا:

– الشرموط يقول إنها تحلم بإنجاب ولد ترعاه، لكن ابن عمي لا يمكنه الإنجاب.

ثم مال إلى مفيد يسأله إن كان ذلك معقولًا.

أخبره مفيد بأن ذلك مستحيل.

توقف يونس قليلًا ليتأكد أن مفيد لا يسخر منه. لم يكن كذلك، كان ثملًا بالكاد يدرك أنه بصحبة يونس، وعندما تأكد يونس من جدية الأخير، صرخ مهللًا: صحّ لسانك. وأضاف:

– ابن عمي ماجد رمى غطاء سريره على زوجته فأنجبت ثلاثة توائم، هؤلاء العذارى عرق عاهر نصفهم يهود ونصفهم أولاد "منيوكة".

بعد أن شرب مفيد كأس القهوة الثالثة بدأ يستفيق من سكره. دار رأسه إلى جهة الطريق، حيث مجموعة من الشبان يتهادون بمشيتهم على الرصيف، كانوا 3 أحدهم يرتدي قميصا قطنيا يظهر جسمه الرياضي مفتول العضلات.

نظر أبو خالد إلى مفيد ثم إلى حيث الشبان، شرب من كوب القهوة أمامه، وضع يده على فخذه وأشار بالأخرى إلى الشباب. وقال:

– 60 مليون ابن شرموطة، ما بيطلع شي واحد منهم ابن قحبة؟ ثم فسّر أن البلد مليء بالناس، ومن الممكن أن يشذ أحدهم فيغدو شخصا متفوقا ومتميزا أو رياضيًا.

كانت الساعة تقارب السادسة مساء، فعمد أبو خالد يحلف على ضيفيه للمبيت عنده، وقبل أن ينصرفا، وقف يونس وشرع يركض باتجاه الطريق، كانت شاحنة صغيرة تقل عمالة في المعصرة تمر أمام منزله بعد أن أوصلت ابنه إلى المنزل من الباب الخلفي. توقف السائق مذعورًا.

– عوافي بو خالد.. خير؟

شرع يونس ينظر إلى السائق ومن معه في العربة، بدأت حدقتاه تبرزان بغرابة من مقلتيه حتى لكأنهما ستغادرانه بعد حين. بعد فترة صمت لم يجرؤ أحد على قطعها، سأل يونس عن الساعة، فأجابه السائق بأنها السادسة مساء.

– أليس من المفروض أن تغادروا المعصرة في الساعة السادسة؟

– صحيح بو خالد، لكن خالد والعمال كانوا يشعرون بالتعب، ولم يكن هناك من عمل فقرروا المغادرة، قبل أن يكمل جملته أشار له يونس بيده وبجدية مفرطة حتى يصمت، ثم قال بهدوء غريب:

– أنت لا تستطيع "نياكة" خالد، فهو ولدي، لكني سأنكحك وبعد قليل "سأنيك" أمه كما أفعل كل يوم.

التفت يونس إلى يوسف، وصرخ:

– يوسف عزيزي الغالي، استأذن والدك وتعال إليّ قليلًا لوْ سمحت، لديّ عمل جديد لك.

إثر إلحاحه وجدّيته نهض يوسف، وعندما أصبح قريبًا من يونس، سأله الأخير إن كان يعمل حاليًا، وأخبره بأنه إن لم يكن يفعل فلديه عمل جديد له.

لم ينتظر جوابه، طلب من العمال النزول من الشاحنة. فصل النساء عن الرجال، خلع سرواله وزناره والشبشب في قدميه، واتجه إلى يوسف فقال له بهدوء وجدية بالغة:

– عملك الجديد يا ولدي هو مضاجعة هؤلاء النساء، أنت تنكحهن وأنا أنكح الرجال.

بانت علامات الاستغراب على وجه يوسف، وازدادت عندما لاحظ السعادة التي يبدو عليها العمال، الذين كانوا يحرصون على ألا يراهم يونس يضحكون.

كانوا يعلمون أن مكروهًا لن يصيبهم، وغدا سيتناولون طعام الإفطار مع بوخالد وكأن شيئًا لم يكن، ما دام أحد لا يجيبه بشيء يستثيره، فكل شيء سيكون على ما يرام.

أمسك بيد يوسف وسحبه خلف الباص حيث كان المحاسب توفيق يختبئ ويدخن سيجارة.

– ليك هالابن "المنيوكة". وأشار بيده إلى توفيق.

– لا يمكنك أن تعرف إذا كان ذكيا أم لا!! أعرف أنه يأكل ويشرب! ويدخن. الجيد في الموضوع أنني أستطيع استبداله في أي وقت بأي كرّ من عمال المعصرة دون أن يتغير أداء قسم الحسابات. فوجوده يعني غيابه والعكس صحيح.

بعد أن أشبعهم سبًا وقذفًا من أقسى أنواع الشتائم، طلب منهم ألا يتأخروا عن العمل صباح غد، ثم استأذنهم لأنه يريد أن ينكح أم خالد وولدها، فهو المسئول عن فسادهم وسوء إدارة المصنع، متمنيا لو أنه أنجب عجلًا دون خالد لكان ذبحه ووزع لحمه على الفقراء. عندما كان يهم بالعودة، وقف مفيد فعانقه وقبّله، وقال إنه سيتركه ليتابع أعماله، لم يتركه يونس يرحل إلا بعد أن غلّظ مفيد الأيمان بأنه سيأتي الأسبوع المقبل مع ولده يوسف لتناول طعام الغداء لديه.

شكره يونس على قضائه وقتًا برفقته، ونادى على زوجته تودع زائريه، واعتذر بدوره، إذ عليه البحث عن الحيوان خالد حتى يلقنه درسًا لن ينساه، وعندما أخبرته دلال زوجته أنه خرج، ثبت في مكانه، أحنى رأسه إلى الأرض، شد على يدي ضيفيه مودعًا وعاد معها إلى داخل المنزل.

سمعه يوسف يقول لها إنها لو لم تكن تعبث بمهبلها طوال النهار وانشغلت بتربية أبنائها لما كانت هذه حاله.

نظر مفيد إلى يوسف وقال:

– انظر إليه، انظر إلى هذا القديس، كيف يمكن لهذا الرائع أن لا يكون قديسًا يتبرك الناس بصوره؟ كم أنت محظوظ بهذا الجار.

أضاف بعد شرود قصير بأنه يعتقد أن الإنجيل لا يحتوي إلا على

جملة واحدة مفيدة "ويل لمن يعلم الناس بأسرع مما يدركون".

كان يوسف يدرك أن تلك العبارة غير موجودة في الإنجيل، لكنه لم يكن في صحته النفسية أو الجسدية التي تعينه على النقاش معه، كان يشتم رائحة الموت من حوله ومن ومفيد تحديدا، وغدا أكثر حساسية عن أي وقت مضى، أصبح لا يستطيع مشاهدة القصص الحزينة أو حتى السماع عنها. غدا أكثر ميلًا للصمت عما كان عليه، وسريعًا سيبدأ عمله الجديد مع الست، فلا يعود يتعرف على وجهه في المرآة.

الفصل التاسع

الأضلاعُ تُشفى

صغيرا اصطادته رائحة المهبل الطري الرطب، عرف عن النساء أكثر ما عرفنه عن أنفسهن، كان يتنقل بينهن في مجتمع مثالي الذكورة، فيضاجع تلك، ويرمي بشباكه فوق أخرى، ويحصل دومًا على ما يريد.

حتى جاءت ساندرا، فرفعته إلى السماء، ثم رمته أرضا فكسرت أضلاعه.

بعد انتقاله للإقامة في المنزل الجديد كان يحاول القفز عن ذكراها، وتجنب ترديد اسمها.

كان منزله مختلفا عن كل ذكرياته القديمة، حتى وجوه سكان الحي كانت مختلفة، نظراتهم القاسية، فوقيتهم التي يمارسونها على خدمهم وعلى بعضهم بعضًا.

تساءل عن جدوى تعنته وصيامه عن النساء. لم يكن هناك أي خطأ في نشأته وأسلوب حياته الذي ولد من أجله. الخطأ كانت ساندرا لا غريزته.

نعم سيرهن نفسه لما قد خلق من أجله. مضاجعة النساء! ليس هنالك من صواب مطلق، ليس من سبب يدفعه للموت، موته الآن مجاني لا يعدو كونه انتحارًا نمطيًا، الطريق أمامه سيكون صعبا، لكن مليء بالاحتمالات والمصادفات.

عليه أن يعيل نفسه، وأن يساعد والدته ومفيد. لن يكون بمقدوره أن يحيا كما يريد، وجودهم من حوله يثقل كاهله ويعيقه، لكنه يقويه أيضا.

سيجعل من جسده وسيلة لمكافأة سميرة على النقود التي سددتها عنه وعن أهله. لا سيجعل من جسده وسيلة لمكافأة قضيبه. صدقت مرة أخرى يا مفيد. أبلغْ سميرة أنني فقدتُ ساندرا، لكني لم أفقد قضيبي.

وسيعيد تكرار جملته مرارا قبل أن ينغمس في عالم سعاد والست. "إن الوحيد الذي لا يخطئ هو الله وقد يكون الشيطان أحيانا".

***

التقى يوسف بالفنان سليم دوري في منزل الملكة بداية 2010 قبل أشهر من تركه العمل لصالحها، وقبل انطلاق الثورة السورية بأقل من سنة، كان سليم يتحدث عن مشروعه الكبير القادم، وكيف تتنافس شركات الإنتاج الموسيقي لنيل رضاه.

كان محاطًا بجميلات الملكة، اللواتي عبثًا حاول سليم أن يتخلص منهن ومن صحبتهن، وسيدتهن ليلى "الرئيسة"، خاصة بعد أن حقق شهرته الضاجة، إلا أن الرئيسة كانت دومًا تجد طريقها إليه، وإلى نقوده.

مالت زينب إلى يوسف وكانت سيدة أعمال ناجحة تشرف على إحدى صفقات الست، وتستمتع برفقة يوسف كهدية منها، لعقت أذنه بسرعة ثم همست.

– من ير سليمًا الآن لا يمكن إلا أن يهزأ بحال الجنس البشري، وبساطته المفرطة.

ثم عادت تنظر إلى سليم، وطلبت منه أن يغني فؤاد فقرو، وعندما أظهر ترددًا نظرت إلى الست ليلى، فأومأت له بالإيجاب.

ما هي إلا دقائق قليلة حتى تبدل جو الجلسة بأكمله، كان صوته القوي طروبًا، أسكر الحضور ودب الحماسة في أفئدة الصبايا، فشرعت بعضهن بالتمايل وتشجيعه على المزيد.

سليم الذي عاد يشرب من جديد، جعل يجرع الخمر بشراهة علّه يوازن حياته بين الضغوط اليومية التي تسوطه حتى يكون شخصًا ملتزمًا بمثل عليا تربى عليها وآمن بها، وبين أن يجاري من حوله حتى لا يُعزل ككلب أجرب فيعود إلى حياة مريرة جربها وذاق بؤسها.

أدرك أنه شرب كفايته عندما شعر بأنه يغني بصدق وبسعادة، نظر حوله، كان أحد الحراس يقرع الطبلة بشكل جيد، لم يتوقف كثيرًا عند موهبته، طلب العود، فجاءت به إحدى الفتيات الجديدات وقبّلته قبل أن تغادر، كانت ثملة هي الأخرى.

أوعز إلى عازف الطبلة أن يقرع بشكل أسرع، ضرب على عوده نقرات سريعة، ومال برأسه إلى الخلف كأنه يريد أن يتحرر مما هو فيه، وشرع يغني أغنية قديمة لفؤاد:

روحو عني قولولا

أم عيون المكحولا

وما قدرنا نسكن بالشام بسكنها بمعلولا

قولو لأم الجدايل

صيفيتنا بالساحل

أكتر ما بالبحر أمواج

شوقي لحبي وذولا

سوريا يا محلا الصيف

ومشرع بابا للضيف

وين ما رحت بتلقى الخير

بجبالا أو بسهولا

سلمولي عليها كتير

قولولا الّ بدّا بيصير

بحمص بطرطوس أو بالدير

بس تشوفو شو قولا.

ما إن أنهى وصلته الموسيقية حتى تعالت الأصوات والزغاريد، تطلب منه المزيد، قفزت إلى حجره الفتاة الصغيرة التي أحضرت له العود، همست له بأنها ستقبّل له بيضتي قضيبه مقابل موّال آخر.

كانت حديثة العهد بوظيفتها ومندفعة، تحركها أحلام اللقاء بشخصية مشهورة أو نافذة تركبها وتحقق أحلامها بالثراء والعيش الرغيد. راقبت الست مستمتعة، لكنها كانت تدرك أن الخمر والغناء قد يدفعان السهرة إلى أن تطول، لم تكن بمزاج يسمح لها بهذا، أشارت إلى سليم بأن يستأذن، ومالت إلى إحدى وصيفاتها، ثم نهضت، ودّعت الموجودين معلنة أن السهرة قد انتهت هنا.

أمسكت سيدة الأعمال بيد يوسف تطلب منه أن يلفها ويدخل يده في مؤخرتها، ففعل، بعد قليل أصبح إصبعه في شرجها، استقامت مع جذعها، زفرت بعمق، وقالت إنها أصبحت جاهزة، ثم نهضت أمسكت بيده، وأخذته إلى فيلتها.

في الطريق إلى منزلها، أشارت له بأن يقبّل نهديها، استأذن بأدب وقال إنه يشعر بضيق داخل السيارة، ووعدها بأن يقوم بأي شيء تطلبه في منزلها.

ابتسمت له بصعوبة، وأدارت مؤشر الراديو، وشرعت تتكلم عن مشاريعها وأعمالها، وكيف أن صفقة الأقمشة الصينية التي تديرها مع السيدة ليلى، ستجعل كل المشاركين فيها على اختلاف طوائفهم أثرياء جدًا. وأضافت:

– لا يمكن إلا للنقود أن توحد بين قلب السنّي وروح العلوي، وأخذت تضحك.

كان يوسف ساهيًا عنها، يحاول أن يبعد شبح ذكرياته مع ساندرا. شعر بأنه أداة وضيعة بيد أهله وحليمة ومفيد، وشعر بكرهٍ فجائي تجاههم، وكأنهم كانوا سبب بؤسه ومنعه من انتحار مشرف، كان يخمن أن ضعفهم وحاجتهم له سبب استمرار وجوده.

شعر بوخزة في صدره وتذكر ما قاله الطبيب عن ضرورة تناول الدواء في موعده، مد يده إلى جيب بذلته وتجرعه دون ماء، حسس بيده فوق جيبه الآخر وتأكد من أن الفياجرا موجودة.

شيئًا فشيئًا تلاشت صور ساندرا، بدأ يسمع صوت الموسيقى وغناء سيدة الأعمال المنفر على إيقاعها، كانت أرملة في أوائل الأربعينيات متوسطة الجمال، وتبدو قادرة على تصيد الشباب بسهولة، لكنها كانت تقول إن لا وقت لديها للعبث، إضافة إلى أنها لا يمكن لها أن ترفض هدية سيدة القوم.

2

تسويق العاهر

قبل أسبوع من زيارته الأولى إلى منزل الست، استيقظ يوسف على صراخ وضحك فاحشين، كانت سعاد في المطبخ تعد الطعام وتتحدث في الهاتف، مطلقة كل الأوصاف الجنسية المثيرة التي تتذكرها:

– عندما تضعين رأسك على صدره تشعرين بخدر لا يقاوم... آه؟ شو؟ شفافه؟ بيبي...

أشعر بمهبلي مبتلًا. توقفي. آه؟ لا لا؟ نعم.. 24 سنة.. لك إي طازة.

كانت تتحدث إلى بتول وصيفة الست ليلى، تخبرها عن محاسن يوسف التي لا مثيل لها.

عندما سمعت صوت خطوات يوسف قادمة نحوها، قالت للوصيفة إنه قد استيقظ، وإنها ستأتي به في تمام السادسة.

وضعت الهاتف، مسحت يديها، وذهبت إلى يوسف، قبّلت وجنته، وقالت إن عليه أن يرتدي إحدى البذل التي أحضرتها له، وأشارت إلى مجموعة من الثياب كانت معلقة في غرفة الجلوس.

قالت إنها ستصحبه إلى منزل بتول، وصيفة الست الرسمية، وعليه أن يكون مهذبًا كما عهدته دومًا، فهي التي ستحضّره للقاء المهم، وإذا كان شاطرًا بما فيه الكفاية، فقد يحظى بزيارة قصر الست، وهي زيارة تتاح لعلية القوم فقط.

جلس يوسف على الأريكة الوثيرة، أدار جهاز التلفاز.

أحضرت سعاد طعام الإفطار وجلست إلى جانبه، أكلت بعضًا من الطعام، ثم نهضت وعادت بإبريق الشاي.

كان يوسف يأكل بصمت، بعد قليل قال إنه أخذ كفايته.

نهضت سعاد مرة أخرى ذهبت إلى غرفته وأحضرت دواءه، ثم أعطته كأس ماء، مؤكدة على ضرورة تناوله في موعده.

أخبرته سعاد بأن عليه ألا ينظر إلى الخلف، وإلا بقي هناك. وأضافت:

في هذه الحياة نتعرض لشتى أنواع المفاجآت، الحزينة أو

السعيدة. من يدر قد يخبئ لك القدر مفاجأة أخرى. عليك أن تدرك أنك شخص راشد الآن، وعليك أن تتحمل مسئولياتك. على الأقل أنت أحسن حالًا وحظًا من كثيرين في هذا العالم، وبالتأكيد لن تكون آخر شخص يخسر إنسانا غاليًا.

بعد أن أنهى فطوره، قامت سعاد فغسلت الأطباق، ولملمت السفرة، ثم اختارت له بذلة سوداء مع قميص أبيض وربطة عنق سوداء، قالت إنها تعطيه منظرًا رسميًا، لم تتكلم في أمور الجنس، رغم أنها كانت تكرر لنفسها أنها خيرا فعلت، فقد أنقذته من الانتحار، وأنقذت مفيد من الموت حسرة على شبابه، ظلّ جزء منها يشعر بالأسى لحاله.

كانت سيارة تنتظرهما أسفل البناية، حيث السائق، سألته عن حال أولاده، وأشارت له بأن يسرع كي لا يتأخروا عن موعدهم.

بعد نحو نصف ساعة، دخلت السيارة إلى قصر مشيد فوق تلة خارج المدينة، كان قصرًا جديدًا، بداخله بضعة عمال يضعون اللمسات النهائية على مشبح صغير أمامه.

سحبت سعاد يوسف من يده، وأخبرته بأنه ليس مضطرًا لقول الشعر أو الأحاديث اللطيفة، كل ما عليه فعله هو الإصغاء، وعدم التفوّه بالحماقات.

في داخل المنزل كانت سيدة في منتصف الثلاثينيات تجلس أمام التلفاز، نحيفة ومتوسطة الطول والجمال، إلى جوارها طفل في الثالثة من عمره أو أكبر قليلًا، نهضت حالما رأتهما يدخلان، قبّلت سعاد، وصافحت يوسف، نظرت إلى طفلها ذكرته بأن الساعة السادسة موعد ذهابه إلى سريره، نادت لمخدومتها فاطمة، أمرتها بأن تأخذ الصغير إلى غرفة نومه، ثم طلبت منهما القدوم معها.

***

قالت إن اسمها بتول، مطلقة، تعمل منذ كانت في التاسعة من عمرها، كانت خياطة ماهرة، استطاعت بعمر الخامسة عشر أن تكسب ثقة سيدات المجتمع الراقي، فتعيرهن أثوابًا مقابل مبلغ محدد، ثم شرعت تقلد الفساتين في المجلات التي تحصل عليها من السيدات الثريات، بعد بضع سنوات كان لديها مشغلها الخاص، أدركت قبل أن تنهي تخصصها الجامعي في إدارة الأعمال أنها لن تستمر من دون ضابط مرموق إلى جانبها، وكان لها ذلك، ثم شرعت تنتقي الخياطات الجميلات ممن يستطعن العمل في عدة أشياء، وهكذا حتى وصلت إلى الست ليلى، التي تستطيع انتشال من تريد إلى أعلى قمة، والنقمة على تعساء الحظ من لا يسمعون الكلمة.

شرحت ليوسف أن بعض السيدات الراقيات والفنانات

وصاحبـات المصالح النافذة في البلد يشـعرن بالوحدة، رغم أن بعضهـن متزوجات، وأخبرتـه بأن مهمته تكمن فـي معاملتهن بلطف والإصغاء إليهن، وبأنه قد يضطر إلى المبيت لدى إحداهن. وأضافـت:

– سندفع لك 100 ألف ليرة شهريًا، وكل ثيابك بالمجان، تستطيع المرور إلى متجر ليلى في الشارع الرئيسي للمدينة واختيار ما تريد، إيجار البيت حيث تقيم مدفوع لمدة عام، وإذا عملت بشطارة وأثنت عليك من ترافقهن، سأقوم بإعطائك بدل أتعاب إضافيًا.

تدخلت سعاد في الحوار قائلة:

– واللـه العظيم بتول والست ليلى لا تقصران مع من يعمل بجد، أنا شاهدة على كرمهما.

شكرتها بتول باقتضاب وأضافت:

– قد تقام بعض الحفلات، وعليك أن تكون موجودًا، تجنب الحديث إلى أي من الموجودين دون إذن شخصي مني أو اتفاق مسبق، أي تصرف غير لائق أو ثرثرة جانبية ستودي بنا جميعا خلف الشمس، وبأهلنا وأقربائنا أيضا. هذا العمل لا يرحم، وحاذر من تلقّي أي مبلغ ممن تخرج معهن أو إعطائهن رقم هاتفك.

أعرف أنك شاب منعزل وقليل الأصحاب، وهذا أمر طيب،

ستعمل لنا لمدة سنة، ومن ثم وبناء على موافقتنا جميعًا سنمدد لك لسنة أخرى.

كل الديون التي دفعتها لأهلك، تعتبر هدية من سعاد إليك، فهي تحبك كثيرًا. أعرف أنك تمر بظروف صعبة، لكن هذه هي حال الدنيا، نريدك أن تعود كما كنت فتى شقيًا لا تفارق الابتسامة وجهه.

نهضت إلى المشرب الفاخر منتصف الصالة، صبت 3 كؤوس من الويسكي الفاخرة، وعادت بها إلى ضيوفها، قرعت نخب يوسف، فصفقت الملكة طربًا.

قالت إن البؤس هبة الحياة للفقراء، فقراء العقل طبعًا، ويوسف ليس كذلك. وعليه ألا يجعل حياته تعيسة من غير داع، أو على الأقل لا يجعل حياة من يحبهم كذلك، ثم قامت واتجهت إلى الباب معلنة انتهاء الزيارة.

في طريقها لوداع ضيفيها حملت بيدها ظرفين وأعطتهما لسعاد، ثم قبّلتها مودعة.

كان سائق مختلف ينتظرهما، لم تكن سعاد تعرفه، سألته عن اسمه، ومن أي مكان هو، وماذا كان يعمل، وكم له من الوقت يعمل مع بتول، وكل الأسئلة الممكنة حتى وصلت إلى منزلها، طلبت من يوسف النزول معها، وأعطت السائق إكرامية على تعبه.

طلبت من يوسف أن يمشي معها قليلًا، قالت له إنها تستطيع التعرف على الشخص من وجهه ومن حديثه، وإنها لا ترتاح إلى ذلك السائق، وأضافت:

– ما لنا وله، اسمع.

تدهورت صحة مفيد في الفترة الأخيرة، ضغط دمه مرتفع جدًا والسكر مرتفع لديه أيضا، لم يذهب إلى المدرسة منذ 3 أشهر، وأظن أنهم سيطردونه.

أخبرني أمس أن فاتن ستأتي لاصطحاب حليمة، فقد استطاعت الحصول على تأشيرة عمل في كندا، وستأخذ والدتها معها، إذا لم يكن لديك مانع أقترح أن نأتي بمفيد للإقامة لديك، كلانا يعرف أنه لن يتوقف عن الشرب والتدخين، وأنه كبير جدًا على البقاء بمفرده، على الأقل دعنا نأمل ألا يموت كما عاش وحيدًا.

أخبرها يوسف بأنه سيشعر بأنه أفضل حالًا إذا أقام مفيد لديه.

هزت رأسها إيجابا وقالت إنها سترسل سائق الست إلى مفيد يحضره إلى منزل يوسف، وستتولى إرسال أغراضه المتبقية إلى أي ملجأ أيتام قريب.

توقفت عن السير، وقالت إنها ستذهب بمفردها الآن، فقد اقتربت من منزلها.

صمتت قليلًا، وقالت:

– عندما سمعت بأنك تبرعت بأموال ساندرا إلى ملجأ أيتام كدت أصاب بسكتة قلبية. ضربت يديها على فخذيها وبان حنقها واضحًا. أضافت تطحن الكلمات بين أسنانها:

– كل هذا بسبب مفيد، هو من حوّلك إلى حمار على شاكلته. أنت وهو تستحقان كل ما يصيبكما من كوارث.

لكنكما محظوظان لأني موجودة حتى أتدخل وأنقذكما في الوقت المناسب.

ارتفع صوتها وأضافت :

– كيف أمكنك أن تكون بهذا الغباء، كنت أظن أن المدينة خالية من الغباء، فكل أمراض الكون النفسية موجودة لدى مفيد. أما أنت! دكتور يوسف؟ أكبر وأجمل قضيب في المدينة تفع بهذا الشكل! هذا سيتطلب مني بعض الوقت كي أفهمه. على كلٍّ أنا موجودة هنا حتى أردك إلى صوابك... وبالصرماية.

تنهدت طويلا. ثم أمسكت بيده وأعطته أحد المغلفين اللذين أخذتهما من بتول، قالت إنها دفعت له راتب شهر مسبقًا حتى يتدبر أموره.

قالت إن بتول معجبة به، لكنها مثل أي بائع شاطر لا يظهر

حماسته فورا، وإنها تعتقد أنها ستدعوه إلى حفلة، وعليه أن يحضر نفسه لمواعدة إحدى العوانس أو الفنانات الشهيرات.

كانت سيارة أجرة تمر بجوارها، أوقفتها وأعطت سائقها عنوان يوسف، قبلته مودعة، وتمنت له ليلة طيبة.

3

أول الطريق أجمله

عمل سليم في بداية مشواره طبالا في فرقة البدوية سمر، كانت تقيم حفلات السكر والطرب في إحدى ضواحي حمص البعيدة، صوتها كان جميلًا جدا وقويا، وكانت شهرتها لتتجاوز شهرة إديث بياف، لو أنها ولدت في مكان بعيد جدًا عن خيمتها تلك في قلب الصحراء السورية، وحيث يقتل الرعب والألم ما لا تقتله الشمس الحارقة والجفاف.

لاحظت سمر موهبته وصوته المتفردين، ولهذا عمدت إلى منعه من الغناء خلفها، تاركة له الطبلة يتفنن في قرعها، ولأنه كان متيمًا بها، استطاعت دومًا أن تنتزع موافقته على كل ما تريد.

عمل سليم لعامين بإخلاص وتفانٍ خلف معشوقته دون تذمر أو ألم بانتظار اللحظة التي يتحلى بها بالجرأة، فيبوح لها بحبه، كان

يخيط الأحلام ببعضها فيصنع منها خيال صباحات هانئة، حيث يعيش مع محبوبته في منزل بعيد عن تلك الصحراء الموبوءة، ويؤسس أسرة كبيرة العدد.

قبل أن يلتقي بها كانت لديه أحلام كثيرة، فساعة كان يريد أن يصبح مغني الثورة، وتارة مغني الرومانسية، ومعظم الأحيان مغني الشعب والطبقة المقهورة، حمل شهادة المعهد العالي للموسيقى ودار بها على جميع المسارح، فطلب مديروها منه شهادة من النقابة، وقالوا له إنه شاب موهوب جدًا وكل ما عليه فعله هو العمل بنظام ووفقًا للقوانين، وهذا يعني إجازة موسيقية من النقابة حتى تستقبله بالترحاب جميع المسارح المحترمة في سوريا، حتى إن أحدهم حذره من الغناء في الملاهي والبارات، مؤكدًا أن صوتًا قويًا كصوته يجب أن يتغنى بالعظماء كالرحابنة وفيروز، فلا يغني لرؤساء الدول بل للشعوب فقط.

كانت القوانين في سوريا تعني الرشوة والواسطة، وكان سليم بعيدا عن كلتيهما بداية مشواره.

على الرغم من ذلك عاد إلى منزله في ذلك النهار حاملًا الإطراء واسعًا على صدره جاعلًا منه زورقًا ضخما يتسع لكل المقيمين على كوكب الأرض، مقتنعا بأن موهبته تحتم عليه احترام جميع الناس والتعامل معهم بصبر وحلم، وشرع يعامل الناس بهدوء حتى

في الحافلات والسرافيس التي تنوء برائحة العرق والخوف، كانت البسمة لا تفارق وجهه، كتلك النظرة المتفائلة الهادئة التي يكرهها من ملّ انتظار رحمة السماء في نهار يبدأ وينتهي بصراع لا يجد فيه قوت أولاده.

وسيجابه سليم بشجاعة ولسنة كاملة من الزمن، رفض أساتذة الموسيقى المتحجرين تقبّل موهبته، وسيخوض امتحانين أمام اللجنة النقابية التي رفض أعضاؤها حتى إخباره سبب رفضه، وستمحى تلك الابتسامة من على وجهه تدريجيًا، وسينسى أنه أصبح كتلك الوجوه البائسة في الطريق وفي السرافيس يقاتل للحصول على سبب يبقيه على قيد الحياة، وسيطرد من منزله قبل أن يتمكن من الغناء في ملهى ليلي، أو مع فرقة محترمة، ولن ينقذه من النوم في العراء سوى سمر التي قالت له إن صوته يفتقد الإحساس، الذي هو بنظرها أهم بكثير من الموهبة، لكنها ستقبله على مضض كعازف إيقاع، فهي لا تستطيع تحمل غيابات العازف الحالي الكثيرة.

قالت إنه يستطيع أن يأكل مجانًا في المطعم حيث تغني، وإنها ستتحدث إلى صاحب المكان حتى يسمح له بالمبيت في الغرف الجانبية الملحقة بالمطعم مع الطبّاخين والعمال، وستسمح له أيضا بأن يغني خلفها مع الكورس.

شعر سليم منذ لمح تلك التقاطيع الحادة في وجه سمر وشفتيها

المكتنزتين بجاذبية تأكله من قدميه حتى رأسه، كان يبيت في المنتزهات منذ طرد من منزله قبل عدة أسابيع، يقيه من الانتحار خوفه من المجهول الذي ينتظره بعد الموت.

قبل أن يطرد من منزله اتصل بوالدته في الجزيرة السورية، فأخبرته بأن الدولة صادرت نصف أراضي والده، فأخذت الجزء الخصب منها وأعطتهم الجزء المتصحر، لكنها ليست حزينة، فقلة المطر والجفاف سيجعلان ذلك النصف المتبقي أجدب خلال سنة أو أقل. وأكدت له أنها سعيدة لأنه ترك دياره وهاجر إلى المدينة المزدهرة حيث فرص العمل. قالت والدته ذلك دفعة واحدة، وبشكل خال من الحرقة، وكأن خسارتهم لأرضهم ومصدر رزقهم شيء كانت تنتظره، ومقدر له أن يحدث لكل الناس في تلك البقعة خاصة ممن لا يلعقون أقدام السلطة.

طمأنها على صحته، وأحواله، وعزف عن طلب مال من والده الذي يعاني أمعاء متفجرة، وحرقة خسارة أرضه التي استولى عليها ضابط مهم، لأنهم لم يتمكنوا من دفع ثمن البذور للدولة.

كان سليم مستعدًا للتشبث بأي طوق نجاة، ومستعدًا للعمل من أجل المأوى والطعام فقط، لكن سمر الجميلة كانت مستعدة لأن تدفع له فوق كل ذلك بعض المال ليدخره، ويرسل منه إلى عائلته التي تعيش الفقر في أشده على حدود البادية السورية القاحلة.

نهض سليم، فقبّل يد سمر فجأة دون إدراك، ووعدها أنه سيبذل كل ما في وسعه ليكون عند حسن ظنها، وبأنه سيكون رهن إشارتها في أي شيء تطلبه، آملا أن يرد لها الجميل في يوم ما.

4

رافق سمر طبع نزق وحاد معظم الأوقات، كانت تعاني نوبات رهاب سببها طفولة فقيرة وقاسية، وزاد من سوئها انقطاع مبكر للطمث، ولأنها كانت أهم نجوم الملهى وأكثرهن حظوة لدى ضباط الدولة والمتنفذين الذين كانت تقيم لهم حفلات موسيقية ماجنة وخاصة، تحاشى نزقها جميع العاملين في الملهى، حتى صاحب العمل الذي كان يخاف عليها كدجاجة تبيض ذهبًا، فتقبّل ثورات غضبها الغريبة والفجائية.

أدرك سليم سريعًا خطورة الاقتراب من سمر، وحاول تفاديها حتى يحافظ على أحلامه مشتعلة بانتظار اللحظة المناسبة، كان ينظر إليها مذهولًا وهو يغني خلفها، يحلم بتلك اللحظة التي سيبوح فيها بحبه، وكيف سيطلب منها أن تترك كل شيء خلفها، وكيف سيركع ويقسم لها أنه سيحبها إلى الأبد، سيحدثها عن البيت الذي سيبنيه في قريته بعيدًا عن المدينة وسمومها.

كان يتراجع في كل مرة، إما بسبب خوفه من ردّ يحرمه حلمه الجميل، أو بسبب حالتها العصبية الخطيرة التي كانت تجعله يعيد التفكير في حلمه بالكامل، كان يجد لها الأعذار دائمًا، فطريقة عيشها وهذه البيئة المسمومة قادرتان على تحويل الجمال والعفة إلى قبح وخبث.

استمر يحبها سنتين من غرفته وحيدًا، أو في المطعم وهو يعزف خلفها، أصبح عليه أن يقرر البت في ذلك، حتى قرر في أحد الأيام مصارحتها بحبه، بعد أن قدّر أن الأمر لا يحتمل أي تأجيل.

خطا إلى غرفتها محمومًا يتصبب العرق من جبينه، نظر إلى كأس العرق في يدها.

كان الوقت ظهرًا.

سألها: أما زال الوقت مبكرًا للشرب؟ فطلبت منه أن يهتم بما يعنيه فقط، أما هي فستتدبر أمورها.

لم تثنه وقاحتها عن سيناريو وضعه قبل مدة طويلة. لا، لن يتراجع الآن.

اقترب منها وشرع يتكلم عن أحلامه التي أصبحت حلما واحدًا، في بيت يجمعه مع امرأة يعشقها، وأطفال كثر، وأنه يخشى أن يصارح تلك الفتاة، لكنه متأكد من أنه لن يحب أحدًا كما يحبها، وأنها لن تجد أحدًا يحبها مثله.

كانت نظراتها ساهية من أثر الكحول الذي تشربه، لم تسمع بوضوح ما قاله، فاكتفت بهز رأسها بشرود.

شجعه ذلك أكثر وضخ بعض الدماء إلى رأسه، اقترب منها وحمل كأس العرق عنها، وقبّل يدها، وقال لها إنه أحبها قبل أن يلتقي بها، وإنه يعلم أن كل تلك المشاكل التي تعانيها إنما سببها هذه البيئة التعيسة التي تعيش فيها.

حدثها بسرعة وبتوتر واضحين عن قريته الهانئة التي يقدم فيها الجميع على مساعدة الجميع، وكيف سيتمكن من جعلها أسعد إنسانة في العالم، إذ لا يوجد أحد قادر على أن يحبها كما يفعل.

طلب منها أن تعطيه وتعطي نفسها فرصة كي يستمتعا بحياة هانئة مع كثير من الأطفال في بيت تملؤه المحبة والحنان.

رفعت سمر يدها تستوقفه، نهضت من كرسيها يخالجها شعور بالغثيان وفورة غضب ردت لها مشهد حبيبها يتركها حاملا تتزف على قارعة طريق مهجورة في أولى سنين الجامعة، تذمت منه، صفعته ووصفته بأنه شخص ذليل، وقالت إنها تفضل أن تنام مع بهيمة على أن تسمح له بأن يلمس جسدها، شعرت بأنها تنتقم لنفسها من شخص وضيع لا يملك إلا أحلامه السفيهة، تغدر به قبل أن يغدر بها، عادت فصرخت به مهددة ثم طردته.

***

خرج سليم من دارها يمشي حتى هدّه التعب، لكنه كان مصمما هذه المرة على عدم الرجوع أو الالتفات إلى الخلف، كان ألمه مختلفًا هذه المرة.

بدأ يجلس قليلًا ليرتاح كل بضعة كيلومترات، ثم ينهض فيحمل جسده فوق قدميه مرة أخرى، مشى إلى أن وصل حانة أبو آغوب.

نجح حبيب ساقي الحانة، في تمييز نظرته النارية المكسورة فقدّم له الويسكي المغشوشة حادة الطعم.

تذوق كأسه، نظر إليه مرة أخرى، ثم شربه دفعة واحدة.

كانت الحانة على تخوم المدينة، كبوابة للصحراء السورية الواسعة، كانت البدويات ممن يمتلكن أصواتًا جميلة يقصدن الحانة على أمل أن ينلن شهرة مقبولة، تمكنهن من الحصول على قواد كبير يؤمّن لهن الزبائن المحترمين من مسئولين أو أجانب قادرين على دفع المال الحقيقي، أو يعشن من التقوّت على أموال أصحاب أنصاف المؤهلات، ممن يبحثون عن أنصاف المواهب أو النساء.

كعادته في انهياراته العاطفية الثقيلة، يغدو سليم متأكدًا من ضرورة شرب كميات ضخمة من الكحول، وبأن لا سبيل غيرها لقتل ألمه ونفسه على حد سواء.

نظر إلى الكأس التي أمامه، ما زال يحاول تذكر تقاطيع وجه سمر، كيف يكرهها ويحبها؟

لقد وصفته بالنكرة، وبالخسة، وطردته، ثم استدارت تستقبل عقيد الأمن السياسي بفرح وابتسامة عريضة، ابتسامة لم يحظ سليم بنصفها في أحسن أحوالهما.

كان يريد الانتقام من كل شيء، بالأخص من نفسه الوضيعة التي تعزف على الطبلة وتغني خلف النورية سمر.

لا ليست وضيعة، كيف لا يحبها وهي إن غنت رسمت أقواس قزح في عين الشمس، كان يشعر عندما تشدو بأن كل شيء توقف عن الحركة، وبأن الأرض توقفت عن الدوران، كل شيء يسكن إلا رأسه الذي يدور من النشوة.

وقف في مكانه، تخيل أنه محاط بوجوه كثيرة تسخر منه.

قال في نفسه: "كلكم متشابهون، كلكم أولاد قحبة تنهارون أمام الفروج الزهرية كالكلاب".

شرب كأسًا جديدة دفعة واحدة. وصاح:

– تبًا لكم جميعًا.

ثم نادى حبيبَ بصوت عال وطلب كأسًا أخرى.

لم يجادله الساقي، وضع على عجل كأسا أمامه، وانصرف إلى

تنظيف الصحون والكؤوس، كان الوقت مبكرًا على ولوج الزوار، وها هو يقدم الكأس العاشرة لسليم، وبعد كأسين أو ثلاث أخرى، سيفقد وعيه لا محالة، فيحمله ويرميه في الباحة الخلفية للحانة، حيث ينام بهدوء حتى يستيقظ.

لسوء طالع سليم، قرر 3 ضباط أن يبدأوا سهرتهم باكرًا، لمحهم سليم حال دخولهم، فهمّ يستقبلهم بالسباب والبصاق، بدأ بتوجيه السباب إليهم أولًا، لأنهم يعملون في أحقر مهن التاريخ، مهنة كلاب السلطان، وقبل أن ينتهي من سب الرئيس اللص وعائلته الكلاب، هم أحد الضباط فلكمه في وجهه، وشهر آخر مسدسه يريد إطلاق النار عليه، عندها تدخلت إحدى العاهرات اللواتي كن يعرفن سليم وكانت جاءت لتوها، فقفزت تفصل بين المسدس وبينه.

حبيب الذي كان يراقب ما يحدث تَسمَّر في مكانه بسبب السرعة التي جرى فيها كل شيء، وقبل أن يسحب سليم الممدد أرضا، كانت بائعة الهوى تضع مسدس الضابط بين فخذيها، وقالت إنه إذا أراد أن يطلق النار فيمكنه ذلك كما يشاء بين فخذيها.

اقترب حبيب بحذر، وأخبر الضباط أن سليم شخص مخبول، وبأنه سمح له بالدخول لأنه لم يدرك أن سيادتهم سيأتون مبكرًا. وعندما أصر أحد الضباط على قتل سليم أو أخذه إلى السجن، تقدمت الفتاة

وقالت إن عليهم ألا يأبهوا لهذا السكير المجنون، وألا يضيّعوا الوقت مع هذا التافه الملقى أرضًا، فالسهرة لا تزال بكرا.

أمام إصرارها، رضخ الضباط، وقبل أن يجلسوا أقسم أحدهم أنه سيقتل سليم حالما يراه مرة أخرى.

أمسك حبيب برجْلي سليم ثم سحبه إلى غرفة مهملة بعيدًا عن الأعين، دثّره وعاد إلى عمله.

بعد أن استيقظ سليم، كانت فلّة التي أنقذته من موت محقق تهم بنزع زينتها، كان ممددًا على فراش في غرفتها، نظر إليها نظرة ميتة، ثم حمل نفسه خارجًا.

أقسم على ألا يعود إلى تلك المدينة، وغادر في اليوم التالي إلى العاصمة، حيث بدأ يعمل مغنيًا بديلا في ناد ليلي فقير.

عمد بداية إلى غناء "سواح" و"زي الهوى" في كل زاوية يدعى إليها حتى أصبح يصدق أنه عبد الحليم، لكنه، وبقليل من الحظ، وبمساعدة من أستاذ موسيقى مفلس، ومن خلال سعاد التي ضاجعته شابة استطاع الوصول إلى الست ليلى، واستطاع تحقيق شهرة طيبة خلال بضع سنوات. دفعه غضبه وحقده إلى الامتناع عن الشرب لفترة سنتين عمل خلالهما بجهد تحت إمرة الرئيسة وتوجيهاتها حتى نجح في إطلاق أغنية مقبولة ذات إيقاع سريع تتغنى بعظمة الرئيس وبداهته المميزة، ودّع من بعدها الشهرة المتواضعة، وفتحت

أمامه أبواب المال على أقصاها، لكن جزءًا منه بقي وفيًا لمبادئ زرعتها والدته ونشأته الفقيرة في جسده، ما سبب له مشاكل لاحقة مع النافذين في الدولة ومع الست، وسينكسر أمامهم كثيرًا قبل أن ينتصر لأهله ومبادئه ويفقد حياته.

الفصل العاشر

صاحبة الفن

بدأت ألين بشكر الحضور والمشاهدين، وقناة "الإم جي بي" التي قالت إنها تحبها كثيرًا. قبّلت أصابع يدها ثم أرسلت القبلة إلى الكاميرا أمامها وانثنت حتى بان نصف ثدييها أمام المشاهدين، وأشارت إلى الفرقة الموسيقية المتراصة خلفها وشرعت بالغناء.

عملت ألين وهي شابة في أقدم مهنة في التاريخ، وصادف أن لها صوتًا مقبولًا، فكانت تضاجع الزبائن وتغني لأصحاب المزاج منهم إلى أن دعاها زبون مفلس لتقضي الليل برفقته، بعد أن ثمل كلاهما أخبرها أنه لن يستطع أن يدفع لها ثمن الليلة، عاد فطلب منها أن تغني واعدًا إياها بأن يجعلها نجمة ثم ضاجعها.

في الصباح ضاجعها مرة أخرى، أثنى على صوتها مشجعًا وكرر

وعده بجعلها نجمة مشهورة، اختفى بعد تلك الليلة وأغلق هاتفه، لكنها قبل أن تجده غدت واثقة بأنها فعلًا تستطيع أن تصبح نجمة.

غادرت مدينتها إلى العاصمة الكبيرة، وتنقلت بين دمشق وبيروت تضاجع ذاك، وترمي بشباكها فوق آخر، حتى تمكنت من إصدار أولى أغانيها.

بدأت بشراء الأغاني والفيديو كليبات، وامتلكت المال والشهرة لكنها لم تنس أقدم مهنة في العالم.

غدت تضاجع من تحتاجه فقط، فلديها نقود كثيرة وعشاق كثر، لكن أحدًا منهم لم يستطع إشباعها جنسيًا أو ربما عاطفيًا، انتظرت بلا طائل شيئًا لا تعرف ما هو.

بعد تجاوزها الثلاثين بدأت تصيبها نوبات إحباط حادة، كانت تبكي بحرقة عندما تكون بمفردها من دون سبب واضح.

وأسرّت إلى بعض صديقاتها أنها تريد أن تعتزل الفن، لكن عقدها مع الست ليلى يعيقها عن ذلك.

بدأت ترى أن حياتها تدور في حلقة مليئة بالأشواك، وطاردتها مختلف الأسئلة، وبعد أن حققت شهرة ومالًا لم تحلم بهما أبدًا.

مرت أيامها بطيئة خالية من أي معنى، مليئة ببحث محموم عن شيء لا تعرفه، أصبحت تغني فقط نزولًا عند رغبات الست

ليلى ووصيفاتها، وتحضر مجبرة الحفلات التي تطلب منها أن تحضرها.

أخبرها مدير أعمالها أن عليها أن تحضر حفلة يقيمها وزير الدفاع بناء على طلب خاص من الست ليلى.

كان الوزير بمثابة نقيب الفنانين في سوريا، كان يعطي أذون الغناء للشابات اللعوبات في أفخم الفنادق والحفلات، ولم تسلم منه إلا من كانت مسنودة إلى ظهر أقوى منه وأرفع رتبة، وهذا كان يعني دائرة ضيقة مقربة جدًا من الرئيس.

قبل أن تغادر آلين اتصلت ليلى على غير عادتها، فلم يكن يسمع صوتها ويراها إلا قلة قليلة. بدأت تتكلم دون مقدمات:

"حبيبتي، كلنا نمر بظروف صعبة، فهذا ما يجعلنا أقوى، هل تعتقدين أنني لم أواجه حالات إحباط مثلك، أو لم أتساءل ملايين المرات عن جدوى ما أفعله وصوابه؟ طبعًا فعلت.

اسمعي، طلبت منك الحضور لأنك ستجدين مفاجأة سعيدة في انتظارك، وأنصحك بالتفكير في إجازة خارج الدولة تستعيدين فيها طاقتك وحماستك إلى الغناء وصوتك اللامع".

أثناء رحلتها من منزلها إلى قصر الوزير على تخوم العاصمة دمشق، أخبرت آلين مدير أعمالها بأنها تحتاج إلى إجازة طويلة، وأنها

تفضل أوربا، وعليه أن يلغي كل ارتباطاتها غير الضرورية.

رد عليها بأن ذلك يعني خسائر كبيرة، خاصة في شهور الصيف المزدحمة بالحفلات، فلديها حفلتان في الخليج، وأخرى في مصر، واثنتان في لبنان وثلاث في سوريا.

طلبت منه أن يلغي آخر ست حفلات ويبقي على حفلات الخليج، فهز رأسه على مضض.

***

توقفت السيارة، وظهر شرطي ضخم الجثة يسأل السائق عن وجهته، وبعد أن تأكد من هوية الزوار، تمنى لهم أمسية سعيدة، ثم أرسل إشارة إلى برج مراقبة صغير يجلس على تلة ترتفع مترين.

ارتفع حاجز حديدي ضخم يقطع الطريق، مرت السيارة بالقرب من حاجز آخر تقف إلى جانبه مجموعة من الجنود المسلحين.

بعد بضع دقائق أخرى دارت السيارة في باحة واسعة جدًا، وظهر صف هائل من السيارات الفارهة على جانبيها، تقدمت سيارة ألين إلى درج من الرخام، فتح الباب شاب وسيم رحب بها وقال إن الجميع بانتظارها متمنيًا لها سهرة ممتعة.

دخلت ألين ردهة واسعة، جدرانها مطلية بلون ذهبي لمّاع، وفي منتصفها ثرية ضخمة من ذات اللون، على الجدران وضعت لوحات

ورسوم تشكيلية مقيتة إطاراتها أكثر قيمة منها، في آخر الصالة وعلى بعد نحو 50 مترًا من الباب الرئيسي لاح باب واسع يطل على حديقة، وظهر فيها الناس يحملون كؤوسهم، وشباب يدورون بأطباق وكؤوس بين الحضور.

لم يكن أحد في استقبالها، مشت بخطى ثقيلة تهمس بسباب قاس لمدير أعمالها والموجودين وحظها العاثر، وتقول لنفسها إنها لو كان لديها مدير أعمال جيد لما اضطرت إلى إضاعة وقتها بهذه الترهات.

بدأت تشتمه بصوت مسموع، فطمأنها أنها ستجد نخبة الوسط الفني في الخارج.

قالت له إن فرّج أمه سيتسع للوسط الفني بأكمله قبل أن تصل إليهم، شتمته مرة أخرى ثم حملت ابتسامة فوق وجهها وولجت الحديقة.

استدار وزير الدفاع نحوها، قبّلها ورحب بها بحرارة، كانت وجنتاه الحمراوان من الكحول تجعلانه يبدو مثل "بابا نويل" بشعره وشاربه الأبيضين، ما ينقصه فقط هو اللحية.

قالت له إنها اشتاقت له كثيرًا، وأومأت لمدير أعمالها بالانصراف، فاختفى بين الحضور.

بعد قليل جاءت فتاة شابة جميلة حيّاها الوزير وقبّل يدها، وقال مخاطبا إلين: هذه ميراي، إنها أم كلثوم الجديدة، الفرق بينها وبين "كوكب الشرق" أن ميراي تمتع بجمال أسطوري كما هو واضح.

وأضاف:

– أم كلثوم أصبحت من التاريخ، الشباب هو من يمسك دفة القيادة، انظري مثلا إلى الموسيقى الكلاسيكية، من يستمع إليها اليوم؟ إنها قطعة ممزقة من التاريخ يحملها السفهاء خلفهم ككتاب مقدس.

مسح شاربه المبلل بالشراب بسبّابته، وقال إن مشكلة الناس اليوم هو أنهم لم يعودوا يؤمنون بمفاهيم موحدة، فالمفاهيم مقلوبة الآن، فما الوضاعة؟ وما القتل العمد أو الخيانة؟ ما السرقة؟

أشار بيده إلى الحضور، وقال إنه في حين يرى البعض من حوله سفلة ومرتشين، يراهم هو نخبة من أعلام المجتمع السوري، فالناجح بالنسبة له، هو الذي يخبر القصة كاملة، وأما من يُرمى بالحجارة، فالشجرة المليئة بالثمار.

تخلى عن جديته المصطنعة والتفت إلى الفتاة بجانبه، قرع كأسها وقال:

– اشربي يا حلوتي، اشربي.

ضحك كعربيد، ثم طلب المغفرة من ألين، آملًا ألا يكون أثقل عليها بكلامه الفلسفي الذي لا يجد منه مهربًا، تمنى لها قضاء سهرة سعيدة، وشكرها مرة أخرى على مجيئها، قبل أن ينصرف مع أسطورته بعيدا عنها، قال:

– أصر على أن تأخذي نسخة من كتابي الأخير قبل أن تغادري، ستجدين نسخة موقّعة باسمك في الصالة.

شكرته ألين وقالت إن ذلك يشرفها.

راقبته يغادر إلى زاوية الحفل باتجاه طاولة وزير الثقافة، دارت عينها في المكان فميزت بين الحضور العديد من رفاقها في المهنة، ومدير بنك ضاجعته سابقًا وكان بدوره يتحاشى النظر إليها.

اكتشفت أنها ضاجعت عددًا لا بأس به من الموجودين في الحفل، لم تعرهم انتباهًا، وبادلوها التجاهل.

ابتسمت لشاب رشيق قدّم لها كأس شمبانيا من صينية يحمل فوقها أشربة متعددة، كان قوامه ووجه يوحيان بأنه كما بقية الخدم، جندي طلب منه القدوم إلى الحفلة والخدمة فيها ثمنًا لإجازة طويلة.

كذلك ميّزت ألين العديد من نجوم الفن في سوريا، حيّتهم من بعيد وبابتسامة كيفما اتفق، إلى أن وقع بصرها على الست ليلى، كانت مختلفة عن من حولها، تمنت أن تتمتع بتلك النظرات الصلبة التي

ترسلها، كانت تجلس بمهابة من يدرك مكانته بين القوم، والجميع يحاول تحيتها والابتسام لها.

إلى جانبها وقفت بتول، كانت وجهًا جديدًا في حاشية ليلى، لكن وقفتها وأوامرها للحراس والحاشية من حولها تعطيان انطباعا بأنها وصيفة نافذة.

كانت ألين تهم تسأل مدير أعمالها عن تلك السيدة الغامضة التي تقف إلى جوارها عندما حيّتها بتول ثم اقتربت منها مباشرة تتجاذب أطراف الحديث معها.

أخذتها بتول إلى مكان أقل ضجة، وأخبرتها بأنها مديرة أعمال صاعدة لدى الست ليلى، ومعجبة بفنها وأسلوبها، إلا أنها تشعر بأن الأنثى في داخلها لا تزال جائعة، واستدركت مؤكدة أن ذلك ليس عيبًا، فذلك خطأ المجتمع الذي يعيشون فيه.

قالت إنها تحتقر كل من يحيطون بها، ومع ذلك تسعى دومًا إلى أن تكون محط إعجابهم وتقديرهم، وهذا بدوره عيب المجتمع لا عيبها.

هزت ألين رأسها متفهمة، بعد برهة من الحديث شاهدت الست ليلى تغادر فحيّتها بيدها. راقبتها ترحل مع حاشيتها لكن بتول بقيت إلى جانبها.

بعد قليل شعرت ألين بالشقيقة تمزق رأسها، نظرت حولها فرأت أن أحدًا لم يعرها أي اهتمام فقررت المغادرة.

استوقفتها بتول وقالت إنها حضرت كي تعرّفها بنفسها وتكلمها في موضوع المفاجأة التي تنتظرها.

أمسكت ألين رأسها وقالت إن الصداع يكاد يقتلها. أشارت إلى مدير أعمالها حتى يأخذ رقم هاتف بتول على أن تكلمها في أقرب وقت.

قبل أن تغادر أمسكت بتول يدها، وأشارت إلى شاب يقف بعيدا بالاقتراب. أمسكته من ذراعه. وقالت:

– أعرّفك إلى يوسف، قريبي وبمثابة أخي، طالب كلية الطب سنة خامسة.

تقدم يوسف فصافح ألين وقبّل يدها.

نظرت ألين إلى الشاب ثم عينيه وشفتيه، وشرعت تتأمل جسده الممشوق، فشعرت بأن وطأة صداعها تخف.

ابتسم بطريقة غريبة وقال إنه معجب بها وبأغانيها.

قالت له مازحة إن كذبه مفضوح، لكن من قال إنها لا تحب الكذب، خاصة إذا كان من شفتي شاب مثله.

2

خوف لا بد منه

طلبت بتول من ألين أن تقابلها في مقهى "مشوار" الشهير في قلب العاصمة والمميز بكبائنه المغلقة التي تحفظ خصوصية نزلائه، فلا يعرف أحدهم من بها إلا لحظة خروجه.

عندما وصلت ألين إلى المقهى دخلت من بابه الخلفي تلافيًا للفضوليين، وكما أخبرتها بتول وجدت شابًا يقودها إلى قمرتها الخاصة بعيدًا عن الأعين.

خلف طاولة دائرية محاطة بقوس مرتفع كحرف C كانت بتول تنتظرها بصحبة رجل عرّف نفسه على أنه الصحافي المثلي ذائع الصيت بهيج مظهر.

عندما دخلت، اقترب من الطاولة شاب يعمل في المقهى وأغلق

ستار الركن حيث الثلاثة فلم يعد يمكن لأحد رؤيتهم.

كانت بتول إحدى وصيفات الست المفضلات، ممن لا يضيّعن الوقت في الشكليات، أخبرتها وبسرعة أنها مهتمة بها وبتعزيز حضورها في الخليج، حيث ستستطيع جني الأموال كمصرف سويسري.

نصحتها بالاستعداد النفسي قبل السفر، إذ يجب عليها أن تكون سعيدة، وأخبرتها بأنها تستطيع تشجيع يوسف على أن يرافقها في رحلتها في أوربا، أو في فيلتها، أو حتى في مزرعة خاصة تملكها الست ليلى بين دمشق وحمص، لكن ذلك سيكلفها مبلغا إضافيًا.

نظرت ألين إلى بهيج فابتسم بخبث. لم تعر بتول تلك الحركة أي اعتبار، أضافت وهي تفكر في أن ألين المجنونة قد تتخذ قرار الرهبنة واعتزال الفن للصوم والصلاة بشكل جدي:

– في هذا الكون المجنون والسريع، يحتاج كل منا إلى ما يهدئه ولو قليلًا، أحيانا قد يكون اللـه، وأحيانًا الحشيش، وأحيانًا الخمر أو الطعام، أو أي شيء آخر.

وغمزتها مبدية ابتسامة خبيثة وشهية وواصلت.

أنا لديّ ذلك الشيء الآخر، المجنون الذي نبحث نحن النساء عنه حتى نعشقه، وهو بانتظارك عندما ترغبين في تجربته، سيكلفك 10 آلاف دولار في الأسبوع، أما إذا رغبت في قضاء الوقت برفقته

في مزرعة خاصة فعليك دفع 10 آلاف إضافية.

سمعت أنك ترغبين في السفر خارج البلاد، وهذا أمر جيد يمكنك أن تأخذيه معك مقابل 10 آلاف دولار أخرى، جربي ولن تندمي، في النهاية نحن نحيا مرة واحدة في هذه الحياة الشرموطة.

تأسّفت بتول عن حديثها الطويل، واعتذرت متعللة بارتباطها بموعد آخر، ثم طلبت من ألين ألا تتردد في الاتصال بها في أي وقت تشاء عندما تواجه أية مشكلة مهما كانت، فهي قادرة على مساعدتها، ثم خرجت وتركتها مع بهيج بعد أن أوصته أن يخصص غلاف مجلة وردة الخليج بالكامل لها مهما كلف الأمر، وأن يتحدث عن حفلات ألين الصيفية في دبي وأبوظبي.

بقيت ألين مذهولة لوهلة، ظنت أنها ستلتقي بليلى وتبوح بكل ما يعذبها، وكيف تبكي عندما تكون بمفردها، وكيف تنساب دموعها بغزارة، وتشعر بأن حياتها المقهورة لا تساوي سوى تلك الدموع، ثم تستأذنها اعتزال الغناء وحاجتها إلى فسخ العقد بينهما.

كان بهيج سببًا آخر يدفعها للشعور بالغم، فهو أداة الست الناعمة والقاتلة، كانت تسرب له معلومات أو أشرطة أو صورًا لأشخاص تخلت عنهم أو حاولوا أن يغدروا بها، كانت تقول إنها لا تنتقم منهم على مقدار ذنبهم بل حتى يكونوا عبرة للآخرين.

وتّرها حضور بهيج، تساءلت حول جدية التهديد، وما الذي يمكن للست أن تسرّبه عنها.

بهيج كان موظفا مثليا ومثاليًا، فهو ينفذ المطلوب منه على أكمل وجه، دون أي مراعاة للتكلفة والنتائج، يعشق الذهاب إلى المستشفيات، فلا شيء يفرح قلبه أكثر من رؤيته الناس يتألمون، هذا بالإضافة إلى إيمان شبه مطلق بالسحر والأرقام والشعوذة.

لا يخرج من منزله إذا صادف تاريخ يوم 06، وكان يلف الدوار مرتين قبل أن يلج المخرج اليسار، وعلى عيوبه وصفاته تلك تمكن من مصادقة عدد لابأس به من السيدات النافذات في المجتمع، فقد كان الصحفي المفضل لهن، من يفهمنه ويفهمهن.

تكلم بهيج بلكنة شاذة واضحة مدة خمس دقائق دون أن تستطيع ألين أن تجاوبه أو تخبره أي شيء، وبعد أن يئس كلاهما من الآخر. قال إنه سيتصل بمدير أعمالها للحصول على بعض المعلومات، وعليها أن لا تقلق بشأن أي شيء، منهيا اللقاء بجملته الشهيرة "رح زبّطك".

***

وصلت ألين إلى منزلها شاردة الذهن، كان مدير أعمالها في انتظارها، قبل أن تتحدث قال لها إنه لا يريد أن يعرف ماذا كانت

تريد منها الست، لكن من الأفضل لها أن تفعله، لأن شخصًا إلى جانبها كالست ليلى سيجعل كل مشاكلها من الماضي.

لم تجبه، قالت إنها بحاجة إلى أن ترتاح، فاعتذر مودعًا.

صعدت إلى غرفتها، نزعت ثيابها وزينتها، اتصلت ببتول تخبرها نيتها السفر إلى برشلونة نهاية الشهر الجاري، وبأنها تريد تلك البضاعة التي تحدثت عنها.

هنَّأتها بتول وقالت لها إنها فعلت عين الصواب، وإنها ستقوم بتحضير تأشيرتين سياحيتين لهما.

شكرتها وأغلقت هاتفها، وتناولت مهدئًا ومنوّمًا قويًا واستلقت فوق سريرها تحلم بالمتعة التي تنتظرها في برشلونة الجميلة.

3

– إلى أين سيذهب؟ برشلونة؟ اجلس يا ابني اجلس.

نهض أبو خالد، سحب يوسف من ياقة قميصه، طلب من مفيد أن يقنعه بالجلوس.

لم يكن لديهما أي خيار، فجلسا إلى الكراسي العتيقة في حديقة منزله الواسعة.

– برشلونة؟ معقول؟

وقبل أن يفتح أي منهما فمه، رفع يده في الهواء كمن يطلب الصمت، ونادى:

– زوجتي..

تذكر أنها في دار أهلها منذ يومين، ابتسم بخجل طفيف، ونادى ابنته:

– حنان، ابنتي حنان.

جاءت حنان تترنح بردفيها الثقيلين، كانت الأحب إلى قلب والدها.

خاطبها بلطف بالغ:

– حبيبتي حنان، أعدي القهوة للسيد مفيد وابنه السيد يوسف.

بانت وسامة يوسف الفريدة على وجه حنان حالما رأته، شعرت بدوار خفيف، لم تتكلم، هزت رأسها وغادرت على عجل.

قال أبو خالد:

– اسمع يا أبتي (كان يقصد يوسف)، أوربا وأمريكا أسوأ حضارة أمكن للبشر إنجابها، هؤلاء قوم فاسقون.

أنا كما تعرف أمريكي الجنسية، أذهب إلى أوربا وأمريكا كل سنة، هؤلاء قوم لا يعرفون الله، كذابون، ومُضَلِّلون، يدعون شيئا ويفعلون آخر، أكبر المنافقين حتى تاريخه، انظر ما فعلوه بالعراق!

أثنى مفيد على كلام أبي خالد. وقال:

– هل تظن أن الأوربيين سيقولون إننا هنا كي نحتل أراضيكم ونسرق نفطكم وخيراتكم، وإنا جئنا كي نأخذكم للعمل لدينا كالعبيد؟ طبعًا سيتحدثون عن الحرية واحترام حقوق الإنسان، و... و... هذا هو ما يسمى الذكاء العاطفي.

نظر أبو خالد إلى يوسف نظرة مريبة ملؤها الشك، ثم اقترب منه وهمس ينصحه بعدم الذهاب، فأوربا كبائعة الهوى، تستطيع تحقيق كل خيالات الفتى الجنسية، لكنها أبدًا لن تكون امرأة صالحة.

ابتسم يوسف، وقال إنه سيذهب في عمل ويعود خلال أسبوعين.

نظر أبو خالد إلى مفيد، كمن يسأل عن صدق ما يقوله الشاب، فهز مفيد رأسه إيجابًا، وأضاف أن يوسف "بزبره" الكبير أكبر من أن تستوعبه أوربا، حتى لو قرر البقاء، فستلفظه مجبرة.

وقف يوسف فجأة، تذكر أن ساندرا كانت قررت أنها ستموت فوق صدره في بلاد بعيدة عن مسقط رأسها، كانت تخطط لأن تنتقل معه ليكمل تخصص الطب في الخارج، على ألا يعود أبدًا إلى تلك الرقعة من الأرض. شعر بضيق نفَس، مد يده إلى جيبه وتجرع حبة الدواء على عجل.

أحس مفيد بضيقه فأدرك أنه يتذكر معشوقته، فحاول أن يغير مجرى الحديث.

مال ظهره إلى مقعد الكرسي، وضع رجله فوق رجل. وقال:

– أشد على يدك أبي خالد، هذا كلام سليم.

تابع مفيد:

نعم، نعم، أوربا دول عاشت متخلفة لآلاف السنين، ثم سادت

فجأة نتيجة أوضاع استثنائية، وهذا بكل تأكيد لا يجعل منها أمة صائبة. علينا أن ننتظر ما ستفضي إليه الأمور، علينا ألا نقول إن ما يفعلونه صائب لمجرد كونهم أقوياء وموفورين اقتصاديًا. إن بضع مئات من السنين لا تجعل أمة أو فكرة ما على صواب، لا تنس أنهم شنوّا خلال 25 سنة حربين عالميتين قتلوا فيهما بعضهم الآخر ونصف سكان العالم، علينا أولا أن نتخلص من أسطورة أوربا، علينا أن ننتظر ونرى.

اعتذر يوسف مستئذنًا، فعليه أن يتم بضع أوراق استعدادا للسفر، هز مفيد رأسه موافقًا.

كانت حنان، تراقب الثلاثة من خلف النافذة دون أن ترفع عينها عن يوسف. عندما ناداها والدها كي تتوقف عن إعداد القهوة، حضرت بسرعة لا يتميز بها آل زيتون فاجأت والدها وضيفيه.

كانت تحمل كتابا تحت إبطها. عندما لمح أبو خالد الكتاب، أغلق عينه اليسرى، ورفع حاجب اليمنى، مدّ شفتيه إلى الأمام يتساءل عن الكتاب المقدس بين يدها. فقالت بحياء:

– كتاب. تعلم. تعلم اللغة الإسبانية في خمسة أيام.

أمسك والدها رأسه بكلتا يده. وشرع يولول.

– لماذا يا ربي لماذا؟ نظر إلى ابنته بجدية. وقال:

– ولي عمي. من يرد التعلم عليه الذهاب إلى الجامعات وورش ومعاهد التدريب لا قراءة الكتب.

هزت برأسها دون إجابة واضحة، ومشت تقترب منهم أكثر، وعندما وقفت أمام والدها، كان مفيد يخطو مستئذنًا، بعد شد وجذب مع أبي خالد وافق على السماح لهما بالانصراف على أن يعود مفيد فينام في منزله خلال غياب يوسف وأم خالد.

4

استقل يوسف تاكسي المطار، وأعطى السائق اسم الفندق القريب من "بلاثاكتلونيا"، كان فاخرًا جدًا وعتيقًا تم تجديده عشرات المرات، غرفه كانت صغيرة بعض الشيء، على عكس الفنادق الحديثة في "فيا أولمبكا"، والتي بنيت مع إقامة الأولمبياد في المدينة، التي يكثر فيها السياح العرب والخليجيون خاصة.

في بهو الفندق، ابتسمت له موظفة الاستقبال تسأله عن اسم عائلته، بعد بضع دقائق كان في الجناح الفاخر، دخلت عاملتان في الفندق تستئذنانه بترتيب ثيابه والتأكد من تلبية جميع رغباته، شكرهما بلطف وأعطاهما بعض النقود، فشكرتاه وغادرتا الجناح.

كانت جدران الجناح مليئة بالمرايا الضخمة التي يتجاوز عرض بعضها المترين، مؤلفا من غرفتين مفروشتين بشكل باذخ. توسطت صالة الجلوس طاولة بيضاء سميكة الخشب ومنخفضة يجاورها كرسيان أبيضان يبدوان مريحين. الحمام كان باذخا أيضا وواسعا

جدا تتوسطه جاكوزي مثمنة الشكل ومزينة بمقابض ذهبية. سرير غرفة النوم كان محاطا بأربعة عواميد يعلوها سقف بمرآة على كامل امتداده وينسدل منها ستائر مخملية شفافة، أمامه طاولة من الرخام، تقابلها شرفة باب واسع مزود بباب زجاجي يفتح إلى الداخل.

خرج يوسف إلى الشرفة يعاين المكان، كان الفندق مزروعا بين أبنية قديمة متراصة الشرفات والجدران، حتى إنه كان يرى ساكني الأبنية المقابلة، ومن منهم على الشرفات إلى جانبه بكل وضوح، كانت الأبنية أكثر تراصا منها في سوريا.

تذكر أن طبيبه نصحه بأن يكتب ما يشعر به من ضيق متى سمح له وقته بذلك.

دخل إلى الجناح، جلس إلى طاولة بيضاء مزخرفة بخطوط ذهبية، وشرع يكتب:

"أعيش أنتظر الغد كالكثير من أبناء جيلي. تعتصرني آلام مقيتة في ريعان شبابي، فكيف بي عندما أصل إلى عمر التعاسة، إن وصلت؟".

ضاق صدره فمزق الورق وخرج إلى الشرفة المطلة على الشارع الأشهر في المدينة.

كانت جموع الناس تموج أسفل الفندق، الشارع عريض جدًا ومليء بالمحال التجارية المختلفة والبشر، ويُحظر فيه مرور العربات باستثناء سيارات النقل البضائع والإسعاف.

شعر بغربة ووحشة جعلتا فمه جافًا، قبل أن يهم بالدخول، رأى عجوزًا تحاول نشر ثيابها فوق شرفة قريبة منه إلى اليسار من الفندق.

كانت تجاوزت الثمانين أو ربما أكثر، أدهشه هزالها وعظام وجهها الناتئة، والفستان الخفيف الأبيض الذي تلبسه كان جد رقيقًا بحيث بدا واضحا كيف عبثت الطبيعة بجسدها وشوّهته.

أشارت له بيدها بهمة واضحة، كانت تتكلم لغة كتالونية مطعمة ببعض الجمل والكلمات الإسبانية.

قال بإنجليزية سليمة:

– عفوا لكنني لا أتكلم الإسبانية يا سيدتي.

– ماذا؟ اقترب، اقترب.

من شرفتها أشارت له بانفعال إلى أذنها لتفهمه بأن سمْعها خفيف، وبلهفة اقتربت حتى الزاوية الأخيرة من شرفتها وقالت بلغة إسبانية إن اسمها لوبيز. هذا كل ما فهمه من حديثها المتسارع الطويل، كان يكتفي بهز رأسه على مهل.

فجأة خرج أرنب أبيض إلى شرفتها الضيقة جدًا والمزدحمة بالأشياء، ككل الشرفات في برشلونة. لم تكترث للأرنب وعادت تخاطب يوسف، كانت تريد التحدث مع شخص ما غير الحيوان الذي يعيش معها، حتى وإن كان لا يفهم لغتها، المهم أن تشعر بوجود إنساني حتى تتفجر طاقة قوية لديها تنسيها تعبها وأمراضها الكثيرة.

شرعت تخاطبه – دون أن يفهم – أنها تزوجت وأنجبت ثم افترقت عن زوجها لأنهما أصبحا لا يفهمان بعضهما الآخر.

أنجبت، ولديها أحفاد إلا أنها لا تراهم، فهم غالبا مشغولون في هذه الدنيا، مع ذلك لا تترك منزلها، فهي تريد أن تموت هنا في سريرها، كانت تعرف سبب هذه الرغبة، إلا أنها الآن وبعد ثلاثين عامًا من السكن بمفردها، لم تعد تتذكره. إنها في عمر يغدو فيه الفرق بين الحياة والموت غير مفهوم.

– أنا آسف، سأذهب الآن.

قال ذلك باللغة الإنجليزية. لوّح بيده مرتين واستدار نصف دورة.

كانت لا تزال تتكلم لم يعرف عن ماذا، لكنها اكتشفت من حركته أنه كان يريد الذهاب.

– حسنا إلى اللقاء، بلغ أهلك تحياتي.

– حسنًا، وداعًا.

أغلق باب الشرفة ونظر إلى داخل الجناح، حتى مع الهدوء الذي يضفيه هذا الجو الجميل، ما زال يحس بالألم ويفتقد السعادة. اعتصرته موجة من موجات الألم الخفيفة التي تنتابه كل يوم، هذا الألم اليائس الذي يقضي على متعة اللحظة والسعادة السريعة إذا صادف وأحس بها.

لم يعد يتذكر أين قرأ أنه تعيس جدا من لم يولد مع سيل السعادة الجارفة بداخله.

كان أخبر مفيد بأن ألمه عبارة عن وخز متواصل كدقات قلبه بطيئة أحيانًا، وأحيانا عالية ومسموعة، وهكذا إلى أن تنتهي، باعتقاده، مع نومه الأخير وتوقفه عن الخفقان.

قطع حبل تعاسته رنين هاتفه المحمول قرأت عيناه الرقم الغريب بترقب.

– آلو

– هـــاي.

تمادت ألين بشدها للكلمة وأعقبتها بالسؤال:

– كيف هو الجناح، أعجبك؟

– جميل جدًا.

– ممتاز، لقد وصلت لتوّي، سأقصد مدينة سبادي لأرى شقة هادئة هناك قد اشتريها إن أعجبتني ثم آتِ إليك، هل نستطيع اللقاء أمام الفندق اليوم في الساعة الحادية عشرة مساء؟

– بالتأكيد

– حسنًا، وداعًا الآن.

– وداعًا. قالها بصوت قليل الهمة.

– ما بك؟

– لا شيء، إلى اللقاء قريبًا.

لم يكن مغتاظًا تمامًا من حديثها مع أن لهجة صوته بدت حزينة. في الحقيقة كان جو المدينة الجديد قد أشاع بعض الراحة في قلبه، كان هادئا لفكرة اللقاء بألين خلال بضع ساعات.

ما زال أمامه متسع من الوقت، لم يكن تعبًا، فكر في أن يتجول بالقرب من الفندق.

عندما وصل إلى الشارع، هالته جموع البشر والوجوه المختلفة التي تركض في كل اتجاه، نظر إلى الأبنية العتيقة من حوله، شعر بأنه يستطيع تذوقها.

اصطدمت به فتاة شقراء جميلة اعتذرت بلغة إنجليزية وتابعت سيرها قبل أن تسمعه يقول إنه لا بأس عليها.

أراد الوصول إلى البحر، وكان الوقت صباحًا، فمشى باتجاه الشمس. في طريقه استوقفه الحواة الجوّالون، كانوا مجموعة من الرسامين والرياضيين، مغنين وحتى سحرة، كل يقدم شيئًا مختلفًا مقابل مبلغ من المال لمن يريد أن يعطي أو أن يأخذ صورة. رأى المجنون والفقير والمتسول والأغنياء والجميلات الفاتنات، كل في مكان واحد، لا يبدو أن أحدهم مهدد للآخر.

فكر بأنه لأول مرة يقيم في مدينة حقيقة، لا تتزين كي تخفي قبحها، حيث لا يضطر الناس للنفاق حتى يعيشوا، يمكنهم فقط أن يكونوا كما هم عليه.

قبل أن يصل إلى البحر، توقف في مقهى مزركش بألوان قوس قزح، جلس إلى جانب سائحين عجوزين، التفت الرجل إليه وقال:

– هذه المدينة لا تستيقظ باكرًا. وابتسم.

بادله يوسف الابتسام، شرب فنجانا من القهوة دفع الحساب وعاد إلى سيره.

توقف في مكان آخر في ساحة رامبلا ربال أمام بار صغير يدعى Hasta Siempre، يمتد تحت لافتته سلك حديدي ملون كقوس قزح بالمقلوب تتدرج من أوله إلى آخره وعلى طول واجهة المحل صور بالأبيض والأسود لأشخاص، وأحداث مختلفة تمتد بين مدينة هوشي من في فيتنام إلى كوبا وكاسترو مع تشي جيفارا، القنبلة لحظة انفجارها فوق هيروشيما أو ما يبدو أنه كأوّل الانفجار، أجسام بشرية يبدو التعذيب عليها واضحًا، وأسفلها كتب بخط صغير بالأحمر "ضحايا فرانكو"، وطفل يرفع قبضة يده في وجه دبابة.

قبل أن يهم بالجلوس تذكر ألين، عبث بهاتفه النقال، لم تتصل بعد، فكر في أن يعود إلى الفندق على أن يقصد البحر صباح غد. كان يراها فتاة شبقة وغريبة إلى حد ما وغير روتينية أو مستهلكة.

تذكر للحظة عندما أخبرته بتول أن ألين من أوقح الفتيات اللواتي عرفتهن. اتسعت ابتسامته قليلًا، تذكر أن لحظات إرضاء غروره الذكوري قد تصيبه هذا المساء أيضًا. ربما تستطيع هذه المجنونة أن تقحم في حياته قليلا من البهجة.

إلا أنه سريعا سيكتشف أن طلبات ألين لا تتوقف، وبأنها تعاني مزاجية مرضية، وستمضي معه أيامًا قليلة جدًا قبل أن تفتعل مشكلة متهمة إياه بالنرجسية والشوفينية، فيغادر على إثرها الفندق عائدًا إلى بؤسه وإلى سوريا.

5

فقد أنفه

قال مفيد:

يحتاج هذا العالم حتى يتقدم إلى 3 أنواع من البشر، نوع منظم، ونوع حيواني يطوّع الغريزة ويتقيد بقواعدها ولو خفية، وثالث نقي شاذ مختلف وفنان ومجنون يحاول إعطاء الحياة لونًا جميلًا حالمًا يلطّف به من صلف البشر المجرمين.

شرب مفيد قليلا من كأسه قبل أن يضيف:

– نعم هناك بعض الظلال بين تلك الأنواع، نوع لا ينتمي لأي منها بشكل صريح، نوع أسميه "شواذ الشواذ" هذا النوع لا يعيش ولا يبذر وإن فعل لا يعمر سبطه طويلًا.

كان مفيد يتحدث إلى يوسف الذي كان ينظر إليه ولا يتفوّه بشيء كالعادة، وكأنه لا يسمع ما يقوله.

شرع مفيد يتحدث بصعوبة بالغة، وكان التعب ظاهرًا عليه بشكل جلي، حتى إنه أسبل عينه وتوقف عن الكلام لبرهة.

نظر يوسف إليه بأسى وحاول إخفاء وجهه بيده، كان يشم رائحة الموت تفوح من يدي مفيد ووجهه، لم تعد تنظيراته الفلسفية ممتعة كما في السابق.

حوّل نظره عنه إلى غرفة الجدة حليمة التي كانت تبكي بحرقة.

عندما شاهدته ينظر إليها، جففت دموعها، ودفعت كرسيها باتجاهه. أمسكت يده، وقالت له إنها لا تريد أن تغادر، تريد أن تموت هنا مع ذكرياتها وبين أحبتها، لكن فاتن دومًا كانت تجبرها في النهاية على الانصياع لها.

قال يوسف إن كندا بلد جميل، وفيه خدمة طبية ممتازة على مدار الساعة، وهناك ستحظى بأصحاب كثر وستكون فاتن وابنتها حولها تملآن حياتها.

هزت الجدة رأسها موافقة، بعد قليل كان العمال أفرغوا الشقة من كل أثاثها، فجأة ظهر زوج ابنتها، قال إنه قد حضر ليقلّها، وإن فاتن تنتظرها في السيارة أسفل البناية.

حاولت حليمة إقناعه بأن يناديها كي تودّع مفيد ويوسف، لكنه قال بلهجة آمرة "علينا الذهاب مرة عمي".

نهض مفيد وقبّلها مودعًا، وكذلك فعل يوسف، ضمّته كثيرًا وقبّلته كثيرًا، ذكرته بوعده أن يكتب لها رسائل طويلة، وأن يأكل بشكل جيد حتى يستطيع التخرج بتفوق ومتابعة دراسته في كندا حيث ستنتظره، فاكتفى بهز رأسه مبتسمًا.

كانت سعاد تسد الباب بردفيها الكبيرين وهي بالكاد تلتقط أنفاسها، أشارت بيدها أن ينتظروا قليلًا ثم اقتربت رويدًا من الجدة، قبّلتها مرات وطلبت منها أن تتنبه إلى صحتها، وأن تدعو لهم جميعًا بالتوفيق، فهي سيدة مباركة ودعواتها مستجابة.

***

بعد أن ودع الجميع الجدة، قال مفيد إن عليهم أن يحتفلوا معًا، وغمز لسعاد التي نهرته عن حركات المراهق، ورفعت يديها إلى السماء تطلب أن يضع الله في رأسه ذرة عقل.

قال إنه يستطيع أن يعطيها أحد الاثنين: درسا فلسفيًا ناريًا، أو قضيبًا ناريًا هو الآخر.

ثم اقترب منها وقبّلها في خدها، ضربته بكوعها حتى آلمته، وأشارت له بالخروج ففعل.

في الأسفل كانت سيارة أجرة تنتظرهم، استقلوها إلى منزل يوسف حيث كان مفيد يقيم منذ مدة.

طلبت من مفيد أن يصعد إلى الأعلى لأنها ستتحدث إلى يوسف في شأن ضروري.

وافق على مضض بعد أن وعدته سعاد ألا تلمس يوسف أو "زبره".

***

قصدت ويوسف مقهى قريبا، جلست وآثار الجدية بادية عليها. قالت:

– اسمع يا قمر، لا أحب المراوغة، ولذلك سأقول لك الموضوع بالتفصيل.

الست ليلى وبتول كلتاهما معجب بأناقتك وصمتك والتزامك بالعمل، أنت تضاجع كشخص محترف ينظر إلى ما يقوم به كرب عمل مسئول يسعى للحفاظ على رزقه، لا كالشباب الذين يظنون أنفسهم في رحلة استجمام.

– لكن.

– المشكلة أنك حزين دائمًا، وصامت أكثر مما ينبغي.

نعم، تحب السيدة منا أن يصغي لها الرجل، لكنها لا تطيق أن يتجاهلها.

رحلتك الأخيرة مع آلين إلى برشلونة كانت كارثية. لم تحدّثها طوال الوقت، قالت إنك أشعرتها باليأس وصداع متواصل، وإنها لم تستطع قضاء دقيقة أخرى برفقتك، فتركتك وعادت بمفردها.

نعم آلين مجنونة وشهادتها لا يعتد بها، لكن زينب أيضًا لم تكن سعيدة، قالت إنها ضاجعت دمية جميلة جدًا لا روح فيها، وطلبت من بتول أن ترسل لها في المرة المقبلة قضيبًا اصطناعيًا، فذلك أوفر لها، كيف تحول شاب أمتع نصف سيدات المدينة إلى دمية حزينة؟

أيقظته تلك الجملة، نعم لقد ضاجع الكثيرات، وبنهم وشغف، لم يعد يستطيع تمييز السيدات المتعطشات للجنس كما كان يفعل، لقد فقد أنفه، فتساوت لديه كل روائح النساء.

حاول أن يجد تبريرًا لفتوره، فرأى نفسه يتذكر ساندرا، كيف يمكنه أن يستمتع بملمس امرأة بعدها؟

كأن سعاد عرفت بما كان يفكر. قالت:

– اسمع حبيبي، لقد مرت أكثر من سنة على رحيلها، لست أول من يفقد أحبته، ولن تكون الأخير، ليست ساندرا من صنعك، كلنا أولاد "زب" و"فرج"، كلنا أولاد "منيوكة".

نظر إليها فرآها تبتسم، ووصلت الحديث بقاموسها الذي لا يعرف الخجل فقالت: إنه لولا "تيكات" والدته لما كان موجودًا حتى يعذب الناس بـ "قضيبه".

ثم ضحكت بصدق.

تابعت تلقي شتى أنواع النكات البذيئة وتحدثه عن غباء زوجها السابق، ثم انتقلت تسب شقيقتها "أم زنبور"، ووالدها الفقير السكير، وتطلق الألقاب البذيئة على جميع من تعرفهم.

بدأ يوسف يضحك وكانت تضحك من قلبها لرؤيته سعيدًا.

بعد نحو ساعة نهضت، أمسكت يده، وطلبت منه أن يحضنها قبل أن يوصلها إلى سيارة الأجرة، ففعل، تغنَّجت وتدللت وهي تقول إن منظرهما معا على هذه الصورة سيقتل أكثر من 20 سيدة في حارتها كمدًا.

قبل أن تذهب قالت إن ضحكاته أثارتها كثيرًا، وإن لديها رغبة محمومة في شيء، لكنها خجلى. أدرك يوسف أن رغبتها غير محمودة، نظر إلى بناية قيد البناء بالقرب من منزل أبي خالد.

قال لها إنه حتى لو رآهما أبو خالد فلن يمانع، فهو مجنون أكثر منه ومن مفيد معًا.

سحبته من يده، دفعت الباب الخشبي المبني على عجل منتصف

سور البناية، وصعدت الدرج حتى الطابق الثاني حيث لم يكن أحد يستطيع أن يراهما في هذه العتمة، خلعت مئزرها ووضعته على الأرض، وطلبت من يوسف أن يتمدد فوقه ففعل.

نزعت عنه حذاءه وبنطاله وسرواله الداخلي بسرعة عجيبة، ثم جلست فوقه بالمقلوب دون أن يلج فيها، وشرعت تمص أصابع قدميه، ثم تحف فرجها بقضيبه حتى انتصب وابتل مهبلها.

نهضت ثم جلست فوق قدميه وشرعت تمص قضيبه وتمسحه بخديها قبل أن تجلس فوقه.

وضعت قدميها فوق كتفي يوسف الذي كان ممدًا فوق مئزرها، ووضعت يدها فوق بظرها تفركه وتقفز من اللذة حتى فاضت شهوتها.

بعد دقائق كان كلاهما مرتديًا ملابسه أمام المبنى ينتظران سيارة الأجرة.

عادت إلى استخدام مفردات"قاموسها الجنسي الخاص، وقالت له إن "زبره" عبارة عن دجاجة تبيض ذهبًا خالصًا، وإنها لن تكترث بالعمل مع الست بعد الآن، وستتدبر أمرها على أن يدفعا للست المليون ليرة التي كانا مدينين لها بها.

لم يكن يوسف بحاجة ليقول شيئًا يدفعها إلى تفسير ما تقوله.

قالت إنها ستكون مدير أعماله من اليوم فصاعدًا، وكل ما عليه فعله هو أن يسمع مشورتها. نظرت إليه بكل ما استطاعت من جدية قائلة:

– اسمع، نحن مدينان للست بالكثير، هي لا تأبه بالنقود بل بحمير ضعيفة مثلنا حتى تصنع منهم عبرة للآخرين، قبل أن آتي إليك أخبرتها بأنك دبرت مبلغ مليون ليرة كتعويض عما صرفته عليك، وبأنك ستكون جاهزًا متى أرادت، لكن ستعمل تحت توجيهاتي مباشرة دون الرجوع إلى بتول أو غيرها، فهمت؟

– لكن من أين؟ هل لديك أموال؟

– هل تظنني بلهاء أبذر نقودي مثلك ومثل ذلك المعتوه السكير؟ طبعًا لديّ ذلك المبلغ أدخره لتعليم أولادي، لكنك سترده وعندما تفعل ذلك يمكنك أن تقرر إن كنت تريد أن تكمل أم لا، فهمت؟

هز رأسه إيجابًا، لم يكن يطيق العودة إلى بتول أو حفلات الست المقيتة، كان يشعر بأنه في بيئة سخيفة مريضة تمكنت من النجاح بفضل معجزة، وحافظت على نجاحها ونفوذها بسبب نقمة الله على مَن حولهم من البشر، وسميرة أفضل الشرور.

وصلت سيارة أجرة، فاستوقفتها سعاد، ثم ابتسمت، قبّلته وهمّت تدخل السيارة.

– شكرًا سعاد.

ابتسمت له مرة أخرى، أرسلت له قُبلًا في الهواء، ولوّحت مودّعة.

في الطريق إلى منزلها، حاولت إقناع نفسها بأنها قامت بمخاطرتها تلك لأنها ستجني أضعافًا مضاعفة من خلال تشغيلها يوسف.

أخذت نفَسًا عميقًا ونظرت إلى الأبنية المتراصة على جانب الطريق في حارتها، كم تشبه هذه الأبنية ساكنيها، بدت لها تعيسة، كاذبة، ومنافقة، وفيها شيء من العفوية والطيبة لا تملكه كل بنايات المدينة الأخرى.

قالت لنفسها إن ما حدث قد حدث، وإن عليها أن تفكر في كيفية الوصول إلى سيدات يستطعن أن يدفعن مقابل يوسف مهما كلفها ذلك.

قبل أن تصل إلى منزلها كانت متأكدة من أنها لم تستغل يوسف ولا طيبة مفيد، بل فعلت ما فيه خير الجميع ومصلحتها، أما فرْجها فملك لها وحدها تمنحه من تشاء، ما الجنس بالنسبة لها إلا وسيلة أخرى تساعدها على تخطي هذه الأيام الرتيبة إلى غد أفضل.

أقنعت نفسها بأنها دبرت ليوسف سكنًا لائقًا بعد أن سددت ديون عائلته، وأنقذت والدته من مصير أسود ومن أن ترمى إلى الشارع.

كانت تحبه وتحب مفيد كثيرًا، وترى أنها تقدم خدمة لكليهما، فقد أنقذت يوسف من انتحاره كمدًا على ساندرا بإيقاظ حس مسئولياته تجاه عائلته، وكذلك أسهمت في إنقاذ مفيد وحليمة من الموت حزنًا على شباب يوسف المهدور.

هكذا كانت حياتها مليئة بالجنس والسعي المحموم وراء لقمة العيش. كانت تثور متى نظّر مفيد عن أخلاق المجتمع وأعرافه وضرورة مراعاته، قائلة: إن على المجتمع مراعاة فرْجها، وإنها مجبرة على ستر أهلها وأولادها، فلولاهم لخرجت إلى الناس بمطرقة بين أسنانها، ولسان كالمسامير.

لم تكن تكترث بما يقوله الآخرون عنها أو حتى المقربون منها، كانت تقول إن البشر سيغتابون بعضهم بعضًا مهما كان من أمر، فذلك من أمتع الأشياء في العالم، حتى إن الله لم يسلم من شرهم، لذلك فالحصاد في الفعل لا في القول، وعندما يقرر الإنسان أنه سيفعل شيئًا، عليه أن يفعله لنفسه لا خوفا من البشر أو لإرضائهم، وعليه أن يتبع أهواءه ويرضيها، من أجله أولا ثم من أجل من يحب.

الفصل الحادي عشر

الملكة تستلم الدفة

لم يكن يتخيل في نشأته أن يكبر ليصبح عاهرا يضاجع النساء مقابل المال، حدث ذلك بتواتر واضطراد متصلين، وكأن قوة خفية أوجدته للقيام بذلك، تذكر ذلك فجأة ومرة واحدة، عندما قالت له منال بأنه خلق ليصبح عاهرا عربيدا: "خطوة فأخرى ويصبح الإنسان ما هو عليه، أنت يا حبيبي قد فُصلت لمضاجعة النساء"، طلبت منه أن يقف. نظر إليها مليًا، ثم نهض.

– دعني أرى مؤخرَتك، در حول نفسك.

نظر من حوله، كان المقهى مليئًا بالزائرين. لم يتحرك من مكانه، وضعت يديها على الطاولة أمامها ولامست رقبتها بكتفيها كحرف V ثم قالت مصطنعة الدلع:

– خجلانة بطة؟

وشدت حرف الأخير موضحة له، أن من عليه الخجل هم المنافقون من حوله الذين يعانون الكبت الجنسي والنفاق، فدائما ما يصنفنا الآخرون ووفقا لما يرون به العالم ويفهمونه لا كما نحن فعلا، وأن عليهم هم أن يركعوا أمامها ويخافوها، فعلى عكسهم تقيّم هي أفعال البشر وشخصيتهم لا كما يشاع عنهم. ثم نهضت فأمسكت بيده اليسرى ودارت حوله. قالت:

– سمعت عنك الكثير، وعرفت أنك شاب كتوم، وكثير الحركة، لكنك لست بالوسامة التي وصفتها سعاد.

نظرت إليه تستوعب شخصيته، لم تكن تبتسم.

أضافت:

– ماشي الحال، سأعطيك 20000 ليرة الآن و30000 بعد أن تثبت جدارتك.

كتبت عنوانها على ورقة وأعطته إياها مع النقود قبل أن تضيف:

– أنا سيدة أعمال، لا أعطي إلا إذا استلمت، وأدفع ثمن ما أشتريه بالضبط، أو أقل بقليل، لكني لا أدفع أكثر.

سأنتظرك يوم الخميس وسنمضي ليلة طويلة، أما إذا كنت قليل الهمة، فسأرمي بك إلى الشارع.

حدّث نفسه. هل يصفعها ويمزق النقود أمامها ثم يرميها في وجهها؟ لا، هذا قرار سخيف، وقبل أن يتخذ قراره بقبول النقود أو رفضها كانت السيدة قد غادرت الفندق ولم يعد يراها.

بقيت النقود في يده وعنوانها الصريح.

***

عندما عاد إلى منزله اتصل بسعاد يخبرها بما حصل.

ضحكت وقالت إنها فعلت المستحيل لإقناعها بتجربة "زبره"، ثم أخبرته بأن منال فتاة حقيرة كانت جميلة جدًا في شبابها وقضت حياتها تركض بسعار خلف الذكور الأثرياء للاقتران بهم، وبعد أن تحصل على مبتغاها كانت تطلب الطلاق وتأخذ جزءًا من مال طليقها، ثم تبحث عن زوج ثري إلى أن شاخت وفقد الأثرياء رغبتهم فيها، لكنها لم تفقد فرّجها.

حذّرته من أنها مفضوحة في المدينة تعمل كإذاعة محلية، وإذا أحبت أداءه، ستجعل منه نجم الجنس الجديد في المدينة، وعليه أن يفعل المستحيل حتى يحصل على رضاها.

وعادت سعاد إلى سبّها ووصفتها بأنها سيدة بلا حياء، وعليه أن يضاجعها انتقامًا منها، فأخبرها بأنه سيفعل.

كانت سعاد أخبرتها بأن يوسف موضع ثقة، وأن بلاءه رائع في الفراش، وكأنه تخرّج في جامعة المضاجعة، مضيفة أن "زبه" يعرف شيئين فقط، الانتصاب والقذف ودعتها إلى تجربته على أن تشكرها لاحقا.

***

لا يمكن لزوار منال إلا ملاحظة الطاولة العالية جدا منتصف غرفة الجلوس، والتي يبدو أنه على من يستخدمها أن يفعل ذلك وقوفا، أشارت منال إليها وقالت إنها تذكار من أحد أزواجها الذين حصلت على ثروة كبيرة منهم.

طلبت منه أن يخلع ثيابه ويجلس عاريا حتى تستمزج هيئته وتستثير بظرها. خلع ثيابه بصمت.

طلبت منه الجلوس ففعل.

مع أن صوتها لم يكن مستساغا على السمع، لكن ضحكتها كانت جميلة ومتقطعة، ميّزها نغم لطيف، أو هكذا تراءى له بعد 6 كؤوس شراب في منزلها الحزين.

كانت تسكن في حي غني في شقة مؤلفة من غرفتين وصالة مفروشة بأثاث متواضع، وكأنّ قطعه مستوردة بشكل فردي ودون أدنى تجانس بينها.

فكراسي طاولة الطعام بأربعة ألوان وأشكال مختلفة، كذلك عفش غرفة الجلوس تدرج بين ألوان قوس قزح.

نهضت منال في تمام الساعة الثالثة صباحا فأغلقت الستائر، ثم طلبت منه الجلوس فوق الأريكة الزرقاء الواسعة، نهض يترنح ثم جلس في زاويتها.

جلست في الطرف المقابل له، خلعت خفيها ثم رفعت رجليها إلى وجهه ووضعت قدمها اليمنى على خده الأيسر وطلبت منه أن يقبّل قدمها، برفق أزاح قدمها من أمام وجهه ثم حملها إلى غرفة النوم.

كان الجو حارا قليلًا، لم يكن في غرفة النوم الواسعة سوى سرير فاخر ضخم ومروحة صغيرة، استأذن الذهاب إلى الحمام، عندما عاد كانت عارية تماما وممددة على بطنها. أشارت له بيدها اليمنى إلى السرير بجانبها.

تمدد إلى جانبها، شرعت تقبّله بقوة ثم اعتلت وجهه بفرْجها، همّ يقبّل زهرتها فوضعت فخذيها على خدوده، وضغطت بكل قوتها

حتى لم يعد يسمع شيئًا سوى صوت لسانه. كانت عنيفة حتى أحس يوسف بتوتّر عضلاتها وقسوتها.

طلبت منه أن يولج فيها، ارتدى واقيا واقترب من شيئها بقضيبه فسحبته بقوة إلى جسدها، وشرعت تشد شعرها وتصرخ، ثم رفعت فخذها الأيمن وطلبت منه أن يقبّل ندبات في ساقها حصلت عليها جراء سقوطها عن الخيل، ففعلها حتى خف صراخها وهدأت حركتها، ثم تمددت على السرير ونامت.

2

الشاعرة المتحذلقة

تعلم يوسف من والدته أن أحدًا لا يحب الشخص المتحذلق كثير الكلام، ربما حرصت على أن تنقل إليها حكمتها هذه هربًا من لسانه اللاذع، وعينه الثاقبة، وربما من أسئلته الشقية وتعليقاته التي كانت تصدمها وتجعلها غير قادرة على الإجابة. أيًا كان السبب، كبر يوسف يكره المتحذلقين.

كانت هبة إيمان ثاني سيدة توصي بها سعاد. كانت في منتصف الأربعينيات من عمرها، وتعاني انفصامًا طفيفًا في الشخصية، يرافقها شعور مستمر بالقلق والخوف من كل شيء ومن كل إنسان تصادفه. كان إبهاما يديها ملتهبين عند حافتي الظفرين، فقد كانت تحكهما بظفري سبابتيها لكثرة توتّرها ورهابها.

شعرها أشعث مرفوع إلى الأعلى كهوائي تلفاز، ونظراتها زائغة في بعض الأحيان، تنتقل بين الفرح والحزن في ثوان معدودة، وعندما تحزن تلوي فمها إلى الجهة اليسرى، ما يزيدها قبحًا.

قالت له بعد أول كأس شراب إنها أتمت دراسة الماجستير عن سميح القاسم، زاعمة اكتشافها أن العديد من قصائده غير موزون، وأنها عندما عملت في قناة" العربية" الإخبارية واجهت رفضًا متواصلًا من الإدارة، وتحيزًا ضدها، فقررت أن تنتج أفكارها على نفقتها الشخصية، ومن أجل هذه الغاية تدربت على التصوير والإنتاج.

ومع أن خبرتها كانت من خلال عملها كمعدة برامج، إلا أنها راقبت المصوّرين، ووقفت خلف الكاميرا لتعرف ماهية التصوير.

ومضت في ثرثرتها قائلة:

– طبعت ديواني الأول والوحيد على نفقتي الخاصة، لم أرغب في أن أقبّل الأيدي حتى يُطبعَ كتابي، لا أحب هذا الأسلوب.

قبل أن ينتهي يوسف من شرب كأسه الأولى، كانت قد قالت كلَّ ما يجب ألا تقوله.

كانت تبدو له محطمة، ومذهولة عما حولها، تتكلم دون توقف،

وتخطط لمشاريع كبيرة، وتنتقل بين موضوع وآخر دون أي رابط بينها.

لا تستطيع التميز بين الحلم والحقيقة، حتى عندما بدأ يضاجعها كانت لا تزال تتكلم، أراد أن ينتهي حتى يستطيع الهرب منها على وجه السرعة.

قبل أن يهرول خارج شقتها استوقفته وواصلت ادعاء الحكمة قائلة:

– اسمع يوسف، يجب أن لا نفقد إيماننا بالحياة، ويجب علينا الحذر من الأدباء المنافقين الذين يقولون إن الحب مستحيل وبأن الحياة بشرف مستحيلة. أنا أستطيع أن أعيش بلا ماء، وبلا خبز، أما أن أعيش بلا شرف فمستحيل!

في الواقع كانت الجملة معكوسة، لكن أيهما لم يدرك سبب قولها تلك العبارة، اكتفى يوسف بهز رأسه إيجابًا، وهرول خارجًا.

3

كلنا شعراء

التقى يوسف ريما بوتيني في مقهى إلى جوار منزلها بناء على توصية من الملكة، كانت رابع امرأة يضاجعها من أجل النقود، وكانت تعاني سعارًا جنسيًا غريبًا وتلف أعصاب يجعل كل من حولها يكرهون حضورها نساء كانوا أم رجالًا.

قالت له سعاد "ضاجعها بسرعة ثم اركض، ربما قحبة حقيقية، تدعي أنها غبية حتى تضاجع من تشاء. صبي المقهى، بوّاب العمارة، وأي شخص نفسه أدنى منها"، ثم قلّدت صوتها "أوه أنا مسكينة...قلبي أبيض، حظي عاثر، دائما أتورط مع ذكور خبثاء، يضاجعونني ثم يتنكرون لي"، قذفتها بشتى أنواع الشتائم وقالت له بأن الصبر مفتاح الفَرَج، أو ربما الفَرْج. ثم قهقهت بصوت عال صم أذنيه قبل أن تغلق سماعة الهاتف.

كان طولها مترًا وخمسين سنتيمترًا، سبّابتها اليمنى ممسوخة، شعرها أجعد ووجها كذلك، تبدو في الستين على الرغم من أنها لم تتجاوز الأربعين من عمرها.

شعر يوسف منذ رآها أنه سيحتاج إلى بذل مجهود خيالي معها.

قبل أن تسترسل في أفكارها عن الروح والاستنساخ، استوقفها يطلب شيئًا ليشربه، مفضلًا الويسكي إن كان لديها.

نهضت بسرعة عجيبة من المقهى حتى إنها كانت تنسى دفع حساب قهوتها، وهرولت إلى منزلها.

كان منزلها مكونًا من غرفة وصالة، الأغراض فيه مبعثرة وكثيرة، وكأنها حرصت على أن يبدو أشعث كشعرها.

سألها يوسف عن الكحول فأشارت له إلى زجاجة ويسكي نصف ممتلئة، صب كأسين على عجل، وتجرع كأسه بسرعة.

بادرت إلى الحديث قائلة إنها تشعر بأنه نوعها المفضل من الرجال.

– أخبروني بأنك تركت كلية الطب قبل تخرجك، وبأنك مثقف من الطراز الأول، وهذا ما أعجبني فيك وجعلني راغبة في رؤيتك، فكما ترى، الناس أصناف، ويجب ألا يلتقي صنفان مختلفان، خاصة

إذا كانا رجلًا وامرأة، وإلا فشلت علاقتهما.

كانت ريما تعمل في شركة طيران مترجمة ومنسقة إعلامية، تزوجت من أول شحاذ تقدم يطلب يدها، طلقها قبل أن تنجب طفلها الوحيد، ثم أخذه ليعيش معه.

***

كانت بتول تستعين بريما أحيانًا، خاصة لدى استقبال أحد الوفود نصف المهمة، أو للترويج لخبر تود توزيعه في النشرات الدورية ضمن المطار، وبعد أن قامت ريما بمجهود للترويج لرحلات الطيران الداخلي التي كانت بتول شريكة فيها، وعدتها بأن ترسل لها هدية تجدد بها شبابها وحياة الرذيلة الصحية لديها. ووفاء بالوعد، أعطت بتول سعاد 100 ألف، وطلبت منها إرسال يوسف إلى ريما.

كانت ريما مرتاعة من فرط وسامة يوسف، لكنها سريعًا تناست مهمته وشعرت برغبة في قضاء أكبر وقت معه، أخبرته بأنها كالطير الحر لا يستطيع أن يعيش ضمن قيود العائلة والمجتمع، ومع أنها فكرت في أن تقترن برجل ثري يصرف عليها فتتفرغ للشعر، إلا أنها عدلت عن ذلك.

وعندما نظرت إلى يوسف، أشاح بوجهه وحرك يديه محاولًا التعبير عن قدرته على تفهم كل ما تقوله.

استأذنها في الذهاب إلى الحمام، وبمجرد دخوله، ابتلع حبة فياجرا، نظر إلى المرآة وزفر طويلًا.

عندما خرج كانت ريما تضع موسيقى أذربيجانية، بادرته بالقول إن لها ذوقًا موسيقيًا خاصًا جدًا، فهي لا تستمع إلى أي نوع من الموسيقى التافهة، أو التقليدية السخيفة، ولا مع أي شخص.

رد عليها يوسف بأنها محقة، ووضع نهاية مبكرة للحوار بإخبارها بأنه وفقًا للاتفاق لن يستطيع البقاء أكثر من ساعة، وإلا تحمّل خصم مدة التأخير من نقوده. وبلغة تجارية، قال إنه قضى 15 دقيقة في منزلها ما يعني أن أمامه 45 دقيقة فقط.

– آه، حسنًا.

نظرت إليه مستغربة، برمت شفتيها، عقدت حاجبيها وهزت رأسها بتواتر غير متزن بشكل دائري بدت أنها فقدت السيطرة على رقبتها.

وأمام نظراته الصلبة اقتادته إلى غرفة النوم، فقد شعرت بأنه سيغادر بعد أقل من ساعة، وستخسر رفقته دون حتى أن تراه عاريًا أو تلمس قضيبه.

تجرع كأسه دفعة واحدة وبلهجة خالية من أي مشاعر تظهر أنه في مهمة، أخبرها بأنه جاهز.

خلعت ثيابها، وخفّفت الإضاءة، خلع ثيابه أيضًا، كان شيئه منتصبًا بفعل الفياجرا.

وضع واقيًا ذكريًا، بصق على يده وبلل مهبلها، أمسكته بكلتا يديها، فشعر بإصبعها المبتور فوق كتفه.

أرادت أن تجلس فوقه، فوافق.

جعلت تفرم صدرها بيديها، فبان إصبعها المبتور، وظفر صغير متبق منه طلته بلون أحمر كبقية أظفارها، فيستحيل على أحد ألا يميزه. جزع يوسف من منظر إصبعها، فأغمض عينيه، حتى لا يتشتت ويضيع انتصاب شيئه.

بعد دقيقة ارتمت فوقه تبحث عن شفتيه، فأبعدهما عنها قائلًا إن الوصول إليهما غير مسموح.

ادعت أنها لم تسمعه، كانت شهوتها في ذروتها، فقد أُعدت لهذه اللحظة منذ وعدتها بتول بهديتها الخاصة قبل أشهر، ولن تدع شيئًا يسرقها منها، حاولت مرة أخرى أن تبحث عن شفتيه، فدار وجهه عنها ورفعها قليلًا بيديه وكأنه يهدد برميها بذراعيه بعيدًا في الهواء. مسها جنون، وحاولت تقبيل عنقه فدفعها برفق

إلى كتفه، بعد دقيقة وصلت شهوتها إلى ذروتها، فجعلت ترتجف كالمصروعة حتى هدأت تمامًا، عندها انسحب يوسف من تحتها، بحث عن ثيابه وارتداها على عجل، تمنى لها أمسية طيبة وهمَّ بالمغادرة.

استوقفته برجاء حار.

نهضت من السرير، أخرجت 200 دولار وأعطتها له، وقالت:

– أعطني رقم هاتفك، حتى أكلمك مباشرة.

وكأنه موظف ملتزم في مهمة، اعتذر يوسف عن عدم قبول النقود، أو إعطائها هاتفه، فذلك مخالف لـ "القوانين" التي يعمل بها.

– تبًا للقوانين، من اخترعها؟ أليس البشر؟ يجب أن نتمرد على القوانين التي أوصلتنا إلى ما نحن فيه.

عرفت أن وقتها ينفد فزاد ارتباكها واندفعت تريد أن تقول كل شيء دفعة واحدة. قالت بما يشبه العويل:

– المرأة لم تُخلق حتى تفهمها، بل كي تحبها.

اسمع، ما أنا وأنت سوى أشلاء من هذا الكون، تحطمت وتجمّعت معا، آه. ما أكبر الشهوة إلى قضيبك العطر.

هز يوسف رأسه يبحث بعينيه عن الباب.

ركضت نحوه. قالت:

– كتبت قصيدة عن هذه القوانين السافلة، لقد جعلتها رجلًا، اسمع:

يا حبيبي سأقتلك يومًا

برفق كما يقتل القاتل المحترف

بسكين وبهدوء، لن تشعر.

بتأفف ورغبة في الانصراف، علق يوسف:

– جميل، متى كتبتها؟

– منذ سنوات.

زاد تململ يوسف وقربه من الباب، وقبل أن يفتحه قال سريعًا:

– عظيم، أرجو أن أقرأها، ربما في وقت آخر، لقد تأخرت، عليّ أن أرحل، سامحيني، عن إذنك.

4

لا تتعب سعاد

اتصلت سعاد تخبره بأنها دبرت له موعدًا غراميًا، وضحكت بصدق. قالت له إن الزبونة إحدى الثرثارات الشهيرات في المدينة، وعليه أن يضاجعها بصلابة وجدارة، فهي كالإعلان مدفوع الأجر الذي يصاغ بحيث يبدو خبرًا.

وعندما ذكّرها بهبة التي قالت عنها ذات الكلام، قاطعته وقالت إن هبة شرموطة رخيصة، أما سوزان فعاهرة محترمة ومحل ثقة فهي لا تزال متزوجة.

لم يكن يوسف ضاجع منذ شهر، وكان مستسلمًا لقرارات سعاد، التي بدأت تجعله يشعر بأنها تهتم بأمره حقًا، فهو في نظرها لم تكن لديه الثقة الكافية بنفسه لاتخاذ القرارات.

كان مفيد يقول له بأن كليهما مدين لسعاد، وبأن حياته لن تكون أفضل مما هي عليه اليوم لولا وجودها حوله.

وستكون سوزان آخر سيدة يضاجعها يوسف قبل أن ينضم إلى صفوف الثورة التي انطلقت في غفلة من الجميع.

قالت سعاد:

– المسكين زوجها لا يعرف إلا منزله وعمله، في حين أن المعرّصة لا تشم إلا رائحة مهبلها، شو رأيك سيد يوسف؟

– فيم؟

– العاهرة، قالت لي إن زوجها منعها عن مص قضيبه لأنه بدأ يستحرم ذلك، وإن شهوتها تجعل مهبلها مبتلا 24 ساعة في اليوم.

واستمرت سعاد تصف عُهر سوزان الفريد من نوعه الذي لن تجد مثله في أسواق هولندا.

ثم أضافت:

– إذا ضاجعتها بشكل جيد أعدك بأننا سنجني الملايين خلال أشهر قليلة، إنها بمثابة 10 محطات فضائية مجتمعة.

***

في اليوم التالي كان يوسف أمام منزل سوزان يقرع جرس الباب.

فتحت الباب نصفه، وعندما هالتها وسامة يوسف، سألته قبل أن يعرّفها بنفسه.

– سعاد؟

أومأ بالإيجاب، فسحبته من ذراعه إلى الداخل وعاجلته بالقُبل ومصّت لسانه.

كانت مكتنزة قليلًا، لكن جذابة بعض الشيء ترتدي ثوب نوم خفيفًا ومثيرًا.

أغلقت الباب على أطفالها النيام في غرفتهم، وأشارت له بأن يجلس ففعل.

ذهبت إلى حيث الهاتف واتصلت بزوجها.

سمع يوسف أثناء المكالمة صريرًا على الجانب الآخر.

كان زوجها يعمل في كراج خارج المدينة، ويحتاج إلى ساعتين للوصول إلى منزله.

سألته بنزق عن موعد عودته، ثم تجادلت معه عن سبب تأخره المتواصل عن المنزل وحاجات منزلية يهملها دائما بسبب عمله المتواصل، ثم أغلقت الهاتف بعصبية.

كانت تريد التأكد من أنه ما زال في عمله، حتى تضمن ساعة من مضاجعة يوسف.

بعدما أنهت المكالمة، سحبت يوسف من يده، ثم شرعت تمص لسانه، وتفك أزرار سرواله في ذات الوقت، أمسكت قضيبه بيدها، وعندما شعرت بانتصابه، خفضت رأسها حتى أصبح أمام قضيبه، كان يوسف لا يزال واقفا، أمسكت قضيبه بيدها اليسرى، وصرخت بلغة إنجليزية:

– هلو بيبي!

كانت سعادتها بادية، وسعارها الجنسي على أشده، خلعت سروالها الداخلي، ثم انتصبت تقبّل وجه يوسف ولسانه، لم يمنعها.

أمسكت قضيبه، وأولجته في مهبلها.

بعد عدة دقائق فاضت شهوتها، كان يوسف ما زال محافظًا على انتصاب قضيبه، طلبت منه أن يجلس.

سألته أن ينتظر قليلًا، عادت فوضعت بعض الجزر والفواكه على طاولة صغيرة في غرفة الجلوس حيث ضاجعته، واعتذرت إذ ليس لديها كحول في المنزل، فزوجها فقد عقله أخيرًا بعد وفاة أحد عماله في الكراج، وأصبح تقيًا بشكل مزعج، حتى إنه يضاجعها كيفما اتفق، في حين أنها تحب "النياكة" كثيرًا. وأضافت وهي تنظر إلى ساعة حائط قبالتها:

– المعتوه، وقصدت زوجها، قد يصل في حدود الثامنة مساء.

نظر يوسف حوله، كانت غرفة جلوس بسيطة، وصغيرة مؤلفة من كرسيين وكنبة طولية خضراء باهتة اللون، كانت جزءًا من غرفة أكبر تحول قسم منها إلى غرفة للأولاد، كانت الإنارة حمراء بشكل مزعج، وعندما نظر يوسف إلى الضوء الصغير في الغرفة، قالت:

– نعم، حاولت أن أضفي بعض الأجواء الرومانسية حتى أثير بعض الرغبات لدى زوجي، لكن لا فائدة.

بعد أن حدثته عن زوجها الحمار الذي يكبرها بعشرين سنة، وكيف تزوجت في عمر 14 عامًا، أخبرته أن المرأة تمل الرجل بعد حين كما يملّها، وإذا لم تحبه أو تحترمه، فخيانتها له تحصيل حاصل، وتتوقف على مدى شعورها بالأمن مع الرجل الآخر، وحسابات الخسارة، فالمرأة على عكس الرجل تضع عقلها في مهبلها قبل أن تضاجع.

ثم سحبته من يده إلى غرفة النوم، شرعت تخلع ثيابها، فبان أثر عملية قيصرية فوق مهبلها.

مصت قضيب يوسف حتى استقام، فاستلقت فوقه كالغريق، ثم شدت شعره، كانت شهوة يوسف تزداد، بعد قليل شعر بقضيبه مبتلا.

أدركت هي ذلك، سألته عن عمره، فقال إنه في السادسة والعشرين.

نظرت إلى ساعة في يدها، كانت تجاوزت السابعة والنصف بعشر دقائق، طلبت منه أن يرتدي ثيابه، فقد يأتي الحمار في أي وقت، طلبت رقم هاتفه، فقال إنه يفضل أن تتصل بسعاد مباشرة.

بعد أن صمتت قليلًا، قالت له إن كل الرجال، مهما كانوا عظامًا، في النهاية أولاد فرّج عبث به حتى أضاء، لولا ذلك لما أتى كلبٌ منهم إلى النور.

شكرته على وقته، وقالت إنها ستطلبه الشهر المقبل بعد أن تدبر لقاء في شاليه على البحر، ثم سحبت مغلفا قالت إنه جائزة ترضية له لأنها أحبته.

شكرها أعاد ظرف المال إليها وبطريقة مهذبه طلب منها أن تدفع المال لسميرة، فأمسكت رقبته بيدها اليمنى وجذبته نحوها ثم مصّت لسانه.

5

ابتعد عن الشعب

انطلقت المظاهرات من جنوب سوريا إلى شمالها تنادي بالحرية والعدالة الاجتماعية، وما هي إلا بضعة أسابيع حتى كان يوسف يراها من شرفة المنزل.

صوت جموع الناس هادر، كأنها تحولت إلى بدن واحد يصرخ بحنجرة واحدة، محوّلة كل من يشارك فيها إلى جزء من جسم أكبر، قوي، وجبّار.

ناداه مفيد وأشار بيده إلى كرسي قريب يسأل يوسف الجلوس. اعتدل في جلسته. وقال:

– اسمع، إياك أن تصدق جموع الشعب، إياك أن تضع ثقتك بهم، البشر كائنات لا تحتمل الصبر، ولا تقوى على صنع أي شيء

ذي قيمة، لا لنفسها ولا لمن حولها.

اختارت الشعوب أفضل من خرج منها لتحاربه وتقتله. كيف تفسر حرقها لجيوردانو، ثم جاليليو؟

الطليان ذاتهم، انتخبوا رئيس عصابة مافيا ليقودهم المرة تلو الأخرى.

أراد يوسف أن يقول إن البشر يستحقون الأفضل، وإن هذا الخطاب الاستعلائي مقيت، فقد رأى كيف يُرمى الأطفال إلى الحياة دون أي شيء يساعدهم على اتقاء ثعالبها، وكيف كان على الكثيرين منهم أن يتحمّلوا التبعات النفسية لفشلٍ لم يكونوا سببا حقيقيا فيه.

اكتفى يوسف بالنظر إلى مفيد نظرة غاضبة، وصمت. عاد مفيد للكلام:

– آه، آه. اسمع يا غلام، لا تصدق من يتحدثون عن الشرف والفضيلة، فهم إما مجانين وإما مدعون وأولاد قحبة، كل فعل تضحية يقوم به الإنسان ما هو إلا وسيلة لخدمة الذات والمكابرة، أو النفاق.

مهما كانت التضحية كبيرة لا بد لها من منفذ يفضي إلى منفعة معينة، هل تسمع؟

– نعم.

– إذا نظرت إلى تاريخنا كبشر من مكان بعيد كالمريخ، فلا بد أن تكون الآن قد انفجرت ضحكًا أو مت كمدًا، يتوقف الأمر على طبيعة شخصيتك وكمّ السخرية فيها.

وقف يوسف بسرعة، أراد أن يخرج كي لا يقول شيئا فيغضب مفيد. أدرك الأخير ما يجول في خاطره، فسأله أن يتكلم.

قال يوسف:

– قلت لي إن الطبقة القوية في كل دولة أو أمة هي من يقرر توجهات العامة من البشر وقوانينها وبما يخدم مصلحتها. وأتذكر جيدًا أنك قلت إن من يحرك تلك الطبقة هو الجشع الذي يجب على البشر، ممن ولدوا به أن يُذبحوا أو يُسجنوا لفترة طويلة حتى يولد عرق جديد خال من طبقة كأمثالهم، وأن كل طبقة أخرى تثور وتحكم عوضًا عنها، وعلى مساوئها، هي أفضل بالتأكيد.

رفع مفيد يده في الهواء يطلب منه أن يصمت، ثم اعتدل في فراشه، كان يخاف على يوسف من مصير هذا البلد وأهله، وكان يريده أن يغادر حتى ينساهم ويبتعد عن ذكراهم وذكرى ساندرا.

قال:

– يا ولدي، عندما يتقدم بك العمر مثلي، تفقد بوصلتك، ويصبح تمييز الصواب عن الباطل أمرًا بالغ الصعوبة.

– قلت أيضا إن استمرار أي نظام في السيطرة على مراكز القوى لا يعني صوابيته ولا يثبت شرعيته، ولا يفيد في صيغ الشرعية عليه.

– يبدو هذا الكلام مألوفا. لا أريد أن أجادلك فيما قلته لك، فقد غيّرت أفكاري أكثر مما غيرت سعاد قضبانا. اسمع، أنا أريد أن أحدثك في الآن.. في اليوم.

قد يقتل الأسد أخاه كي يحظى بالإناث فتبقى جينات الأقوى في النوع وتضمن استمراره. هكذا صممته الطبيعة، هل تسمي ذلك ظلمًا؟ قد يقتل الذئب غزالة فيكون الموت مصير درغلها، هل هذا ظلم؟

– أليس من الظلم أن نتصرف كأننا ما زلنا في الغابة؟

– البشر مخلوقات خسيسة وأكثر دناءة، لأنها بعكس الأسود والحيوانات، تتذرع بمختلف الحجج حتى تبرر خسارتها وأفعالها الدنيئة. أنا أتفق معك أن البشر الفقراء هم الأغلبية، ويجب أن ينتصر لها، لكن ماذا فعلت تلك الأغلبية لتنال حقوقها؟ ماذا فعلت لمساندة من يقاتلون باسمها؟ إما أنها تركتهم عرضة للموت أو السحل أو أنها حولتهم إلى طغاة أكثر وأشد بطشا من سابقيهم.

حتى يومنا هذا لم يحصل على مدا التاريخ البشري أن حكمت طبقة نبيلة وعمّرت وفقًا لأهدافها السامية التي قامت من أجلها،

ولهذا ترى أن الطبقة المستبدة عادت إلى سدة الحكم بوجه وصوت مختلفين وبسفالة وتسلط أكبر، ما الحياة كما نعرفها إلا عبث العبث.

خلال مائتي سنة، قام المصريون بثورات، انتهت جميعها بعودة طبقة أشد فسادا واستبدادا من سابقتها كي تحكم الشعب وتقتل أحلامه.

لقد غير البشر الكلاب دينهم ملايين المرات، وعبدوا آمون لفترة أطول مما عبدوا فيها المسيح، وكانوا يساقون كالكلاب لبناء أهرام بائسة مبددين فيها طاقاتهم وكل مواردهم وهم سعداء وقانعون، كانوا يبددون نقودهم لتحنيط باهت طمعًا في خلود آمنوا به طويلًا، والآن ها هم يموتون تحت ألوية سوداء أو صليبية، كلّ فداء لإلهه.

وعاد إلى الجدية ليقول:

– عشت ما فيه الكفاية لأدرك أن كل أحلامي وتخيلاتي مصطنعة وموضوعة سلفًا، استوحيتها من خلال قصص وأفلام مقررة مسبقا دفعت إلى أشخاص موترّين ومحوّرين حتى يصوغوها وفق خطوط محددة، كل تلك الطرق التي ولدت أراها صحيحة أو تلك التي أراها خاطئة كانت معدّة لي سلفًا من قبل أشخاص أعماهم الجشع والركض خلف اكتساب الشهرة. قلة من كتبت بصدق بعيدًا

عن الطمع، وحتى القلة المستنيرة منهم كانت ترزح تحت عقود من الظلم والعبث حتى أصبحت أشباحًا مقيتة تشبه سيدها وجلادها.

لقد كتب الإغريق عن بروميثيوس، إله النار قبل 3 آلاف عام، ذلك الإله الكريم الذي أنقذ البشر من نير زوس فأعطاهم النار ثم قادهم في كفاحهم البطولي ضد تسلط الآلهة واستعبادها للبشر، هل تعلم ماذا تقول الأسطورة عن بطولاته؟

لقد شرع يصلب المتذمرين وقليلي الإيمان والصبر على الصخور تحت الشمس الحارقة في صراعه مع زوس، تاركًا إياهم فريسة سهلة للنسور التي بقرت بطونهم وأعينهم، لقد تحول إلى إله أشد بطشًا وقسوة من زوس نفسه؟

إذا كانت تلك حالنا منذ 3 آلاف سنة، فلا أدري كيف سيكون مصيرنا بين آلاف القنابل الذرية حول العالم، واستهلاك مفرط لكل مواردنا الطبيعية.

لقد خانت الطبقة المقهورة كل زعمائها، لا بل خانت قضاياها التي ثارت من أجلها. كيف تفسر استمرار حكم الملوك والأرستقراطيين والطغاة وأبنائهم طوال تاريخ البشرية؟ إذا كانت الشعوب (الأكثرية) تفضل الحكم الديمقراطي، لماذا لا توجد أنظمة ديمقراطية حول العالم؟ لا تقل لي أمريكا وأوربا وإلا رميت نفسي إلى النهر.

قال يوسف بمرارة بدت واضحة على وجهه وهو يرنو إلى الأرض، إن الشعب يمكنه أن يخطئ أحيانا والمؤسسات كذلك بدرجة أكبر، لكن ذلك لا يعني أن نفقد الأمل في تحرره، وبمجتمع عادل يشمل طبقاته، ويصغي إلى صوتهم. أما الأفراد فما أسهل إطلاقهم للأحكام والتشبث بالأفكار التي تتلو ذلك، إذا أردنا المراهنة فأولى بنا الوقوف إلى جانب الشعب لا الرئيس، فالأخير زائل لا محالة، أما الشعب فباقٍ. وأن الوقت ما زال متاحا أمام الجميع للتطهر من آثامهم وفعل الصواب.

اسمع يا ولدي:

– إياك والمراهنة على جموع البشر، إياك والوقوع في هذا الخطأ.

ما تراه وتسمع هدير صوته الآن، ما هو إلا "ثقافة قطيع" لا حراكا أصيلا، تذكر أنهم اندفعوا إلى الشارع بعد نجاح الحراك في تونس وليبيا ومصر، تذكر ذلك دومًا.

استقام مفيد في جلسته، بدا أكثر حماسة، فشرع يحرك يديه في الهواء ويقاطعهما أمام وجه يوسف.

– حتى يخطو البشر إلى الأمام ويتموا إنجازا فعليا واحدا، عليهم أن يكونوا منظمين، وأن تكون أهدافهم واحدة. أما في هذه

البيئة الموبوءة، فكل ما عليك عمله هو التفكير في كيفية الهروب منها.

لا تصدق من يقول إن المجتمع مركب ذكي، فهو مركب "ابن شرموطة"، البشر لا يحتملون الصبر ولا الشدة، ويريدون أن يحققوا مطالبهم وأحلامهم في أسرع وقت، وهم في الغالب يرمون الحكام والسياسيين والطبيعة بآلاف النعوت، ويعزون كل خيبات أملهم إلى ظروف قاهرة خارجة عن إرادتهم.

كيف تفسر معضلة قصص القديسين والأبطال الذين نعشقهم ولا نقتدي بهم؟ نحتاج إلى الكثير من علماء النفس حتى يفسروا لنا كيف يقوم البشر بتأليه بعض الأفراد دون أن يقوموا بأي فعل أو عمل من وحيهم. قد يكون القديس فرانسيس راعي المجذومين أكثر شخصية محبوبة في التاريخ المسيحي، لكن إن نظرت بشكل دقيق فلن ترى أيًا من البشر يتصرف في حياته اليومية من وحيه. كل الشعوب تعرف الأم تيريزا وتصفق لها، لكن هل لك أن ترى شخصا واحدا يطبق أفكارها في حياته؟ ما جموع الجماهير إلا شر مطلق، ابتعدْ عن الشعب وغنّ له.

توقف مفيد عن الكلام ونظر أمامه كمن تذكر شيئا، ثم نظر إلى يوسف. وقال بصوت خافت يشبه البكاء:

– قد يكون رجل الشرطة في حمص أو حتى موظف المصرف في دمشق رجلا لطيفًا جدًا، يحتقر عمله ويعتبر المصرف عديم الجدوى، ومع ذلك يواصل عمله هناك.

حتى الفساد ليس هينًا في هذا البلد التعيسة، إنه يحتاج إلى فرصة، إن الأغلبية شرفاء – إن وجدوا – لأنه ليس لهم بديل.

فكما في كل يوم، المرء لا يقوى على مقارعة الشر ومقاومته، أما الخير فهزيمته ممكنة.

طلب منه أن يساعده في تعديل جلسته. أشار له أن يقترب، شرب قليلا من الماء، ورما رأسه إلى الخلف ناظرا إلى سقف الغرفة. قال بصوت خافت وهادئ:

– توفيت والدتي قبل وصولك للمدينة بأسبوع، بعد أن اكتشفتُ زيف ظافر والحزب والبشر وتفاهتهم، بعد أن أيقنت أن أي قضية مهما كانت عظيمة ونبيلة ستقتلُ على يد أبنائها ذاتهم، حالما يتذوقون طعم السلطة والنفوذ. كل النفوس تسقط أمام إغراء الشهرة والتملق، مهما كان منشؤها طاهرًا.

ما زلت أذكر يوم أتيت إليّ تسألني إن كنتُ أستطيع أن أساعدك في دروسك، وكيف انتشلتني من يأسي ووحدتي، لم أكن لأصمد كل هذه المدة من دونك، ومن دون مراقبتك تكبر وتزداد ببأسك طولًا،

كان وجودك سببًا كافيا حتى أشعر بالدماء تسري في شراييني من جديد، وبأني ولو وهما عدت شبه إنسان.

لكن علينا معا أن نتذكر دوما، كيف يمكن لهذه الدولة أن تسحق كل شيء جميل في داخل كلٍّ منا، قد لا تكون بقية البلدان أكثر رأفة أو عدلًا، لكنها أفضل من هذا البلد البراز. تذكر أيضا أن المكتب الثاني عتيق وأن العطب في الشعب لا في النظام.

غادر يا ولدي، لا تبقَ هنا.

أصبح كلام الأستاذ متقطعًا، وبدا في عمر التسعين عامًا لا الخمسين، طلب مفيد من يوسف أن يحتضنه ففعل، وقبّله في خده.

قال له مفيد بأن وجوده بقربه يريح أعصابه، فبعد أن جاء إلى العمارة حيث يقيم، لم يعد يشعر بتلك الوحدة المخيفة التي كانت تأكل أحشاءه، فهو الشخص الوحيد الذي أحبه في هذه المدينة الشرموطة، وأنه يخاف عليه من جرأته وثقته الزائدة بنفسه. وغلب التأثر على وجه مفيد وهو يقول ليوسف؛ إنه قد يرحل قريبًا عن الدنيا، وطالبه بألا يحزن، فهو سيكون بخير في أي مكان بعيد عن سوريا.

هزّ يوسف رأسه وهمّ أن يغادر، وقبل أن يصل إلى باب الغرفة

ذكره مفيد بأنه قبل شهرين كان يصفق للملكة عندما قالت إنها لا تؤمن لا بالبشر ولا بالله، بل بالنقود فقط، وعليه أن لا يحمّل جسده فوق طاقته.

6

منظر الحشود كان مذهلا، كيف يمكن للبشر أن يصبحوا كتلة واحدة، وأن تذوب النفس البشرية في هذا المحيط الهادر؟ تذكر يوسف أحد زملائه في الجامعة حين تحدث عن لهفته لحضور مباراة فريق "الكرامة" لكرة القدم، أخبره بأنه يشعر بأنه أصبح أطول قامة بين مشجعي الفريق، لا شخصا بائسًا لا حول له ولا قوة، شخصًا يستطيع أن يأمر أيًا منهم بمساعدته، وقتال أي شخص يقترب منه.

من شرفته راقب يوسف المظاهرات تكبر كل يوم، كانت الناس مترددة في بداية الأحداث، لكن غواية النزول إلى شارع لم يعرف التمرد منذ خمسين سنة كانت طاغية.

اندفعت الجموع تشارك وتصرخ بكلمتها المقدسة والساحرة "حرية". ثم بدأت شعارات منظمة وأغان عدة تنتشر يرافقها قرع طبول وصراخ... أخيرًا بدأ البلد يغلي.

أبو خالد الذي كان يزور مفيد، سحب يوسف من الشرفة إلى داخل المنزل، قال له إن أولاد العاهرات يتكاثرون في مثل هذه البيئة، ويمكن لأي حمار منهم أن يطلق النار كما يحلو له، فيصيب الناس الأخيار أمثاله في مقتل. وأضاف:

– لن تفهم الآن ما يجري من حولك، لم تبلغ سن الألم المناسب.

– أي ألم، وأي سن؟

– عليك أن تتجاوز الثلاثين من عمرك حتى تدرك ما أقوله وتستوعبه، هناك أشياء تتعلمها بالتجربة، وهناك أشياء لا يفك طلسمها إلا سنوات العمر. هل سمعت عن رجل عظيم توفي قبل الثلاثين من عمره؟ بالتأكيد لا.

صمت لوهلة، كمن تذكر شيئًا. وقال:

إذا كان التاريخ البشري المكتوب صحيحا كما وصلنا، فلست حزينا سوى على شيء وحيد فيه، لا يفطر قلبي إلا وفاة ذلك الشاب في الثالثة والثلاثين من عمره.

– لا تقل لي إنك تتحدث عن المسيح.

– أي مسيح هذا؟ أنا أقصد الإسكندر الكبير، ذا القرنين.

استقام بظهره إلى الخلف كمن استيقظ لتوه.

– إن أشرف امرأة في تاريخ البشر هي أولمبياس إيميسا والدة الإسكندر الكبير، أطهر البشر وأكثرهم قداسة ونورًا.

تابع يقرص الهواء بيديه.

– وهكذا ما زلت يا أولمبياس إيميسا إلى اليوم، أشرف مهبل أدارته الدنيا نحو الشمس، هي من أنجبت وكبّرت أشرف رجل وطئت قدماه الأرض... الإسكندر! أراد الإسكندر جمع الأعراق البشرية معا، من غرب الأرض ومشرقها، فيتبادلون الأفكار ويقيمون التجارة بين بعضهم، ويتنقلون بحرية في أي مكان يبتغونه.هو الشخص الوحيد الذي كاد أن يقيم العدل بين البشر

– هل تتحدث عن الإسكندر الذي أعرفه؟ ألم يقتل الإسكندر أقرب أصدقائه وقادته، ألم يُبد قرى ومدنا بساكنيها؟

– وحسنا فعل، إن البشر يبحثون عن العدالة لا الرحمة والمسامحة، وطالما بقيت تلك الحدود والفواصل بين البشر، ستبقى تلك القيود التي تحرمنا من أن نصبح أفضل. حتى يصبح هذا الكون عادلا، يجب أن يسود نظام واحد يجمع أبناءه ويوحد أهدافهم عندها فقط تصبح الحقيقة مشتركة.

– كأنك تتحدث عن اليوتوبيا؟

– كأنك تستخف بما أقول!

برم يوسف رأسه وقال:

– أحاول أن فهم.

رفع أبو خالد يديه مقاطعا وقال فيما يشبه الدفاع عن نفسه:

– اسمع، ماذا تسمي صناعة مائة مليون نوع حذاء ومليون ألف حقيبة؟ حتى اليوم لا أستطيع فهم ذلك! لا أستطيع فهم البشر الذين يزهقون الوقت الثمين والمعادن كي يصنعوا ساعة فاخرة مطرزة بالألماس حتى يبيعوها بخمسة ملايين دولار! لماذا؟

إذا أضفت ذلك إلى سباق التسلح النووي حول العالم، فإنك تستطيع رؤية مجتمعاتنا في طريقها إلى أطلنتس جديدة.

ابتسم يوسف باستهزاء، وقال إنه لا يستطيع تخيل الشخصيات التي تتقمص رأسه.

– أي شخصيات؟

– لا أحب التشابيه ولا أحب الاستعارات، ولا أفهمها. لا تؤدي إلى أي غرض أو نتيجة فكرية.

– أنا أنادي بالواقع.

أنت تنادي بالقدرية.

– لست مع القدرية بأي شكل من الأشكال.

سأله يوسف ما المقصود بكلامه الذي يدعو إلى الاستسلام، وإلى أن يريح الشخص نفسه بهذه الكلمات، فلا يبحث ولا يقوم بشيء ما، وبوجه غاضب قال:

– ماذا تسمي كتلة المعارف التي وصلنا إليها! التي هي موثّقة وأكيدة؟ نعم كل شيء يتطور، لكن هناك شيئًا ما نعرفه معرفة أكيدة، وإلا فماذا نسمي المعرفة التي لدينا اليوم، والتي تختلف عن المعرفة في زمن الأنبياء والإسكندر؟

شرع أبو خالد يعصر أسنانه. فاجأه وجه الشاب الجديد، لم يعتد رؤيته بهذه الصور.

كان يحاول أن يبرر ليوسف خيانته وخنوعه، وجدوى بقائه على قيد الحياة بعيدا عن تلك الأفكار التي قد تقتله أو تودي به في السجن. لقد فقد إيمانه بوطنه وبأقرانه. شعر بأنه محاصر وبأن عليه أن يتحدث في موضوع آخر وإلا هزمه الشاب المجنون.

أشار بيده إلى حشد المتظاهرين القريب منهم ووصفهم بوقود الدنيا الخاسئ، فهم في النهاية من يدفع الثمن الباهظ مرة تلو مرة.

ثم جلس الرجل ووضع رجلًا على أخرى وتقمص دور العارف

وهو يقول إن العلة في الشعب لا في الحكام، فالرئيس لم يأت من هونولولو، بل من صميم هذا الشعب التافه. وأضاف:

– انظر مثلًا، العاهرة زوجتي، إنها تعرف شبئين في حياتها، الأكل والنوم، لم أرها تقرأ في كتاب أو تجلس إلى أحد أطفالها تعلمه بعض دروسه، أو تعاقبه، ولهذا فأنا وأولادي كلنا عبارة عن مجموعة من الفشلة.

تابع يقول بأنه لا يؤمن بأي شيء له علاقة بالمؤامرة، فمن غير المعقول أن تكون كل الدول العربية والغربية والعالم كله ضد سوريا؟ أي "شوفيها" الأرض الشرموطة؟

– كيف؟

– المشكلة يا ولدي هي بمن فيها، ما فيها شيء إلا هالشعب "الأخو منيوكة".

لا أضمنهم في شيء، كلهم على اختلاف مللهم وأعراقهم، لست متأكدا من شيء عندما يتعلق الأمر بهم. أعرف أنهم يأكلون ويشربون.

أي "كدش" بينهم يستطيع أن يكون أكبر ابن شرموطة "شو" مكان دينه، والعكس صحيح!

استيقظ مفيد من نومه ونادى يوسف، فنهض مع أبي خالد إليه.

طلب مفيد ماء وسيجارة، عندما ذكره يوسف بأن الطبيب حرم

عليه التدخين، قال أبو خالد:

– اجلب له الماء، وأشعل له سيجارة وإلا قتلكَ وقتلته وقتلت نفسي.

شرب مفيد قليلًا من الماء، وسحب من سيجارته قليلًا. نظر إلى أعلى ثم إلى يوسف، تحدث قليلا عن والدته، والنساء اللواتي لا يمكن لشخص سليم النية أن يفهمهن، وطلب منه ألا يتزوج إذا أراد البقاء سعيدًا.

أكد أبو خالد ما يقوله مفيد بصيْحة مدوّية، وقال إن حديثه، على روعته، ذكّره بأولاد العاهرة زوجته، وبأن عليه وبأسرع فرصة أن يقتلهم أو يقتلوه.

ضحك مفيد وابتسم يوسف. طلب مفيد وسادة خلف ظهره، فقدم له يوسف واحدة. استقام في جلسته.

كان المرض يشتد وطأة حتى كاد يمنعه عن الكلام. نظر إليه أبو خالد وشعر بأنه يراه للمرة الأخيرة، كان هزاله حادًا ومنظره كئيبا جدًا.

شعر أبو خالد باضطراب من كمية الحزن الموجود بين الرجلين، وكأنهما يتشاطران مصائب الكون بأسره.

نظر إليهما وأشعل سيجارة، سب زوجته وأولاده ثم عاد فجلس

واضعا رجلًا فوق أخرى وشرع ينظر إلى سقف الغرفة ويتكلم:

قال إنه اكتشف أن وطنه أهم من كل البلاد التي زارها بعد فوات الأوان، بعد أن أصبح يكرهه ويحتقر أبناءه، بعد أن فقد القدرة على النوم من دون كحول.

صمت قليلًا يسترجع ذكريات دراسته في العاصمة وانخراطه في الشأن الثقافي. وضع يديه على رأسه، حنى جذعه إلى الأمام. وقال:

– اكتشفت أن معشر المثقفين يعانون انفصامًا في الشخصية، كلهم، من دون تمييز، فهم يملكون خطابين، الأول داخلي يتداولونه بين أصدقائهم، والآخر خارجي يتحدثون به إلى البقال يطلبون منه دينًا لآخر الشهر، أو لمدرائهم في العمل أو يستسمحون ضابط الشرطة أو أية شخصية أخرى قوية قادرة على نهرهم وإهانتهم.

هم يتحدثون دائمًا عن التغير، وأهمية الأفكار التي يطرحونها، والنضال والتضحية من أجل الحلم، والقضية، والشرموطة وابن الشرموطة، لكنهم أكثر الناس جبنًا ووضاعة عندما يحتاج الأمر إلى عمل. إنهم حتى يرفضوا متابعة تعليمهم، أو حتى الكتابة والبحث، أو الاستماع إلى الآخرين البسطاء.

تراهم يصلون الليل بالنهار للتنظير عن أهمية العدالة، وعندما

يقترب منهم عامل المقهى حيث يثرثرون، بالكاد ينظرون إليه، وإذا سألهم عن الشيء مرتين كادوا يقتلونه.

بسرعة عجيبة غير مسبوقة، ينبطح مثقفو هذه البلاد، دون أن تكون لديهم قناعات راسخة. أخلاقهم لا تكاد تساوي إلا قيمة تذكرة سفر بالطائرة إلى مؤتمر للشباب، أو للسلام، أو لقمة حرب، ولهذا فمن لا يبع منهم نفسه إلى المنح اليانكية، أو إلى مؤتمر من أجل حرية الثقافية، يقبل الرشوة من العم ستالين، أو بوتين، أو رئيس الوزراء وين جيا با، ويتحول إلى خسة!

هنالك – في هذا الكون البيضة – من يدرك ما أعنيه.. امتيازات صغير تضاجع والدة الأخلاق، رحلة صغيرة، منحة دراسية، ابتسامة برجوازية، أي شيء يستميل الغرور ... كلا الإمبريالية، والمقاومتجية، مُعلمٌ في نصب هذه الشراك. بدأ الأسى يتسلل تدريجيًا على وجه أبي خالد وزفر قبل أن يقول كممثل تراجيدي يلخص مأساته على المسرح:

– قضيت مدة أبحث عن ذاتي فيهم، أركض خلفهم عارضًا عليهم أفكاري وأشعاري التي تخرج مجبولة بعظامي.

حوّل نظره إلى مفيد ثم يوسف، وهز رأسه ليبدد أي استغراب داخلهما وقال:

– نعم، أنا أيضًا كنت أكتب الشعر، فأنا نصف مجنون كما تريان. أدركت متأخرًا أن هؤلاء المثقفين ضائعون عن هويّاتهم وذواتهم، فكل منهم كان بحاجة إلى المديح والإطراء.

مثلي لم تكن لديه ثقة أو احترام لإنتاجهم، يلسعهم النقد وينشيهم المديح. جميعهم كانوا يبحثون عن قفا المدير حتى يقبلوها، أما القسم القليل الحقيقي منهم، فكان يُعصَرُ ويهمش ويطرد من العمل، لأنه لا يشاركهم ضعفهم ولا خنوعهم، فيعتزل ويموت وحيدًا، أو يقتل على أكثر تقدير. نعم، المثقف بحاجة إلى مأوى وتكريم واهتمام، وطعام كي يعيش، لكنه يحتاج إلى ما هو أهم من ذلك، يحتاج إلى أن يتصالح مع ذاته، خاصة مثقفينا البوهيميين! يمكنك أن تخبرهم بأي شيء تريد، وسيصدقونك! يمكنك أن تقول إن المسيح قال في إنجيل لوقا: إن الدفاع عن العرض حق وجب أن نفديه بالدم، وسيصدقونك، يمكنك أن تنسب لهم أشياء لم يقولوها وسيجدوا صعوبة في إنكارها ما دمتَ تطرحها من باب الإطراء.

أنا أحقد على كل مثقفي العالم، منذ بداية التاريخ، وحتى يومنا هذا، فهم أفيون الشعوب الأكثر خساسة، هم من قال أفضح العبارات الخرائية التاريخرائية... إن وطنك تحمله في قلبك، ووو.... وإن وطنك حيث فؤادك... ثم حاصر حصارك لا مفر ثم تلحس "طيزي"، وهم من قرظ الشعر وزوّر الأحلام، وضخمها.

الجلوس إلى المثقفين والثوريين منهم على وجه الخصوص، كاللعب بورق الشدة، وأحاديث النسوان والنميمة، مضيعة للوقت، وكلام فارغ. كل المثقفين يحلمون بمضاجعة الجميلات بشعرهم، وبأفكارهم، كلهم يهزمون أمام شبابك البهي وطلّتك يا يوسف، أنت العشريني تهزمهم بقضيبك بالضربة القاضية. إنهم يدفعون للعاهرات نصف مرتباتهم، وأنت قد تجني في ليلة واحدة مرتبهم في سنة.

كان مفيد يبتسم، لكن هزاله كان أقوى من أن يتكلم فأخذ يصفق ويضحك ويهز سيجارته في الهواء كبندقية.

نهض يوسف عن الكرسي، وخاطب مفيد:

– لقد قُتل العديد من الشعراء والمفكرين بسبب أفكارهم، ألا ترى أنك تعمم قليلا؟

– لا، فقد كانوا ثوريين قبل أن يصبحوا أدباء، إن هؤلاء كانوا الحالة الشاذة. اسمع يا ولدي:

السادة يريدون لخدمهم أن يتكاثروا فينجبوا خدما لهم ولأبنائهم، وليبنوا مدنهم الضخمة ويحققوا أحلامهم الأكثر تتطرفا، لكن هذه الحياة دائما ما ترسل براكين وزلازل أو رجالاً كسبارتكوس ولينين، فيُقلب الدولاب ويسطّر التاريخ من جديد. أغمض مفيد عينيه، ومال

إلى الأمام، سحب الهواء ملء صدره مصدرًا صوتًا واضحًا. عاد إلى الخلف، فتح عينيه، نظر إلى "أبو خالد" وأشار بيده إلى يوسف دون أن ينظر إليه، وقال:

– ها هو ذا شاب نحيل، فتى طيب، حالم، يظن أن الثورة مسألة شجاعة، مسألة نزاهة، مسألة سخاء. جرأة، هذا الشاب بجناحي ملاك غير مرئيين، لا يشك، وربما لن يعرف أبدا، أن الثورة هي صبر طويل، وروتين لا نهائي، وبخل رهيب، وبأنها ألف تقشف وتقشف، وألف دناءة ودناءة، وألف ألف...

اتّجه يوسف بهدوء إلى نافذة الغرفة، وقال دون أن يلتفت إلى مفيد وأبي خالد وكأنه لا ينتظر منهما ردا، "إن الأفكار التحررية تنجح في إنتاج أشكال جديدة من الحياة، ولهذا فهي تثير امتعاض العقلية المحافظة! على عكسها يفعل الحاكم المستبد عندما يمتطي شعبا خمسين سنة! إنه يحولهم إلى ماعز جبلي!".

شرع مفيد يراقب بصمت وحرقة. جزء منه كان مغتبطًا، فيوسف ينجح كل مرة يواجهه فيها عن جدوى الصراع والمبادئ في إضافة جزء صغير إلى قلبه، وكأنه يعيد بناءه قطعة فقطعة. أصبح يخشى عليه من أن يُقتل أو يلقى مصيرًا أسوأ فيتحول إلى نصف كائن، محطم ومشوه مثله.

لكن الوقت كان متأخرا جدا أمام أي شيء يردعه، يوسف عقد

عزمه، يريد المشاركة في الحراك بكل جوارحه. كان يشعر أن ذلك سيطهره ويمحو آثامه، ويحرره من ساندرا ومن أهله ومن مفيد وسعاد ومن كل شيء.

نظر أبو خالد إلى السماء يتساءل:

– يا إلهي شو عاملك هالصبي حتى تريد تحطيمه؟

وزع نظره بين مفيد ويوسف، ثم ثبّت بصره على الأخير وقال:

يا إلهي أنت أكثر بلاهة مما تبدو عليه. تظهر الجامعات كل الإمكانات المتاحة، بما فيها الحماقة.

إن الحديث إليك مضيعة للوقت، اسمع يا مفيد هذه القصة. لكنه نظر إلى يوسف وقال:

– في مكان ما من هضبة التبت العظيمة، وفي أعلى بقعة منها عاش فلاح عجوز مع زوجته العمياء، عيشة ملؤها السعادة والأمل. كان عجوزا جدا... مر عليه مذنب هالي 16 مرة.

ضحك مفيد بما يشبه السعال، لم ينظر إليه أبو خالد وتابع حديثه:

لم يكن سمع عن الحرب العالمية الأولى ولا الثانية، ولم يعثر

على منزله أفراد الثورة الحمراء فعاش مع أفراد عشيرته بعيدا عن تنظيرات المجنون ماو وأفكاره، يحرثون الأرض ويرعون قطعانهم. عندما مات العجوز، دفنوه على صوت المجوز... هكذا كان يريد، هكذا أوصى أولاده. كانت مراسم دفنه سعيدة كحياته مليئة بالفرح والهناء، لم يكن ينغص عيشهم سوى مرض أحد أفراد قطعانهم. ولأن أولاده لم ينجبوا أو يتزاوجوا عاشوا حياتهم بحبور حتى توفي آخرهم في قبر حفره لنفسه.

هذه هي العيشة المثالية، لا حروب عبثية ولا صراعات اجتماعية قميئة يتغير فيها رأس الهرم وتبقى عذابات البشر.

يا بني، افعل ما شئت إلا قراءة الكتب، فهذا ما ستفعله بك! وأشار إلى مفيد. ثم قال:

– لا تأبه بما يقوله الناس عنك. لا تأبه بثقافة القطيع، حافظ على مالك أمنًا، وعلى جسدك صحيحًا، فهما إن راعيتهما قابلاك بالمثل. في المحصلة يقول القوي كلمته ويحدد المنتصر ما الأنسب للبشر فيصدقونه.

عاد مفيد يهز يده في الهواء، كان يبدو متصالحا مع ذاته، لكنه كهرب الجو حينما طلب من يوسف، وكأنها وصيته الأخيرة، أن يستشير أبا خالد فيما يريد أن يفعل بعد موته.

نهض أبو خالد وسب مفيد، طالبًا منه ألا ينعي نفسه وهو حي، فذلك فأل سيئ.

هز مفيد رأسه موافقًا، اقترب منه أبو خالد وقبّله مودعًا، متعللًا بزوجته العاهرة التي لا تستطيع تربية صوصين، وأن عليه أن يدير كل شئون المنزل وإلا حوّلته إلى عش للجرابيع.

صافح مفيد ويوسف ثم رحل.

مفيد الذي أصبح لا يستطيع مغادرة فراشه كان يتوق إلى اللحظة التي يدخل فيها يوسف المنزل، فلم يعد يزوره أحد إلا أبو خالد الذي كان يقصده في بعض الأحيان عندما يفتعل المشاكل مع أسرته. حتى سعاد انقطعت عن الزيارة بعد ازدياد المظاهرات، وشرعت تقضي جل وقتها في منزلها مع أولادها، قبل أن تصحبهم إلى لبنان وتقيم لدى أقرباء لها.

بالكاد كان مفيد يستطيع النهوض من سريره، وخلال شهر تدهورت صحته حتى فقد القدرة على الحركة والنطق قبل أن يفارق الحياة في بضعة أيام.

كما طلب مفيد، أحرق يوسف جثته ونثرها فوق نهر العاصي.

7

لكلِّ صحوة

– المشكلة التي نواجهها في سوريا أن نظامها الفاشي، وعوضًا عن أن يسقط خلال بضع سنوات استمر خمسين عامًا، التشرذم الذي تعانيه المعارضة اليوم مرده تشرذم المجتمع نفسه، لقد قتل هذا النظام كل ما يبشر بالخير في سوريا حتى يثبّت أقدامه في الحكم. أصبح الناس يحترمون ضابط المخابرات المجرم وموظف المالية المرتشي، لقد قتلَ العرف الاجتماعي السليم في الدولة، وبدأ الناس يحتفون بالفساد كمشروع وواقع، وكوسيلة يطمحون منها للوصول إلى أهدافهم. صمت لبرهة. وقال:

– لا ليست تلك الجماهير خائنة ولا عميلة. الخائن الأول هو هذا النظام الفج ورئيسه الذي يقتل شعبه بدم بارد.

توقف سليم عن الحديث، ومسح قطرات الدم التي كنت تتساقط من رأسه.

أمسك أبا خالد يوسف من يده وسحبه إلى المطبخ. وهمس له:

– قد يكون هذا السليم كتلة من الجنون لكنه لا يحمل في داخله أية ذرة فنية، في العادة ما يجعل الفنانين عظماء هو جنونهم وتمردهم، ويبدو أن "اللا سليم" يملك الاثنين دون أي ذرة من الإبداع. أنصحك إما أن تطرده أو تسلمه للشرطة، كيف ابتليت به؟

همس يوسف بأنه عندما كان يهم بدخول البناية سمع إطلاق نار كثيرًا، وشاهد أشخاصًا كثرًا ممددين على الأرض، ولمح وجهًا مألوفًا يقطر دمًا وتذكر أنه سليم الذي كان يعرفه معرفة سطحية.

كان يصرخ في مكبر الصوت ويردد هتافات منددة بالنظام قبل إطلاق الرصاص، فوقع على الأرض وشجّت رأسه، فحمله يوسف إلى داخل المنزل.

أمسك أبو خالد رأسه بكلتا يديه، ثم فرك بهما وجهه كالمروحة، رفع يديه ونظر إلى السماء، وتساءل ماذا فعلت عائلة يوسف حتى تبتلى به وبتصرفاته غير الإنسانية.

نظر إلى يوسف، همس له بأن عليه العودة إلى منزله حيث

سيعمل على تسفير أسرته إلى أمريكا في أسرع وقت، وسيعود غدًا مساء حتى يسلم سليم إلى الشرطة أو يطرده من المنزل، ثم خرج بلا وداع.

عندما عاد يوسف إلى الغرفة نهض سليم من مكانه، وقال إنه يشكر لفتته النبيلة، ويأسف على ما سببه من إزعاج، وسيغادر فورا تلافيًا لمزيد من التعقيدات في حياة يوسف.

أوقفه يوسف، سأله إن كان يمكنه الانضمام إليه.

الفصل الثاني عشر

في الطريق إلى مقر تنسيقية الشباب الأحرار، قال سليم إنه عاش كل حياته يخدع نفسه ويخون قلبه وعقله، فقد جعلته هزائمه المؤلمة وأخطاؤه الكثيرة كرسيًا أقرب منه إلى بني آدم، كرسيًا يستخدمه الجميع للجلوس، أو الوقوف.

لم يكن يقض مضجعه إلا اثنان، جوني ووكر، وياسين الحاج صالح اليساري السوري المعارض، فأناس بمثل طهارته يجعلون المرء عاريًا أمام عيوبه، أما بقية الخلق ممن يجدهم في كل مكان، فقد كان يراهم سفلة مثله، أكثر أو أقل خسة.

قال إنه تعلم بشكل تلقائي أن يطيع الست، ويلبي الدعوات التي تأمره بتول بتلبيتها، كان يشعر باختناق كلما غنى أمام ضباط الأمن وشلتهم الفاسقة من رجال الأعمال، كانوا يقتربون منه ويعرّفون عن أنفسهم كي يضمنوا ولاءه وخنوعه وتنفيذ طلباتهم في ترديد الأغاني الأثيرة إلى قلوبهم.

وأضاف:

– طالما تساءلت كيف يمكن للمجرم أو اللص أن يستمتع بالموسيقى؟ كيف له أن يفهم جمالها؟ فجأة أدركني العمر، توفي معظم من أحببتهم، وابتعدت عني القلة القليلة التي تبقت منهم، بت أستيقظ وحيدًا وأنام وحيدا، لم أعد أصادق البشر، أصبحت أنفر منهم وأنفّرهم مني.

بت رجلًا وحيدًا في الأربعين من عمري بلا أولاد أو زوجة، كلما اقتربت مني فتاة أهرب منها أو أدفعها لتهرب مني، وعندما بدأت أفكر في قتل نفسي كنت أجبن من الإقدام على ذلك.

عشت آكل وأشرب أنتظر موتي، إلى أن ظهر فجأة أمامي حلم يتحول إلى واقع. لم أصدق أنني سأعيش كي أرى هذه اللحظة، كنت أشاهد التلفاز وأنظر إلى يدي فأرى الدماء قد عادت تجري في عروقي، كأني ولدت من جديد.

أول ما فعلته كان زيارة قبر والدتي. قلتُ لها وأنا أحضن ضريحها إنني آسف، لأنني خنت كل ما علمتني إياه، ولم أتزوج وأنجب كما أرادت، لكنني الآن مستعد لأتزوج كرجل حر لا عبد، وإن حالفني الحظ، سأتزوج بامرأة حرة، وسأنجب أولادًا أحرارًا أعلمهم أن يمارسوا كل ما يحبونه في حياتهم.

قطع استرساله في الحديث صوت إطلاق نار قريب، طلب من يوسف ألا يجزع فقد كادا أن يصلا غايتهما.

توقفا أمام نزل قديم يدعى "زنوبيا الصحراء"، دخل سليم وخلفه يوسف، عندما رآه صاحب النزل نهض وقاده إلى سرداب خلف المطبخ، قال إن ميسون وغسان في الأسفل أيضًا، وإن الشباب يراقبون الأجواء، وسينقلانهما حالما يكون الوضع آمنًا.

في الأسفل تعرف يوسف إلى اثنين من شباب التنسيقية المحليين، كانت مهمتهما تحرير الأخبار وتنظيم مظاهرات الجمعة في المدينة بالتنسيق مع الثوار في المدن الأخرى، والبقاء بعيدًا عن الاعتقال.

لاحظ يوسف السعادة التي يعيشها سليم في هذه الأجواء الثورية، كان الأمر غير منطقي بالنسبة لشخص مطارد تتساقط فوقه القذائف بشكل مستمر، وعندما سأله عن سر سعادته في وسط كل تلك المعمعة، ضحك سليم وقال إن البشر هم مخلوقات التعوّد، وإن كل شيء يصبح مألوفًا خلال بعض الوقت.

***

بعد 4 أشهر من التنقل بين بيت وآخر، والاختباء في الأنفاق والمرور في ثقوب بين جدران الشقق، اختار سليم أن يعيش في ريف حمص برفقة يوسف متنقلًا معه بين المدينة وريفها، كان يعمل في تنضيد وإخراج الكتب، وتحضير الأغاني والأهازيج الشعبية التي كانت تطلق بداية المظاهرات، ورغم إلحاح يوسف ومن معه من أصدقاء، امتنع سليم عن محاولة استخراج جواز سفر لنفسه. كان

يقول إنه لن يستمتع بزيارة البلدان الأوربية، ولن يقدم أية خدمة للثوار أكثر مما يفعله هنا وهو بينهم، فأفضل أغنية في العالم لن تستطيع إحداث فرق في أي شيء، إضافة إلى أنه لن يسافر من دون يوسف.

أشار يوسف إلى أن الناس تبحث عما يلهمها ويقودها إلى الأفضل، فالفن خطوة إلى إنسان أفضل.

هز سليم رأسه بالنفي. وقال:

– نصف الفنانين الذين أعرفهم لصوص، ونصفهم الآخر بلا أخلاق، وكذلك هم، الناس في هذا البلد المريض الذي تحتاج إلى مبضع جراح لا يرحم.

كنت مثلك... قلت لأحد مجرمي النظام إن الفن خطوة لإنسان أفضل، لقتل الوحش داخل الإنسان، فقال لي بأن الفن متعة ولا فن إلا في المتعة، "شو العيب في أن يكون الفن متعة؟ الجنس شو؟ مو متعة؟ لو ما هالمتعة ما تمتعنا بهالشوفات!!" وأشار إلى الصبايا الجميلات من حولنا.

وأنا أصدقه، الناس هنا يا صديقي تفهم أن الطرب يعني المتعة، وإذا لم يولّد الفن متعة فلا قيمة له بالنسبة لهم. كيف تفسر وجود 10 ملايين معجب بصفحة هيفاء وهبي في حين لا يعرف خُمسهم من هو زياد الرحباني؟ عن أي فن تتحدث؟

كان يوسف وسليم يقيمان معا ولا يفترقان تقريبًا، وفي حين أطلق سليم لحية شعثاء حافظ يوسف على مظهره مرتبًا.

بدأ يوسف في تقديم المساعدة من خلال إسعاف المصابين، لكن ومع ازدياد عدد الجرحى وشح الأطباء وهروبهم، شرع يعالج المرضى والمصابين، وبما تيسر له من أدوات على الرغم من قلة خبرته ودرايته، فوفقا لسليم كان ذلك أفضل من لا شيء. كان يوسف صامتًا معظم الوقت إلا حين يكون مع سليم، فمعه يشعر بأنه بين أهله، كان يذكره بمفيد وحليمة وأهله في القرية، وكان يستمتع برفقته وصدقه. في أحيان قليلة وعندما تكون الأوضاع هادئة نسبيًا، كان سليم يجلس إلى يوسف ويغني عتابا من أغاني فؤاد فقرو، وعندما سأله يوسف عن سر تعلقه بفؤاد قال:

– فقرو لا قبله ولا بعده، ما في سر، فقرو هو السر.

***

كانت الأوضاع تزداد صعوبة في منطقة تتعرض للقصف اليومي من قبل قوات النظام، ولحصار يزداد شدة، ارتفعت بسببه أسعار المواد الغذائية والوقود أضعافًا كثيرة.

نجح سليم في إقامة مدرسة متواضعة لأطفال المنطقة، كان يعلّمهم بعض الموسيقى والأغاني، ويحاول بشتى الطرق الترفيه عنهم، قال ليوسف إنه يشعر للمرة الأولى في حياته بأنه يقوم بعمل

مجدٍ، عمل يجعله قادرًا على النوم ملء جفنيه، وبأنه يستطيع الآن ملاقاة ربه في أية لحظة مرتاح الضمير.

في أوائل شهر نيسان/ابريل 2012 صار كلاهما ملاحقًا من قبل النظام، وهذا بفضل تقرير كتبه مخبر يفترِضُ أنهم هاجموا النظام قبل الثورة، فنزح الاثنان إلى ريف دمشق حيث كانت المناطق في طريقها إلى التحرر من قبضة النظام.

قضى يوسف وسليم الأشهر التالية بين المليحة ودوما، في الأخيرة كانا في بيت واحد مع مريم ميمون، صديقة سليم، الكاتبة والمناضلة والناشطة الحقوقية الشجاعة، التي كانت افتتحت هناك مكتبًا لمركز توثيق الانتهاكات الذي تديره. كان سليم يكن لمريم حبًا أفلاطونيًا مشوبًا بتقدير وتأليه متفرّدين، قال مخاطبًا يوسف من دون أن يرفع نظره عنها:

– مريم فقط من يستطيع أن ينقذ العالم. لا ينقذ البشر إلا امرأة، عندما تستنير بصيرتها وتصبح أكثر إنسانية وأقل حرصًا.

نظر إليه يوسف كمن يسأل الإيضاح، فأضاف سليم:

– ولا يدمره إلا امرأة أيضا. إن معظم النساء قصيرات النظر

بسبب الاضطهاد وقلة التعليم وإهمال المجتمع لهن ملايين السنين، وهن ينقلن لأولادهن ذلك البؤس والوحشية اللتين يجرّعها لهم المجتمع... هل تعتقد أن رجلًا بمفرده أنجب بن لادن؟ لا بد أن والدته هي من صب فيه كل هذا الحقد والقسوة على العالم.

سيصبح الكون أكثر اتساعا ورحمة عندما تتحرر هؤلاء النسوة من قيد الجهل، ويستطعن تربية أولادهن بلا خوف أو ريبة، عندما يتصالحن مع ذواتهن ويصبحن شرفًا لشعوبهن ودولهن، مثل مريم تمامًا.

انتبهت مريم إلى أن يوسف وسليم يراقبانها.

اقتربت منهما، تستفسر تلك النظرات، ثم داعبت سليم بقولها إنه يشبه ضابط أمن جذابًا.

قال سليم:

– ضابط؟

– ما به الضابط؟ وابتسمت.

– الآن؟ في هذه الأوقات.

اقتربت منه مريم، وقالت إنه جميل كما هو، ضابط أم غير ذلك. وسألت يوسف ألا يصدّق أيًا من السموم التي يزرعها في رأسه، فقد شاهدته يخاطبه يشرّح الهواء بيديه.

أجاب سليم بأنه كان يحلل سبب عشق النساء للطغاة حول العالم.

جلست إلى كرسي بجانب سليم، أزالت ملامح اللهو من وجهها. قالت إنها قد تحضر مقالة حول تلك المسألة تحديدًا، فهي فعلا مسألة تستحق إلقاء مزيد من الضوء.

ظن يوسف وسليم أنها تمزح، ونظر كلاهما إليها بشيء من الريبة، إلى أن شرعت تستفيض في الشرح.

قالت مريم إنها خلال الأسبوع الماضي، وبعد انتهائها من محاضرتها في المركز عن حقوق المرأة، وأهمية مساهمتها في إنعاش المجتمع وضرورة مشاركتها الرجل تدبير الشأن العام في الغوطة خصوصا، اقتربت منها امرأة من الحضور كانت في منتصف العمر طويلة القوام وحسنة الهندام. وأضافت مريم:

إن كلام المرأة ذكرني بطفولتي، حين كانت والدتي تقول إن على النساء أن يكن ممتنات للرئيس حافظ الذي قاد انقلابا عسكريًا حمى حقوق النساء.

أخبرتها عن والدتي وذكرتها أن حافظ وبعيد استيلائه وأسرته على السلطة اتُخذت بعض الخطوات لمصلحة المرأة، لكن الانقلاب العسكري أعقبته انتهاكات ضخمة لحقوق الإنسان وتعذيب ممنهج من قبل الأمن والشرطة وفي السجون.

صمتت مريم لوهلة، وقالت بأسى:

– يبدو أن إعجاب المرأة بالديكتاتورات الذكور في الشرق الأوسط أمر شائع. قبل هروبي إلى الغوطة التقيت بالعديد من السوريات ممن حاولن إقناعي بأن الرئيس بشار الأسد أفضل خيار للمرأة في سوريا.

كذلك يبدو أن نوعا جديدا من تمجيد النساء للسلطة يحدث في تركيا، حيث تبجل المحجبات للرئيس رجب طيب أردوغان، لأنه رفع الحظر على ارتداء الحجاب في الحياة العامة.

إن أكثر ما يثير القلق في الأمر هو استمرار النسق الفكري نفسه، الكثير من النساء يشعرن بأنهن يجب أن يدن بالولاء لزعيم رجل "لإعطائهن حقوقهن".

حاول سليم أن يصطنع بعض الفرح، فشرع يغني بصوت عذب.

– يا الله ما لنا غيرك يا الله.. يا الله ما لنا غيرك يا الله..

ابتسمت مريم، ثم بسرعة عادت إلى جديتها، عقدت يدها في الهواء وقالت:

لدينا في اللغة العربية قول منافق ينص على أن "كلام الملوك ملك الكلام" أو ببساطة أن حكامنا هم حكماؤنا، والحال أننا نحتاج

إلى تطوير استعداد معاكس، يقول إن الملوك كذابون، وإن كلام الملوك، أي أصحاب السلطة، غير صحيح إلى أن يثبت العكس، وأنه كلما كان المتكلم صاحب سلطة أكبر وجب إخضاع أقواله وأفعاله لتفحص أوسع، وأن الحكام طائشون وغير مسئولين، ولا يندر أن يكونوا مجرمين.

فلنتذكر أن ملايين المجرمين دخلوا التاريخ عوضًا عن السجن!

زفرت بقوة، واعتذرت مودّعة ثم غادرت بسرعة كمن تذكر شيئا.

نظر يوسف إلى سليم، كان يبدو ثملًا وعيناه حمراوان كأنهما تحملان دمعا، كان لا يزال يراقب مريم تغادر، وعندما اختفت خلف الشجيرات. قال سليم:

– ألم أقل لك؟

كانت مريم هي الأخرى معجبة بسليم، صديق طفولتها القديم، حيث قضت بضع سنيّ الدراسة الأولى برفقته في الجزيرة السورية، وحافظ كلاهما على اتصال متقطع لكن حميم، حتى عندما تنقل كل منهما أكثر من مرة في مدن سورية مختلفة.

كانت مريم تصف سليم بالحقيقي، وتقول إنها تعلمت كل شيء منه وتستشهد بما يقوله.

"الناس قتلى من الجوع لا من الرصاص.. نحن نريد حرية... وبعدين؟".

"إن من حقي أن أكون محترما في بلدي لا فنانا تعيسا وأليمًا، لا حاجة لي أن أكون عالم ذرة حتى أعرف حقوقي أو أطالب بحريتي".

"لا نريد بشار ولا نريد أحدًا من نظامه، إسرائيل لن تكون أكثر بطشًا منه ولا أصم آذانا لو حكمتنا".

ثم تعرّف بابتسامة أن تلك عبارات سليم الخارقة، وتضحك.

كانت تقول عن سليم إنه لم يكن شخصا واسع الثقافة، تخرج بفضل موهبته في معهد الموسيقى لا الدراسة. لكنه كالكثير من أبناء الشعب السوري الأصيل، كان أعمق وأصدق من كل المثقفين الذين عَرَفَتهم.

***

مع بداية عام 2013، أصبح جليًا ليوسف وسليم مع ازدياد القصف والحصار، أن الإقامة لم تعد ممكنة في مكانهما الحالي، خاصة مع تنامي سطوة التيارات الإسلامية والتهديدات المباشرة التي بدأت تطالهما، وهكذا وعلى نحو مفاجئ علما بعد ظهر يوم 9 تموز 2013 أنهما سيرحلان ليلًا نحو الشمال، تشاورا سريعًا،

الرحلة خطرة وغير مضمونة، لكن مريم تفضل رحيلهما.

قالت:

– المدرسة مقفلة، ومعظم المقيمين هنا قتلوا أو نزحوا.

وفي محاولة لإقناع سليم بالرحيل قالت له إنه يمكن أن يلتقي هناك بياسين الحج صالح، فهو أيضا متجه إلى الرقة، فوافق.

2

الطريق.. الطريق

افترقا لأول مرة منذ اجتمعا بداية الأحداث السورية، فقصد يوسف تل رفعت في ريف حلب لإكمال دربه نحو الشمال إلى الحدود التركية، حيث يستطيع أن يتحرك بشكل أكثر فاعلية وتنظيمًا، أما سليم فذهب إلى الرقة للتواري لدى أخيه الأصغر، على أن يلحق بيوسف مع أفراد عائلته.

كان سليم في الطريق من الغوطة الشرقية إلى الرقة في تموز 2013، حين اتصل بصديقه الدكتور إسماعيل الليمون للسؤال عن ياسين، فأخبره أن ياسين غادر إلى تركيا، في حين اعتقلت "داعش" فراس الأخ الأصغر لسليم قبل أيام مع أعضاء المجلس المحلي في تل أبيض.

بعده بثلاثة أيام، اختُطف صديقه إبراهيم الغازي من الشارع أيضًا، وبعده بعشرة أيام الأب باولو دالوليو الذي ظن أنه يستطيع التوسط له، وبعد فراس بـ 100 يوم، اختطف بالطريقة نفسها إسماعيل طبيب الفقراء النبيل.

وقت اعتقاله أول مرة من قبل النظام، كان عمر إبراهيم، ابن فراس الوحيد 17 يومًا ووقت اختطافه الأخير كان إبراهيم تجاوز عامين بقليل.

كان سليم يحمل بعض النقود، أعطاها إلى امرأة أخيه، وطلب منها السفر إلى تركيا متى استطاعت.

جلس أمام الكمبيوتر وشرع يكتب رسالة إلى يوسف:

– باتت الناس الآن، إذ يسمعون الصفير المرافق للطائرة أو للقذائف، تركن في مكانها وتنتظر الصوت المدوّي لسقوطها، ثم تتلفت حولها "لم يكن دوري اليوم" تقول لنفسك ثم تتابع المسير.

القتل في السماء وفي الأرض، نحن بين مجرمين فاشيين، الأول مؤمن أن القتل مثل العيب بين أربع جدران "ليس عيبا" في حين يتباهى فاشيو داعش بقطع الرؤوس وتصوير أفعالهم البربرية.

خلال 6 أشهر ليست هناك معلومات عن فراس، كل شيء يختنق في المدينة الكئيبة الواقعة تحت طغيان إجرامي مميت.

ملاحظة: غادرت الرقة، أنا في عينتاب، وسآتي إليك في أقرب وقت.

محبتي

سليم.

وصلت رسالته إلى تل رفعت لكن سليم لم يصل، فبعد أيام قضاها مترقبا العبور إلى إعزاز في الشمال السوري، تعرض موكبه المؤلف من 3 دراجات نارية إلى قصف "هاون"، قتله ومن معه من ثوار ومهربين.

***

في كوخ معزول بُني على عجل بين أشجار بساتين تل رفعت الشمالية، استيقظ يوسف مع أول خيوط الفجر، وصّل جهاز كمبيوتره الشخصي إلى بطارية صغيرة، ومن ثم موقع الفيس بوك فشاهد عددا من طلبات الصداقة، من بينها إحدى صديقاته القديمات في المدرسة، ميّز صفحتها وصورتها الشخصية وفيها تضع يديها على خدودها وتبتسم بابتذال مصطنع وزائد.

ابتسم عندما تذكر ما قالته سعاد عن الفيس بوك:

"في بنات بتتصور وبتقلك بالصورة تعى نيكني، أو شوف كمي، أو إلى ما هنالك"، ثم حزنها على انطلاق ثورات الربيع العربي

وما قالته خلال دفن مفيد قبل أن تغادر سوريا وتنقطع أخبارها: "هذه آخرة الفيس بوك! بعد أن كنا سعيدين بالوجوه الجميلة للعاهرات وأخبارهن، أصبح الفيس بوك كتيبة حربية متقدمة... البشر لا يمكنهم أن يتموا أي شيء يبدؤونه بشكل طيب".

سمع دويّ إطلاق نار من رشاش حربي وأصواتا بعيدة لم يميزها، نهض بهدوء إلى خارج الكوخ، كان المكان يلبس خيوط الضوء ببطء فيرمي على أشجار الزيتون من حوله منظرًا بريئًا.

بضع دقائق واختفت الضوضاء، عاد إلى صفحته على الفيس بوك.

تحقق من بريده الخالي مرة أخرى. لا شيء. ولج صفحة مريم على الموقع، كانت قد كتبت على صفحتها قبل 3 أيام:

"بدأت الثورة في سوريا كحركة احتجاجية شعبية طالبت بإصلاحات ديمقراطية، لكن، وبدل الاستجابة لها بإيجابية بنّاءة، جابهها الأسد بقمع عنيف. وما يتلو هذا عادةً إما النجاح في سحق الاحتجاج، وإما أن يتطور الاحتجاج ويلجأ للتسلح، وهذا ما حدث في سوريا. وعندما تدخل الحركة الاحتجاجية هذه المرحلة، تشهد ديناميكيات جديدة عادةً ما تفرز أكثر المكونات تشددًا وضراوة إلى الصفوف الأمامية.

لم تبدأ الجماعات الجهادية بالظهور في سوريا سوى بعد انقضاء

أشهر طويلة من الثورة. وكلما ساء الوضع بالنسبة لغالبية الناس أصبحت الظروف أفضل للجهاديين المتشددين. عندما تتعرض البيئة الاجتماعية للتدمير، ويُقتل عشرات الناس يوميًا في كل أرجاء البلد، بينما يكتفي العالم بالمشاهدة، يشكل ذلك البيئة المثالية للجماعات العدمية. ترتكز معتقدات هذه الجماعات على فرضية أن العالم شرير ويتآمر ضدنا، نحن العرب أو المسلمين. وبالمناسبة يتشارك النظام الأسدي والجماعات الجهادية بهذه النظرة البارانوئية للعالم.

على الشعب السوري إن أراد التخلص من كبوته ألا يتجه إلى تبني الفكر التجاري والرائج.

علينا أن ندع كل تصوراتنا عن القيم التي تفرزها الحضارات المختلفة غربية أم شرقية وراءنا، مؤمنين بأن العدالة لا التسامح هي المنارة الحقيقية للثورة، وهي أول هدف نحققه حتى نعبر منه إلى إنجازات أخرى تصالحنا مع ذواتنا، ومنه مع ما حولنا ومع الكون أجمعه".

حدد ملصقها الأخير، ومن ثم أرسله إليها بالبريد الخاص، وأرسل رقم هاتف جديدًا في أسفله. كانت تلك علامة على ضرورة الاتصال السريع، ونوعا من التشفير اتفق عليه مع سليم ومريم، حتى يؤكد كل منهم شخصيته وتلافيا للرسائل المزورة والمضللة.

انتظر حتى ظهر ذلك اليوم دون أن يصله أي اتصال، شعر بحلقه جافًا عندما وصلته رسالة من نشطاء في الغوطة مفادها أن كتائب متشدّدة قامت بعمليات خطف طالت ثوارًا غير إسلاميين، كالدكتور أحمد البقاعي ومعه قائد كتيبة في "قوات المغاوير" واثنين من قادة "المجلس العسكري" والناشطين العلمانيين مريم وسميرة، ومأمون الخطيب، وهناك دلائل تشير إلى تورط هذه الجهات المتشدّدة في كل تلك الأحداث.

كما تمت سلسلة محاولات اغتيالات لناشطين مدنيين وآخرين من قادة الكتائب المسلحة، كان أهم ما نجح منها اغتيال أبي رمان غيطاني ذي التوجه الناصري الاشتراكي.

لم يكن وصله نبأ سقوط سليم، أغلق جهازه، اغتسل بطاستين باردتين وقطعة صابون بلدي، وعاد على متن دراجة نارية يقصد المستشفى الميداني في تل رفعت.

***

توقف في أحد مستودعات الأدوية الذي تموله دول خليجية، كان يحتاج إلى بعض الأدوية بشكل عاجل.

التقى ناصر قدسية، وكان جراحا مشهورا في بريطانيا قبل أن

يترك عمله ويلتحق مع أولى موجات المتطوعين إلى شمال سوريا وبمباركة تركية، وكان الأخير يعرفه.

نهض ناصر وحيّاه بطريقة إسلامية صرفة، وسأله القدوم إلى جامع الإمام الأشعث بن بشير ولو يوم الجمعة على الأقل.

وعندما سأله يوسف عن سر التسمية، قال ناصر بأن الغرض هو توحيد الصفوف وإعلان الثورة الإسلامية المسلحة، كما أنه نوع من التكريم للإخوة في الخليج الذين يصرون على تسمية الكتائب والمنشآت بأسماء عربية.

– عربية أم إسلامية؟

– لا فرق يا أخي يوسف، الإسلام والعروبة واحد.

لم يشأ يوسف أن يخوض في عراك مع مسئول المستودع، فطلب أدويته حتى يغادر قبل عودة القصف.

لم يكن ناصر قد اكتفى، فشرع يشكر رجال الإسلام في دول الخليج التي لم تتأخر في دعم الثورة والأحرار في سوريا على عكس الدول الأجنبية الكافرة أو تلك المتخاذلة عن نصر الحق والإسلام.

سحب يوسف من يده، أجلسه في ركن هادئ من المستودع. وقال:

– هناك اليوم أحاديث متزايدة عن نية الغرب تزويد المعارضة

بالأسلحة، أعتقد أن هذه حقائق مُضللة. في حقيقة الأمر لو كانت الولايات المتحدة ومعها إسرائيل مهتمة بإسقاط النظام السوري، لكانت هناك جملة من الإجراءات التي أمكن القيام بها، إن الموقف الأمريكي والإسرائيلي غير راغب في رؤية النظام يسقط حقًا.

ربما لا يحبون النظام، لكنه نظام اعتاد أن يكون مرنًا في الاستجابة لمتطلباتهم، وأي بديل يجهلونه قد يكون أسوأ في هذا الصدد. الأفضل إذن مراقبة السوريين يقتتلون ويدمرون بعضهم بعضًا.

تحمس ناصر فرفع إصبع يده اليمنى في الهواء وقال:

– لقد صدر القرار الدولي صريحا إلى العلن "ليس مسموحًا للثورة في سويا أن تنتصر". ينبغي لنا أن نقرّ بذلك. غياب التوافق الدولي أو الإرادة الدولية يترك الواقع الميداني ساكنًا تقريبًا، فلا توجد إرادة لتمكين الثورة من الانتصار ولا إرادة لتمكين النظام من البقاء.

الجيش الحر خاضع لظروف الإمدادات وخطوطها التي تتحكم بها القوى الدولية عبر بعض الدول المجاورة، وطرق الإمداد تُستخدم كوسيلة للابتزاز السياسي، وقد جرى قطعها مرات لوقف تقدمه الميداني.

من الواضح أيضًا أن القوى الاستعمارية المفترضة لم توفر جهدًا لمنع سقوط النظام، أو حتى إضعافه. في الحقيقة فعلت هذه القوى عكس ذلك تمامًا... لم تساعد الجيش السوري الحر، أو المجلس الوطني السوري على فرض مناطق حظر طيران ومناطق آمنة طالبت بها كلتا المجموعتين منذ خريف عام 2011. لم يحصل "الجيش السوري الحر" على صاروخ ستنجر واحد ولو من السوق السوداء، على الرغم من استخدام النظام طائراته المقاتلة منذ أكثر من 24 شهرًا.

اسمع يا دكتور يوسف.. بعد الله تبارك سبحانه وتعالى علينا أن نعتمد على أنفسنا، ومن ثم إخوتنا في الخليج، والشباب الطاهر الذي يترك عمله وأمواله الميسرة في أوربا والعالم ويسندنا هنا، محبة في الله وإخوانهم في سوريا.

علينا فصل البشر بين الصادقين ممن عاهدوا الله ورسوله الكريم أشرف المرسلين عليه صلاة الله وسلامه وبين الآخرين، علينا توحيد البندقية والطبيب والمهندس تحت راية الإسلام، إن فعلنا ذلك فوالله لا نكون أمة مشرذمة بعد اليوم يأكلها القريب قبل البعيد.

لم يكن يوسف في مزاج للنقاش، خاصة بعد خبر اختطاف

أصدقائه في الغوطة، لكنه شعر بوطأة حديث ناصر على صدره، فقال إنه قلق من أي نظام يقترن بالشمولية، لأن ذلك يعني وفي كل مرة مقدمة لإلغاء الآخرين المختلفين، فنزع صفة الإنسانية عن بعض البشر هو المقدّمة النظرية لإعدامهم جميعًا.

وبلهجة أكثر صلابة أضاف:

– يقولون لك إن كل شيء من حولك طيب، وإن العيب فيك أنت! وهذا يكون في أحيان كثيرة نفاقا وجورا خالصين، أعرف أشخاصا قاموا بالكثير من الأمور السيئة لا لأنهم أرادوا ذلك، بل بسبب سوء المجتمع نفسه، لكن عندما حانت الفرصة عادوا فقاموا بالأمر الصائب، ولولا ذلك التطهر لما كنتُ أمامك اليوم.

ستحتاج سوريا عقودًا لتستعيد عافيتها، وتتخلص من آثار الفوضى، لكن إلغاء مكونات المجتمع السوري وحصرها في إطار واحد وتدويل الشأن السوري، ستكون له انعكاسات كبيرة جدًا على مسار الثورة وعلى سوريا المستقبل.

– عن أي سوريا تتحدث يا حكيم يا مثقف؟ عن أي تدويل تتحدث؟ كيف تكون تلك الدولة الكبيرة التي سيصنع أولادها التاريخ دون أن تصنع هي نفسها أو حدودها أو كيانها الثقافي الخاص بها، دون أن تتخلص من الجزء المريض في جسدها؟ هل تتوقع أن يتم ذلك بالغناء؟ لا يا سيدي لا يتم إلا بالسيف.

أدرك يوسف أن عليه المغادرة بسرعة، فنهض مودعا.

هز ناصر رأسه بريبة. شكره يوسف على الأدوية، آملا في أن يلتقي به مرة جديدة في ظروف أفضل.

– نعم.. نعم. هز ناصر رأسه مرة أخرى، ودعا أن يكافئه الله على قدر محبته للدين ونصرة إخوته في الإسلام. وكأنه يدفعه للكشف عن ملته، لكن يوسف لم يفعل.

أخذ الأدوية، ورحل.

3

قاهر الدواعشة

على الرغم من أن كل أهالي منطقة تل رفعت قد عاصروه، لم يكن بينهم من يعرف الكثير عن أبي عدنان سوى أنه مدمن كحول شره وحشاش، تفوح منه رائحة الحشيش الذي كان يهرّب من تركيا. قصير، نحيف البنية، أبيض الوجه، فمه خال تقريبا من الأسنان.

عمل أبو عدنان "خضريًا" يركب على ظهر بغله الوحيد في المنطقة، ويحرس بساتين الزيتون لأصحابها خلال موسم القطاف مقابل مبلغ بسيط، ثم يختفي حتى موسم حصاد الزيتون المقبل الذي يُجمع كل عامين.

كان مشهورا أيضا بصوته بالغ العذوبة، فقد كان يردد بعض مواويل العتابا خلال تجواله ليلا لحراسة المحاصيل.

التقاه يوسف بعد وصوله تل رفعت، كان مصابا بشظية في خاصرته، جاء به أحد أبناء المدينة إلى يوسف لكن أبا عدنان رفض دخول المشفى الميداني، فاضطر يوسف للخروج إليه يحاول اقناعه الدخول اتقاءً لشر القنص والقذائف. لكن أبو عدنان رفض، كان يضع يده اليسرى في جيب سترته المموّهة ويحمل سيجارة حشيش في يديه اليمنى فوق جذعه الدامي. صاح بتحدٍّ درامي عندما اقترب منه يوسف:

– آني... أبوعدنان، وسأقضي على الداعش، واا سأقضي على داعش، وسأقضيهي عا الدواعشة وأحرر البلاد، من هايا.. سا.... سأحرر البلاد من.... من هذا الجيش الفاسق. الجيش الدواعشة، الفاسق، من الدواعشة. وقذفَ وجههُ وجذعه إلى الأمام كمن يبصق.

شرع يتكلم ويهتز يمينا ويسارا، ويرفع يده اليمنى ويهوي بها نزولا. سحب نفَسا من سيجارة الحشيش في يده اليمنى ثم رفع السيجارة بيمناه أمامه كمن يتحدث إلى الكاميرا.

ثبّت يده عاليا.

وقال:

– وهذه هويتي، وهذه نعمتي.

اهتز رأسه فوق جسده كأنه استفاق فجأة من النوم. قال بصوت قوي:

– و"أنيش" بشار الأسد، و"أنيش" أم عبد الله عتروش، و"أنيش" أخت الدواعشة... و"أنيش" أخت الحرية، و"أنيش" أخت النظام و"أيري" بالدواعشة من صغيرهم لكبيرهم. سحب نفس من سيجارته بنهم.

– و"أنيش" أخت الدواعشة، وآني أبو عدنان صاحب الأفندة البيضة، وآني أبو عدنان صاحب الأفندة البيضة.

قدّم رجله اليسرى إلى الأمام وضع يده فوقها، وهوى بيده اليمنى.

بعد دقيقتين جمد في مكانه واقفا، فحمله يوسف بمساعدة بعض الموجودين إلى داخل المشفى. لم يكن جرحه خطيرا، فقد دخلت شظية صغيرة خاصرته اليمنى وخرجت دون أن تحدث عطبا كبيرا.

استيقظ بعد يومين لا يتحدث إلى أحد.

بعد ساعتين طلب كيسه وأغراضه الشخصية، وعندما أحضروها إليه نهض إلى الحمام، أشعل سيجارة حشيش ارتدى ثيابه على عجل، وهمّ يغادر. قبل أن يصبح خارج المشفى لاحظ يوسف يتحدث إلى بعض المرضى.

اقترب منه، انتظره حتى انتهى ثم سحبه من يده خارجا.

حاول يوسف أن يسأله عن المنطقة التي قدم منها، وإن كان يعرف أحدا بحاجة إلى المساعدة. سأله عن اسمه. لكن أبا عدنان

تجاهل كل الأسئلة. قال:

– اسمع دكتور يوسف، أنا ديني العتابا، أي إنسان أو حيوان بيسمع العتابا فهو أخي وصديقي وأبي وأمي.

ليك دكتور يوسف، أنا بعرف كتير حيوانات، بس متل "هالأخوات الشرموطة" البني آميين. وحرك يديه كمروحتين مشيرا إلى المجتمعين في المشفى الميداني وثم رفعهما بتواتر وكأنه يحاول أن يحيط العالم من حوله. وقال:

– ما شفت ولن ترى عيناي... يا ويلي "شو أخوات منيوكة".

أنا طالع على تركيا، وسأعود بعد سنتين لأحرر البلاد. هل تريد أن تأتي معي؟

شكره يوسف باقتضاب واعتذر يريد الدخول لمعاينة المرضى.

– حسنا... كما تريد... مع أنك تهدر وقتك، مع أنك ستقتل، مع أنهم سيقتلونك، لو كنت مكانك لهجرت البلد مدة خمس سنوات على الأقل.

نظر أبو عدنان في عيني يوسف بكل ما أمكنه من جَلَد. قال:

– ستموت قريبا إن لم تغادر.

تقدم بخطوات سريعة وقصيرة. رفع يده مودعا.."عليكم سلام يا كدش".

4

الضحية والجلاد

– عرفتُ أبا عبد الرحمن المصري أواخر عام 2012. يومها زارني في بيتي الكائن في قلعة المضيق في حماة مع صديقٍ سوري من جبهة النصرة، ومعهما شاب مصري آخر اسمه أبو البراء المصري. جاء الشابان يومها كضيوفٍ ليستخدما الإنترنت الفضائي الذي كان يتوفر لديّ كي يتكلما مع أصدقاءٍ لهما من مصر ويحثوهم على القدوم للقتال في سوريا، حيث سمعت أبا البراء يناشد صديقه عبر الهاتف: "أخبر الشباب أن يتحركوا بسرعة. أمريكا قد تعلن جبهة النصرة منظمة إرهابية قريبًا، وسيصبح السفر إلى سوريا صعبًا جدًا".

كانت جبهة النصرة في بداية نشاطها في سوريا في تلك الفترة، والتي استهلّتها بتفجيراتٍ كبيرة استهدفت فيها مراكز عسكرية

وأمنية في قلب العاصمة دمشق. وكان مقاتلو النصرة يُعرفون بالبدايات بالصلاح والسمعة الحسنة بين الناس، مع بأسٍ شديد في محاربة النظام.

اتكأ الصحافي مهند على الحائط، كان فرغ لتوه من تناول عدة أرغفة خبز مع زيت وملح وبعض حبات الطماطم، أشعل سيجارة، نظر إلى رجله المصابة المضمدة بخرق بالية، ثم إلى يوسف، وهزّ رأسه كأنه يشكره. سحب نفسين من سيجارته، ثم عاد يقص رحلته.

– لم تسنح لي الفرصة للتعرف جيدًا إلى أبي عبد الرحمن في ذلك اليوم، فالبيت كان مليئًا بالضيوف والثوار، والرجل بدا هادئًا، قليل الكلام مقارنةً بزميله الآخر أبي البراء الذي دخل في جدلٍ دينيّ مع أحد الضيوف، انتهى إلى خلافٍ شديد تطلّب مني التدخل كي أضع حدًا له.

أصبح عبد الرحمن المصري أسطورةً حربيةً في الأسابيع والأشهر التالية. فقد تمكن من اقتحام قاعدة تل عثمان العسكرية المرتفعة في حماة والسيطرة عليها عن طريق استخدام مسدساتٍ كاتمة للصوت، وتوظيف عددٍ صغيرٍ جدًا من العناصر، ونال الرجل احترام الأهالي وعناصر الجيش الحرّ الذين فشلوا قديمًا بالاستيلاء على القاعدة رغم المحاولات المتكررة.

قابلت أبا عبد الرحمن المصري للمرة الثانية بعد نحو شهر

إثر "غزوةٍ مظفّرة" قادها الرجل في ريف حماة الشرقي، ويومها تعرض لإصابةٍ متوسطة، فبادرته بالزيارة في مقرّه الجبلي في قرية "الكركات"، حيث حدثني باستفاضةٍ عن المعركة التي خاضها في منطقة قريبة، والتي قُتل فيها عشرات الجنود ممن تسلّطوا على رقاب البدو الفقراء من أبناء تلك المنطقة.

لم تكن نظرتنا سلبية لجبهة النصرة في تلك الأثناء. والفصيل الجهادي الناشئ من رحم الثورة لم يكن قد أعلن بعد عن ولاءه للظواهري، وبدا لنا أن جبهة النصرة هي مجرد حركة عسكرية ثورية شبابها متدينون قليلًا، مثل شباب حركة أحرار الشام الإسلامية ونتشارك معهم المقرّات والمعارك.

لكن المجموعة التي برزت في حماة تحديدًا كانت تضمّ عناصر متطرفين غريبي الأطوار نوعًا ما. فهناك، على سبيل المثال، مجاهد تونسي كان يعيش في سويسرا، لكنه قال لي في نقاشٍ بسيطٍ دار بيننا يومًا إنه أتى إلى سوريا لذبح أعداء الله، وهم بنظره النصيرية والدروز والإسماعيلية والمسيحيين، بالإضافة للمرتدين من أهل السنة والجماعة. وطبعًا كلمة المرتدّين هي كلمة فضفاضة جدًا عنده. وكلام الرجل كما فهمته يومها يعني ببساطة أنه أتى ليذبح الشعب السوري كله تقريبًا، مع أنه قادمٌ من سويسرا! أما أبو عبد الرحمن المصري فقد كان مختلفًا تمامًا. فهو كشخص متدين متسامح جدًا، وقريب من الوسطية السورية.

في مقابلةٍ صحفية أجريتها معه أوائل عام 2013، سألته ماذا ينوي أن يفعل في حال سقط النظام في سوريا، فأجاب: "أسأل الله تعالى أن يرزقني الشهادة، وإن كتب لي البقاء فسأكون بين أمرين، إما أن أرجع إلى بلدي، أو أن أمكث كوني أحببت هذه الأرض، فأشتغل بأي ميدانٍ من ميادين الخير في هذا البلد الطيب. يجوز أن أعمل إمام مسجدٍ مثلًا".

ودارت الأيام وحصل الشرخ في جبهة النصرة أوائل عام 2013، عندما انقسمت المجموعة إلى قسمين، قسم انحاز إلى صفّ أبي بكر البغدادي عندما أعلن ضمّ جبهة النصرة إلى دولة العراق الإسلامية معلنًا قيام (دولة الإسلام في العراق والشام) داعش، وقسم اصطفّ إلى جانب القائد السوري لجبهة النصرة أبي محمد الجولاني، الذي تنكّر لأميره الأصلي، رافضًا قرار البغدادي، ومقدمًا البيعة في اليوم التالي لأيمن الظواهري، زعيم تنظيم القاعدة، مبررًا قراره بأنه يرتقي من الأدنى إلى الأعلى.

في تلك المرحلة المصيرية في تاريخ جبهة النصرة انحاز أبو عبد الرحمن المصري للزعيم الأصلي أبي بكر البغدادي، واختفى عن المنطقة لمدةٍ قصيرة، وخصوصًا أن مجموعته نفسها بايعت الجولاني، لكن ما لبث أن عاد في بضعة شهورٍ مع مجموعةٍ من الليبيين والتونسيين، مستقرًا بدايةً في بلدة أقصى شمال سهل الغاب، ثمّ زحف ببطءٍ مجدّداً بعض العناصر المحلية حتى وصل

إلى منطقة الجابرية في ريف حماة الشمالي، وأسس لجماعته مقرًّا صغيرًا هناك. كان ذلك أواسط عام 2013، عندما ظهرت دولة الإسلام داعش في أقوى حالاتها، وبدأ صيتها يسبق فعلها، واشتهر عنها مكافحة اللصوص والفاسدين، إضافةً لخطف النشطاء وقتلهم، وخصوصًا الصحفيين والإعلاميين، يومها أصبح أبو عبد الرحمن أمير ريف حماة، وهو يتبع إداريًا لوالي حماة الذي كان مستقرًّا في منطقةٍ جبليةٍ سرّية حول مدينة كفر نبل في إدلب.

وفي شهر تشرين الأول (أكتوبر) 2013 خطفت مجموعة أبي عبد الرحمن الناشط المسيحي المعروف إبراهيم النادر "أبا حنا"، وهو رجلٌ ستينيّ، ومعارض قديم لنظام الأسد ترك مدينته السقيلبية بسبب الضغوط الأمنية، وانتقل للعيش في منزل أحد الأصدقاء في قرية "كفر موس" في جبل الزاوية. بقي أبو حنا في سجون داعش خمسة أيام قبل أن يكتشف الجيش الحر أمر اختطافه، ويهدد داعش ويجبرها على إطلاق سراحه.

تكلمت مع أبي حنا رحمه الله بعد خروجه من الأسر، قبل أن يتوجه إلى باريس للعلاج من مرض السرطان الذي زادته سوء ظروف الاعتقال، فحذرني أن جماعة داعش يضمرون لي الشر، وأنهم سألوه عن علاقته بي، وماذا يعرف عني.

وهنا قررت تدارك الأمر بيني وبين داعش قبل فوات الأوان، وخصوصًا أن أبا عبد الرحمن صديقٌ قديم، وهو يعرفني جيدًا،

وأن "بيننا خبز وملح"، كما يقول المثل السوري.

وفي الفترة التي كان فيها معظم النشطاء السلميين يغادرون الشمال السوري هربًا من بطش داعش، توجهت إلى مقرّ أبي عبد الرحمن لأحلّ خلافهم معي. لم أجد الرجل هناك، ولكني صادفته في قرية ترملا في جبل الزاوية في اليوم التالي. كان يقود سيارة دفع رباعي، ومعه بعض عناصره. أوقفت الرجل، سلمت عليه، ثم سألته بشكلٍ مباشر: "لماذا سألتم أبا حنا عني؟ أنت صديق قديم وتعرفني جيدًا، ولا حاجة لكي تضمر شيئًا في قلبك تجاهي. إذا كان لديك شيء ضدي، تفضل لزيارتي وبإمكاننا أن نتناقش كأصدقاء".

حاولت مجاملة أبي عبد الرحمن في تلك الفترة لأني لم أكن أرغب بمغادرة البلاد، أو أن أتعرض للاختفاء من دون أن يعرف أحدٌ شيئًا عني.

لكن أبا عبد الرحمن نظر إليّ نظرةً غريبةً، شعرت من خلالها أني أرى في عينيه وحشًا مرعبًا لم أره فيهما من قبل أبدًا، وقال:

– حسنًا، سأزورك في مكتبك ويكون لنا حديث.

لم أنتظر تلك الزيارة المشئومة، بل عجّلت بمغادرة البلاد وسط تسارع الأحداث وقرب سيطرة داعش على معبر باب الهوى، وهو المنفذ الوحيد المتبقي لنشطاء إدلب وحماة كي يفرّوا بأرواحهم من القتل والخطف. كان ذلك أواسط شهر تشرين الثاني (نوفمبر)

عام 2013، وكانت الثورة في حالةٍ مزرية، بدت فيها وكأن التهام داعش لها بالمرة هو مسألة وقتٍ ليس إلا. أشكر الله أنني خرجت برصاصة سطحية في الساق فقط، كان يمكن لتلك الرصاصة أن تكون في رأسي.

غادر يوسف الغرفة، أحضر دلوين كليهما فارغ. طلب من مهند أن يقضي حاجته في هذا الدلو، فالخروج غير آمن.

شكره الصحفي، وسأله عن المكان حيث يقيم.

قال يوسف إنها مدرسة ابتدائية تم تجهيزها كمشفى ميداني، لكن قلة تقصّدها الآن بسبب القنص وقصفها المتواصل الذي لا يكون أغلبه من النظام، ولا يأتيها إلا من ضل طريقه أو من كانت حالته لا تحتمل الانتظار.

سحب مهند نفسا من سيجارته وقال:

– أعتقد أنني أستطيع تحمل الجوع والألم وكل شيء، إلا انقطاعي عن التدخين... فهذا مستحيل.

أريد أن أموت وبيدي سيجارة، وإذا حدث وقتلت في هذا المكان الظريف، فأرجو أن تدفنني وبيدي سيجارة.. هكذا.

ووضع يده على صدره، والسيجارة بين إصبعيه. وشرع يضحك فابتسم يوسف.

قال مهند بأنه للأسف لا يستطيع الكتابة إلا باللغة العربية، جرب أن يكتب باللغة الإنجليزية لكنه واجه صعوبة كبيرة، فإتقان اللغة

شيء والكتابة بها شيء آخر. وأضاف:

– هل تعلم أن سبب تخلف مجتمعاتنا هو اللغة؟ نعم يا حكيم، إنها لغتنا العظيمة، فلغتنا العربية لغة محافظة جدا، ولهذا فمجتمعاتنا محافظة أكثر منها، يمكنك أن تدرك هذا الآن، خاصة بعد طفرة الحركات الجهادية في سوريا والتي تتنافس فيما بينها في التشدد. لا تقل لي إن النظام وحده المسئول عنها فتفقد احترامي وامتناني لك.

لم يقل يوسف شيئا، فتابع مهند تحليله:

– إذا كان من شيء أكرهه أكثر من داعش والنصرة فهو كرهي لمجمع اللغة العربية التافه. لا همّ لأعضائه سوى تعريب الكلمات الأجنبية دون أدنى محاولة لتطوير اللغة ذاتها وصقل قواعدها.

الأجدى لهم أن يحاولوا تغريب اللغة العربية لا تعريب المفردات.

ثم ضحك بشكل مصطنع ينظر إلى يوسف كمن يسأله أن يشاركه الضحك.

إيه يا بلد، إيه يا دنيا.

بعد نحو دقيقة صمت سأل مهند عن الأحوال في الجوار وغمز بعينه.

هز يوسف رأسه يستزيد منه. فقال مهند إنه يقصد الكحول والنساء.

قال يوسف دون أن ينظر إلى مهند:

– لا يوجد شيء هنا، الحدود قريبة، يمكنك الذهاب غدا أو بعده، فجرحك غير عميق.

شكره مهند مبديا احترامه ليوسف، قال إنه يفضل الذهاب مساء اليوم، وهو لا يريد أن يشكل عبئا على المشفى وساكنيه.

في المساء شد مهند على يدي يوسف مغادرا، وقال إنه قد يعود بعد أن يتعافى تماما ويروي شبقه الجنسي.

***

يوسف لم يكن قلقًا على سلامته الشخصية، لا في الغوطة ولا في ريف حلب، حيث تتبدّل الوجوه باستمرار، وغالبا ما تكون الجديدة أكثر بطشا وقسوة.

بدأ القلق يتسلل إلى قلبه بعد شهرين من إقامته في تل رفعت، حيث بدأت جماعات غريبة الأطوار والتشدد تتحكم بها، أصبح يسمع من مرضاه قصصًا مقلقة عن تحول ثوار الأمس إلى سماسرة حرب وتجار وأصحاب لحى دينية دولية.

قالت له منيرة وكانت أرملة وأمًا لأربعة أولاد:

– قضيت 14 يومًا مع أولادي في معبر إعزاز، طلبوا مني 100 ألف ليرة حتى يسمحوا لي بالعبور إلى تركيا، قلت لهم إن زوجي استشهد في المظاهرات إلى جانبهم، بكيت كثيرًا وطلبت منهم أن ينقلوا أولادي فقط، لكنهم رفضوا.

أخبرني أحد العالقين معنا بأن المعبر إلى أنطاكيا ما زال مفتوحًا

أمام اللاجئين، وأن قوات تركية تسيطر على المنطقة ولا تسمح بفرض الإتاوات كما الحال هنا، وفي الطريق إلى هناك تعرضنا لإطلاق نار كثيف من مروحية، قتل ولدي البكر وأصيبت وبقية أشقائه.

إلى جانبها وقفت سيدة أربعينية تدعى أم هشام، كانت طبيبة وحقوقية تعرف منيرة وزوجها، أخبرت يوسف بأن منيرة التي اعتقلها حافظ الأسد 4 سنوات وعذبها جلاوزته في جيل سبق، اختطفها الدعاة الكفرة مع نشطاء حقوقيين قبل أكثر من خمسة شهور.

قالت:

– كنا نحو 20 امرأة محبوسات في غرفة لا تكاد تتسع لنا وقوفا، أخذوا منيرة غداة وصولها فعزلوها عنا، ثم ربطوها إلى شجرة في حقل مقفر، كان الوقت شتاء، وكانت وحيدة، عضدت القيد بأسنانها ومزّقت أطراف ثوبها، بكت كثيرا حتى تحول صراخها إلى عواء، لكن شيئا لم يشفع لها في تليين قلوبهم.

السفلة رفضوا إطلاق سراح أي منا حتى المصابات والحوامل، إلى أن داهمتهم قوات محلية فأفرجت عنا مع مجموعة أخرى كانت محتجزة في مقر قريب.

وأضافت:

– حال منيرة وأطفالها يمثل حال سوريا بين نظام هو الوحشية مجسدة، وبين إسلاميين هم اللا إنسانية مجسدة، كان بناء السجون

وصيانتها من أول ما حرصوا عليه في مناطق يسيطرون عليها، مثل سوريا، منيرة قضيتي، قضية حرية.

نظر إلى عينها مباشرة، يحاول أن يستجمع خيوط الأفكار التي وتّرتها كلماتها.

"هل تؤمن فعلًا بالحرية؟ ما الحرية التي تبحث عنها؟". فكر في حاله قبل الثورة وتحوله الدراماتيكي، وربط بينه وبين المتغيرات في سوريا وطفرة التيارات الإسلامية المتشددة في سوريا والعراق "لا بد من فهم، كلا الأمرين يحتاج إلى طفرة في العقل البشري".

قطع حبل أفكاره نداء استغاثة مرير.

عندما خرج شاهد شاحنة بيضاء صغيرة أمام باب المشفى الميداني، كانت الدماء تقطر منها حتى سالت فوق الأرض، في الخلف كانت عدة أشلاء وأجساد مصفوفة فوق بعضها. ميز جسدًا يتحرك ويصرخ بهيجان، كانت فتاة بيضاء جميلة الوجه، تقطر الدماء من يديها ورجليها، حملها بشكل تلقائي محاولًا إدخالها إلى المشفى، قبل أن يهم بالدخول بدأت القذائف تتساقط فوقه، لم يشعر بخطرها لوهلة. استعاد فكرة أن البشر سيعتادون أي شيء مهما كان قاسيًا، شعر بخدر في يديه وصفيرٌ صمّ أذنيه هيئ له أن لونه أصفر.

4

الرحمة

كانت تجلس في مقعد صغير، إلى جانبها جلست فتاة صغيرة، أخذت تداعبها وتبتسم لها، تلك طفلتها، ملاك صغير له ابتسامة ساحرة وعينان عسليتان تنثران السحر من حولها.

آه من هذه الابتسامة، كانت ساندرا تداعب ابنتها وتضحكان معًا، لا يستطيع الانتظار عليه أن يضمهما ويستنشقها.

خاطب نفسه، سيقترب منها ويبتسم لها، سينحني ويقبّلها حتى يستعيد تلك الرائحة، كيف له أن ينساها؟

ستسامحه على ما فعله في غيابها، وستطهر بدنه وتبدأ معه حياة جديدة، هي فقط قادرة على جعله إنسانًا كاملًا، هي فقط قادرة على أن تسند رأسها على صدرها وتجعله ينام، يبكي، ويحيا.

سيستعيد معها تلك اللحظات بكامل سحرها، عندما تملؤ رائحتها الزكية صدره فترفعه عن الأرض.

اقترب منها، لم تتراجع ووقفت بثبات، وضع يديه على خصرها، ومال إلى رقبتها يستنشقها حتى ملأت الرائحة صدره.

رفع رأسه شبه سكران، نظر إلى عينيها تتحديانه، وقبلها في شفتيها، قبضت على وجهه بكلتا يديها، أحنت جسدها حتى لامس منتصفها شيئه، فشعر بالنار التي تكوي الجسد وتمزقه من فرط الرغبة، دفعت رأسها بعيدًا عنه، نظرت إلى عينيه حتى شعر بأنها تستطيع رؤية أحشائه وبأن قناعه سقط وتحطم، ابتعدت عنه، أدارت جسمها وشرعت تمشي بعيدًا، لم يلحق بها، كانت في عالم مقدس يخاف الولوج إليه، إنها أطهر وأرفع من أن تقيم بيننا.

تذكر فجأة أنه أحسن حالًا من دونها، وأنه عاهر يضاجع النساء من أجل نقودهن، أو هكذا تخيل في حينها... لا، لا.

كان غبيًا، سيخبرها بأنه لم يستطع أن ينسى رائحتها، وبأنه عرف نساء كثيرات، لكنها هي فقط من تسكن قلبه، سيقول لها إنه أخطأ عندما لم يلحق بها، وتجاهل رسائلها.

فجأة اختفت ساندرا، وقطعت حبل أفكاره سيدة ترتدي ثوبا أبيض تسأله أن يفتح فمه دون أن تسقيه شيئا، أخبرها بأنه يريد شرابا منعشًا

فهو عطِش جدًا. أمسك بثوبها، أخبرها أن ما يريده حقًا، وما سوف يعني العالم في هذه اللحظة هو وردة حمراء جميلة حتى يقدمها إلى زوجته التي تجلس هناك، وأشار إلى كرسيها الذي بدا فارغا. ابتسمت السيدة ووعدته بأن تجلب له الوردة.

فجأة ظهر رجل له هيئة الضابط بلحية سوداء بشعة فجلس مكان ساندرا، نظر يوسف إليه مباشرة وكأنه يعرفه، كان الرجل يركض نحو الطفلة التي تحمل المطر في عينيها، قبّلها، وبدورها ابتسمت له.

بعد قليل تغيرت ملامح الرجل، غدا أكثر وسامة، ثم أصبح يوسف يجلس في مكانه، كانت ساندرا إلى جانبه، وتعبث بأصابع يديه، وتقبّلهما، تنهد يوسف ملء رئتيه.

صدر صوت صراخ وانفجارات صمّت أذنيه، وفجأة عاد ذلك الوجه الملتحي مرة أخرى يطلب منه النهوض، ثم مد يده فسحب الفتاة وضمها إلى صدره، وبيده الأخرى انتزع يوسف من مكانه وقذفه في الهواء.

اختفى المقعد وظهرت يد ساندرا تسقط في هوة سوداء، وتحول كل شيء إلى لون أحمر، وأصبح يوسف يرى وجوها كثيرة، بعضها

يبكي يطلب النجدة، وتذكر أنه فقد ساندرا بسبب مرض السرطان اللعين قبل سنوات، وتدريجيًا فقد قدرته على التشبث بالحياة. أغمض عينيه، حاول أن يبحث عن تلك الهوة حتى يقذف نفسه فيها، فقد القدرة على البحث، وزاغت عيناه، خفتت الأصوات، وتلاشى صوت العويل حتى اختفى تمامًا وحل ظلام صافٍ كقطعة جليد سوداء، وأدرك يوسف أن كل شيء انتهى الآن.

أتوجه بالشكر إلى اللطفاء:

- مصعب زكريا، لدماثته ولكرمه.
- مصعب الحمادي، والقيّمين على موقع الجمهورية aljumhuriya.net الذين استخدمت بعضا من موادهم في إثراء أجزاء الفصل الأخير من الرواية.
- الجميل جدا ياسين الحاج صالح، لأن صدره الواسع تحمّل مناشدتي المشفرة وكلماتي الطويلة وسمح لي بالاسترشاد بمقالاته الرائعة في صياغة وبناء معظم الفصل الأخير من الرواية.

المؤلف في سطور

جميل ظافر نهرا

- من مواليد سورية.
- عمل في الصحافة والترجمة منذ 2008: جريدة الخليج في الإمارات، دار الصدى للطباعة والنشر، وقسم الاتصال المؤسسي في شركة الاتحاد للطيران.
- يعمل حاليًا في إدارة الاتصال الحكومي في هيئة الإمارات للهوية في أبو ظبي، كمؤسِس ومدير قسم الاتصال الداخلي.
- صدر كتابه القصصي الأول "360" مارس/ آذار 2011.
- البريد الإلكتروني:

jamil-nahra@hotmail.com

افترقا لأول مرة منذ اجتمعا بداية الأحداث السورية، فقصد يوسف تل رفعت في ريف حلب لإكمال دربه نحو الشمال إلى الحدود التركية، حيث يستطيع أن يتحرك بشكل أكثر فاعلية وتنظيمًا، أما سليم فذهب إلى الرقة للتواري لدى أخيه الأصغر، على أن يلحق بيوسف مع أفراد عائلته.

كان سليم في الطريق من الغوطة الشرقية إلى الرقة في تموز 2013، حين اتصل بصديقه الدكتور إسماعيل الليمون للسؤال عن ياسين، فأخبره أن ياسين غادر إلى تركيا، في حين اعتقلت "داعش" فراس الأخ الأصغر لسليم قبل أيام مع أعضاء المجلس المحلي في تل أبيض.

بعده بثلاثة أيام، اختُطف صديقه إبراهيم الغازي من الشارع أيضًا، وبعده بعشرة أيام الأب باولو دالوليو الذي ظن أنه يستطيع التوسط له، وبعد فراس بـ 100 يوم، اختطف بالطريقة نفسها إسماعيل طبيب الفقراء النبيل.

دار العين للنشر
Elain Publishing House
9 789774 903182